

الأعداد السماوية

دراسة في تموضعية
الأعداد في القرآن الكريم

100

دكتور صلاح شفيق

الأعداد السماوية

دراسة لغوية في تموضعية الأعداد
في القرآن الكريم

٢٠١٦

مكتبة النهار

إِهْدَاء

إلى روح أبي .. الشيخ الجليل ..

الشيخ محمد متولي الشعراوي

كلما تساءلت أي رجال الأمة المجدد لشبابها خطرت في
بالي ..

أحببنا القرآن من خلالك .. فجزاك الله عنا خيراً

ابنك : صلاح شفيع

..

مُقَلَّمَةٌ

يتميز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية بسمات ينفرد بها : فهو أولاً عربي ، ولا تجوز ترجمته ، وما المترجمات للقرآن إلا ترجمات لمعانيه ، لكنها لا تعد قرآناً ، لينفرد القرآن بأنه الكتاب السماوي الذي ظل باللغة نفسها التي نزل بها ، قال تعالى في سورة يوسف :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف) .

وينفرد أيضاً إلى جوار أنه نزل عربياً ، واستمر عربياً . بأن الله ﷻ لم يتركه للبشر يحفظونه ، بل تعهد هو بحفظه فقال في سورة الحجر :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (يوسف) .

وذلك لأنه ترك الكتب السابقة لأهلها ليحفظوها كما أخبرنا في سورة المائدة :

﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ (المائدة) .

فقوله (بِمَا اسْتُحْفِظُوا) يفيد أنه تركها لهم ليحفظوها . ولأن القرآن هو العهد الأخير بين السماء والأرض ، فلم يشأ الله ﷻ أن يترك كتابه الأخير لأمة محمد ، بل حفظه بنفسه ، ولذلك نرى مع ضعف المسلمين وشدة أعدائهم فإن القرآن م عصوم ، وكلما ازداد ضعف المسلمين ازداد هذا الكتاب انتشاراً لأنه كتاب الله فلا علاقة له بتقدم أو تخلف المسلمين .

فلم يترك الله ﷻ القرآن الكريم للمسلمين برغم ما يتميزون به من مهابة لكتاب الله ، ويتجلى ذلك في حرصهم الشديد على حفظ أحاديث رسوله ﷺ وتنقيتها من الدخيل ، إلى حد أن هناك أناساً نذرت حياتها لتلك المهمة ، ناهيك لو كان هذا كتاب الله ، ومع ذلك

وبرغم وجود هؤلاء الرجال الذين يموتون من أجل عدم تحريف كلام الرسول S إلا أن الله Y تعهد بحفظ القرآن ، ولا ندري ماذا يكون الحال لو تركه للناس ليحفظوه وهم في حالة ضعف يقدر عليهم عدوهم . والقرآن كلام الله ، لذلك فهو لا يسرى عليه الزمن ، قد ينزل متأخراً ، لكنه هذا لا يعني وجوده متأخراً ، فبرغم أنه آخر الكتب السماوية نزولاً إلا أنه أولها جميعاً ، فهو موجود منذ الأزل، وهو أسبق الكتب السماوية ، أسبق مما سبقه في النزول ، أسبق من التوراة والإنجيل:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)

انظر إلى قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) أى أن الزبور الذي نزل قبل النبي S ، كُتب بعد الذكر (القرآن الكريم) وقد كتب رب العزة في الذكر (القرآن الكريم) أن الأرض يرثها عباده الصالحون ، ثم كتب هذا القول بعد ذلك في الزبور ، مما يقطع بأن القرآن الذي نزل بعد الزبور بما يقرب من ألفي عام ، سبقه في الوجود .

وهو ليس أسبق الكتب فحسب ، بل هو أيضاً سيبقى مهما حدث ، فهو باق إلى الأبد لأنه كلام الله ، والله حي لا يموت . والقرآن ليس مخلوقاً كما قال المعتزلة ، لأن المخلوق يموت ، والله حي لا يموت ، ولا تموت صفاته .

والقرآن أنزله جبريل عليه السلام من السماء السابعة إلى السماء الأولى كاملاً في ليلة القدر ، ثم بعد ذلك نزل على محمد S منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وقد نزل القرآن في المرتين عربياً ، ولا يمكن ترجمته إلى أية لغة أخرى ، فلا توجد لغة عندها القدرة على التفريق بين إشعاعات الكلمات ، ولا توجد لغة تدرك الفروق الدقيقة بين ما يسمى المترادفات ، فما اللغة التي يمكن أن تفرق بين تلك الكلمات في معنى واحد هو الرجوع :

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمَقِّ دَسَّ طُورَىٰ﴾ (طه: ١١)

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (النمل: ٨)

إن الفعل أتى : يعني أنه بدأ رحلة إلى مكان ، لكنه لم يصل إلى المكان بعد ، أما الفعل جاء فتعني أنه قد وصل فعلاً إلى المكان . ولهذا نرى أن السياق مع الفعل جاء يخبر موسى

بأنه الله γ ، وبأن عليه أن يخلع عليه ، فهذا يفيد أنه قبل الدخول إلى المكان . أما السياق في الثانية مع الفعل (جاء) فتفيد أنه أصبح في المكان بدليل مباركته . والأمر نفسه :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرِيءُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (١٧) ﴿ (مريم) .

لقد جمعت الآية السابقة الفعلين معاً ، فمريم عليها السلام قدمت على قومها من بعيد ، فهنا عبر عن ذلك بلفظة (فَأَتَتْ) ، ثم لما حدثوها عما اقترفته في نظرها قالوا لها (لَقَدْ جِئْتَ) .

كذلك الفعل رجع ، رد .. ولتقف عند تلك المغايرة القرآنية بين الفعلين في قصة رجوع موسى عليه السلام إلى أمه :

٥ | مغايرة قرآنية :

﴿ ١٣ ﴾ [القصص]

كَيَّ فَرَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ

فَرَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ

1

﴿ ٤٠ ﴾ [طه]

كَيَّ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ

فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ

2

الصورة الأولى ١: { فَرَّدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ } : الرد هو الشروع في الإرجاع ، فالطفل الصغير

موسى ما زال في قصر فرعون ، والحديث عن إرجاعه لأمه قبل الرجوع عندما حرم الله γ عليه المراضع ، فلم يترك لهم سبيلاً سوى قبول نصيحة الأخت (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ) ، فلما وافقوا ، كانت الموافقة هي رده لأمه ، برغم أنه لم يصبح في أحضانها بعد ، فإن حملته أمه تكون اللفظة الدقيقة للتعبير هي (فرجعناك) .

والأمر نفسه في قوله تعالى لأم موسى : (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَىٰكِ) يتحدث عن رجوع لم يتم بعد ، لكنه سيتم فيما بعد ، فهي ما زالت لم تلقه في اليم ، فإذا ألقته وذهب إلى هناك حيث قصر فرعون ، فإن الله γ سيبدأ له من هناك طريقاً للرجوع .

الصورة الثانية 2: { فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ } : الحديث هنا موجه إلى موسى عليه السلام ، فهو

يحكى له موقفاً سابقاً حدث له في طفولته ، في سياق المن عليه ، ولذلك عدل عن لفظة الشروع في الرجوع أي هو في الطريق إلى المكان الذي تركه وهو بيت أمه . والمن يقتضى

أن يكون قد رجع فعلاً ووصل إلى بيت أمه ثانية . كما أنه لا يحكى القصة بتزامنها الوقتى ، فهو لا يصف لنا رحلة موسى منذ ألقته أمه في اليم ، حتى وصل إلى القصر وحرمت عليه المراضع وجاءت أخته تعرض عليهم مرضعاً ، وهنا كانت موافقتهم هى شروع في إرجاع إلى أمه ، والإرجاع هو وصوله إلى أمه ، فلما كان مازال لم يرجع فهو في مرحلة الشروع لذلك أطلق لفظة (رد) فإن وصل إلى أمه فعلاً كما حدث بعد ذلك أطلق لفظة (رجوع) . وكانت الدقة في استخدام الشروع حين كانت سورة القصص تتبع الطفل وتتحدث عن اللحظة بين وجوده في القصر وبين رجوعه إلى أمه ، أما سورة طه فهي تحكى عن المن بالرجوع إلى الأم فعلاً ، والقصة قد حدثت كلها .

وتلاحظ دقة في أساليب الخطاب ، فقبل رجوعه لا يدري بما يتم استخدام التعبير بالغائب ، لكن لما رجع إلى أمه وفرح به استخدم معه التعبير بالخطاب .

الرد : هو الشروع في فعل الرجوع ، فإذا أردت الرجوع إلى بيتك الذي خرجت منه ، فهذا هو الرد ، فإذا وصلت إلى بيتك فعلاً فقد رجعت .

الرجوع بعد وصولك فعلياً إلى نقطة الانطلاق التي غادرتها قبلاً .

وهكذا ترى أن القرآن لا يمكن أن تحل كلمة مكان أختها التي بمعناها عند الناس ، وإنما إعجاز القرآن الكريم في نظرنا إنما يكمن في التموضع : أي أن الكلمة لا تكون إلا هكذا ، ولا يصلح أن تتقل أو تبدل حتى مع أختها . ولعل الله يوفقني في إنجاز كتاب عن التموضع في القرآن الكريم .

إن اللغة تفرق بين الميت بتشديد الياء وهو الإنسان الذي لم يميت لأنه صائر إلى الموت ، محكوم به عليه . فإذا مات أصبح ميتاً بتخفيف الياء . فهو ميت في حياته ، ميت في موته ، أما الله فهو الحي الذي لا يموت ، انظر إلى الأسلوب القرآني الذي يعطى تعريفات الكلمة بوصفها :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْيَحْيَى الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (٥٨) ﴿ (الفرقان) .

أما ما يتميز به القرآن فهو أن كل كلمة لا يمكن أن تسد مكانها كلمة أخرى ، فهي كلمات محكمة في مكانها ، لا يصلح مرادف الكلمة أن يحل محلها ، إن كلمة نسوة لا يصلح

أن يحل محلها كلمة نساء ، ولا كلمة قدرة يمكن استبدالها بقرود ، فكلتا الكلمتين وزن فعلة وهو وزن يعني فئة مخصوصة تمتاز عن جنسها العام بصفات خاصة ، فالنسوة هي الفئة الاجتماعية المترفة اللاتي يقتلن الفراغ ، والقدرة هي نوع من القرود ممسوخ خاسئ لا يتمتع بانطلاق القرود وخفتها .

كذلك (فُتِحَتْ أَبْوَبُهَا) تختلف عن (وُفِّتِحَتْ أَبْوَبُهَا) ، فالأولى خاصة بجهنم التي تفرع القادمين إليها بالفتح بغتة ، والثانية معها واو الحال خاصة بالجنة فتلك حالتها عندما جاءوها أى كانت مفتوحة قبل حضورهم .

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠) (آل عمران) .

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٧) (آل عمران) .

إن لفظة (بَخَلُّ) في الآية الثانية لا يمكن أن تسد مكان لفظة (بَفَعْلُ) ، والعكس بالعكس . فالعبارة الأولى على لسان الملاك لذكريا يبشره يحيى ، والثانية على لسان الملاك لمريم يبشرها بعيسى . وولادة يحيى ليست معجزة ، لكنها مخالفة عادة أن ينجب عجوزين في سن متأخرة لهذا لم يستعمل للتعبير عن مخالفة العادة لفظة (يخلق) . أما الثانية (ولادة عيسى) فأمر خارق للطبيعة فهو معجزة لأنه خلق يماثل خلق آدم يتم بدون الطريق الطبيعي للإنجاب ، لهذا استخدم لفظة (بَخَلُّ) ولا يصلح اللفظان في التبادل ، لأن كل منهما لا يصلح إلا في مكانه . فكسر العادة المتبعة ليس بخلق ، والإنجاب دون أب خلق .

إذا استخدم (خلق) فلا يصلح (أنشأ) ، انظر إلى قوله تعالى :

● ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (١) (النساء) .

● ﴿أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٩٨) (الأنعام)

لا يمكنك أن تضع كلا الفعلين مكان الآخر ، لأنه في النص الأول يتحدث عن نفس واحدة هي آدم ، فقد خلقهم الله Y من أصل واحد هو نفس أبيهم آدم . ومن تلك النفس الواحدة (آدم) ، خلق زوجها (حواء) ، ومنهما معاً بث نوعي جنس الإنس من الذكور والإناث .

● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء) .

وفي النص الثاني يتحدث عن أصل آدم ، فقد أنشأه الله Y من تراب ، فعند الحديث عن الأصل

الترابي لآدم استخدم الفعل (أنشأ) ، وقد ذكر بعدها قوله (فَسْتَقَرُّ وَمُسْتَوْدَعٌ) أى أن التراب الذي أنشأ منه آدم سيكون مستقراً له يعيش فوقه ، ومستودعاً تحته (عند الموت) . فما بعدها يفسر أن المقصود الأصل الذي جاء منه الإنسان ، فهذا التراب الذي أنشأ منه آدم سيمشى فوقه أثناء حياته ، وسيدفن تحته بعد وفاته .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام) .

وهكذا نرى أنه عندما راعى الأصل الترابي استخدم أنشأ ، وعندما راعى الإنشاء من عدم استخدم خلق .

إن الجملة القرآنية بناء أشبه ببناء السماء ، متماسك دون لحام ، لا انفصام لها ، كذلك الجملة القرآنية بناء ، يشد بعضها بعضاً . فلا يمكن أن تضع كلمة مكان كلمة ، ولنعط أمثلة سريعة ، فالقرآن يفرق بين الجلوس والقعود ، ليس كما قيل أن الجلوس : من الوضع نائماً ، والقعود من الوضع واقفاً ، لا ، هذا كلام تنقصه الدقة . القرآن يستخدم لفظة الجلوس إذا كانت مدة الجلوس قصيرة ، ويستخدم لفظة القعود إذا كانت مدة المكث طويلة . ولذلك لا يمكن أن تضع كلمة مكان أخرى .

القرآن يفرق بين القبور والأجداث ، فالقبور ما احتوت الميت بداخلها ، فإذا خرج منها لم تعد قبراً ، بل جدث . ويفرق بين البيوت والديار ، فالبيوت من البيتوتة وهي الراحة فهي المناسبة للسكن والسكنى ، أما الديار فهي من السوء لهذا لا يستخدمها إلا إذا فارقها أهلها . فلا يمكن أن تحل واحدة مكان الأخرى . ويفرق بين الإمساك عن الكلام والإمساك عن الطعام ، فالأول صوم والثاني صيام .

ويفرق القرآن بين القادر والمقتدر ، فالقادر هو من يعلن القدرة قبل التنفيذ ، فإذا أثبت أنه أهل لما قال فهو مقتدر . والقرآن يفرق بين الخشية والخوف : فالخوف منك ، والخشية من الآخر ، فلو كان الشيء ليس مخيفاً وخفت منه فأنت خائف ، لأن العيب فيك أنت ، أما إذا كان الشيء عظيماً يستحق الخوف منه فهي الخشية . وإذا كانت الأشياء متداخلة في مكان واحد وصفها بلفظة (شَتَّى) فإذا كانت متباعدة في أماكن عدة سماها (أَشْنَاءًا) فالتباعد النوعي يسميه شَتَّى ، والتباعد المكاني يسميه (أَشْنَاءًا) .

وعلى مستوى الجماعات : إذا كانت الجماعات متفرقة يسميها (أَبَايِلَ) ، وإذا كانت

متوالية يأتي بعضها في الأثر البعض الآخر يسميها (أَفَوَاجًا) وإذا كانت متحدة يجمعها مكان واحد وزمان واحد يسميها (زُمرًا) .

وعند التقسيم إذا انقسم الشيء إلى أجزاء فهو يختلف عن انقسامه إلى أفراد ، فالأول يسميه (عِزِينَ) وهو أن يقسم الشيء إلى قطع صغيرة . والثاني يسميه (عِزِينَ) فهو تقسيم الفريق الواحد إلى أفراد متفرقة .

لقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية ليكشف عن قدراتها ، وعن استعصائها على الترجمة لأنها لغة متموضعة تضع لكل تنويع كلمة خاصة ، فإن كنا نتحدث عن أفعال الظهور ، فستجد عائلة تتجاوز بضعة عشر فرداً ، لكل ظهور لفظة خاصة :

- برز : منفردا (وحده ليس معه غيره) .
- بان : ظهراً منفصل عن ضده .
- طلع : ظهر بعد خفاء لأول مطلع .
- بدا : ظهور غير متوقع .
- ظهر : ظهر بعد التغلب على غيره .
- أنس : ظهر بطريقة تزيل الوحشة .
- فشا : ظهر منتشراً في غيره .
- بشر : ظهر مع حسن وجمال .
- نبغ : ظهر الطبع المستتر .
- كشف : ظهور بعد أزاحة الحاجب .
- شاف : ظهور متعمد ليراك الناس .
- صرح : ظهور مع خلوص من غيره .
- وبص : ظهور مع وميض .
- تشوف : ظهور بزينة لحبيب .
- وضع : ظهور كأنه لا يوجد سواه .
- حصص : ظهور متمكن ومستقر .

فأي اللغات يمكن أن تترجم هذا الفعل بتنويعاته التي لا يسد فعل منها مكان الآخر ، إن اللغة العربية مدينة للقرآن الكريم ، فهو أعظم المستخدمين ، وأنا ضد الهاجس الذي عاق علماء عظام عن اكتشاف كنوز كانت بين أيديهم ، ومنعه من رؤيتها فكرة غير صحيحة ، فقد كان هم كثيرين من علماء اللغة أن يثبتوا عربية القرآن ، فكان كل همهم هو تطويع القرآن الكريم للغة العربية وإثبات أنه لم يخالفها ، وإذا خالفها تعسفوا من أجل أن يثبتوا أنه لا يخالف قواعد العربية ، وفي المقابل يعتمدون كل شذوذ من شعراء العربية القدامى قانوناً وحجة لغوية لمجرد أنهم من مستعمليها الأنقياء ، وأنا لا أحمل هذا الهاجس ، فقد أغناني القرآن الكريم عن إثبات عربيته عندما قال عنه رب العزة :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف).

فهو عربي عروبية متلازمة مع نزوله ، ولو لاحظت استعمال لفظة أنزل ، التي تفيد الإنزال دفعة واحدة ، أي أن هذا الإنزال السماوي من السماء السابعة إلى السماء الأولى عندما نزل في ليلة واحدة مباركة هي ليلة القدر ، فهو عربي بكل ما فيه حتى قبل نزوله إلى الأرض على خاتم النبيين S .

إِنَّا

فيها توكيد ، وجمع ، وإدغام نونين : عربي

١- أما التوكيد : لأن ثمة منكرين يرون أن القرآن ليس مُنزلاً من عند الله ، فيأتي التوكيد لكسر إنكارهم .

٢- أما الجمع : للتعظيم ، وهو أسلوب متبع عند العرب ، أن يتحدث الرؤساء والملوك بصيغة الجمع ، لما في ذلك من استيعاب الهيبة .

٣- إدغام النونين : لأن الله واحد ، والقرآن لا يترك النونين مفكوكين إلا إذا كان الجمع ينقسم إلا إذا أراد غير متحدين .

أَنْزَلْنَاهُ

لم يقل (نزلناه) لأنه يتحدث عن القرآن كاملاً في نزوله السماوي . لأن الفعل (أنزل) أي أنزل دفعة واحدة ، بخلاف (نزلنا) يفيد النزول التدريجي ويقصد به النزول إلى الأرض ، فالله y يتحدث عن منة عامة وهو نزول

القرآن من السماء إلى السماء في صورة عربية ، ولو لم يكن كذلك ما فهموه عندما ينزل عليهم . فالإنزال هنا خاص بمنة عامة تتعلق بالقرآن كاملاً .

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

● قال الزمخشري :سمى بعض القرآن قرآنًا ، لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ^(١) ، وبرغم صحة تعليله ، إلا أن النص لم يسم بعض القرآن قرآنًا ، فلفظة قرآن هنا المقصود به القرآن كله . والكلمة حال موصوف ، والصفة لا تتفك عن موصوفها ، أي أنه كان قرآنًا عربيًا وقت الإنزال . فهو قرآن قطعاً ، لكن عند الإنزال شاء الله أن يكون عربيًا ليفهموه ، وكان يمكن أن يجعله أعجمياً ، لكنه لم يفعل :

● ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت).

● قال ابن كثير ملخصاً كمال شرف القرآن : أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ^(٢) .

● في وصف الكتاب بالمبين امتنان على العرب ، بأن جعله بلغتهم ليسهل عليهم فهم معانيه .

● ﴿فَاتِمَّا يَنْتَرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الدخان) .

● وقد حجب ألف قرآننا (قُرْءَانًا) بينما أثبتته في الآية التالية لها مباشرة ، فقال (هَذَا الْقُرْءَانُ) وذلك لأن القرآن في العبارة الأولى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا) هو القرآن الكامل الذي نزل في السماء ، وقوله (هَذَا الْقُرْءَانُ) يقصد بها هذا الجزء الذي تم الوحي به . ولعلك تلاحظ اختلاف الرسم القرآني بين اللفظين ، ففي الأولى حجب ألف المساواة ، لأن لفظة قرآن الأولى عامة ، فقرآن الله يختلف عن أي قرآن آخر ، فلاشتراك مفترقات في الكلمة حجب ألف المساواة لعدم التساوي بين قرآن الله وقرآن غيره ، أما هنا فهو يقصد أن هذا الجزء هو نسيج من كل . فهنا يقصد جزءاً من قرآن الله ، وكل جزء من قرآن الله

(١) الزمخشري ، الكشاف . . الجزء الثاني ، ص ٤٤٠ .

(٢) ابن كثير ، الجزء الرابع ، ٣١٣ . .

يساوى الجزء الآخر ، لذلك وضع ألف المساواة ليقرر أن هذا الجزء من نسيج الكل ، الجميع يتساوى في كونه من عند الله .

ومادام القرآن قد أنزل عربياً ، فلم يكن ثمة حاجة لدي لإثبات ما أثق في إثباته ، وقلت ما ضرهم لو اعتبروا القرآن الكريم أحد مستعملي هذه اللغة ، وبدلاً أن يطبقوا عليه قوانين اللغة العربية ، يستخرجون منه قوانين في تلك اللغة بصفته أحد مستعمليها ، بل هو المستعمل الأعظم الذي أخرج منها ما لم يكن يتوقعه أحد :
وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل) .

إن القاعدة العربية تنصب المضارع إذا اتصلته به الفاء بعد الطلب ، وهنا وجدنا التحفظ الشديد في التعامل مع الفعل (فَيَكُونُ) إلى درجة أن لسان حالهم يقول : ليت هذا الفعل جاء منصوباً ..

ولا يدرون أن القرآن الكريم لا يملك إحساس المتهم الذي يتلبسهم ، ولا يسعى لإثبات أنه عربي ، وقد تحررت مما أثقل به غيري نفسه ، فتوجهت في تعاملتي مع القرآن على أنه أحد المستخدمين الأنقياء لتلك اللغة ، لا يقل عن أفحل شعراء العربية المستشهد بهم ، بل هو المستخدم الأبرز . وانظروا ماذا وجدت ؟ في هذا المثل تحديداً ، بل وكل ما يشبهه :
لقد وجدت أن القرآن الكريم ينصب الفعل بعد الطلب فعلاً ، لكنه هنا عدل عن النصب ؛ لأنه يضع قانونه الخاص : وهو أن ثمة فارقاً كبيراً بين الاستعمالين :

قولنا : اجتهد فتتجح ، فالفعل منصوب بعد تلك الفاء السببية ، وهكذا كل مضارع يترتب على الطلب . أما قول الله ﷻ : كن فيكون ، فالأمر يختلف ، وذلك لأن المضارع لا يترتب على الأمر ، بل يزامنه ، وهنا لا ينصب المضارع بعد الفاء ، لأنه لا يترتب على المضارع ، بل يحدث معه في الوقت نفسه ، فقبل أن ينتهي الفعل (كن) يحدث الفعل يكون ، وتتحد النونان الأخيرتان معاً في الحدوث . وهنا تعدل اللغة عن النصب إلى الرفع .

وبذلك كشف لنا القرآن في استعماله الفريد الفرق بين فعلي الاستجابة ، فالاستجابة المترتبة لها وضع (النصب) ، والاستجابة المترتبة لها وضع آخر (الرفع) .

وشبيه بذلك أداة النهي (لا) التي إذا طلبت وجب الجزم ، وإذ بالقرآن التي استعملها كثيراً جازمة ، يخالف ذلك في استعمالين ويأتي بالفعل مرفوعاً بإثبات

النون :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ ﴾ (البقرة) ٨٣
 ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (البقرة) ٨٤

وهنا كما اتفقنا ليس عليك أن تبحث عن حجة تبرر بها هذا العدول القرآن ، بل عليك أن تدرس الاستعمالين ، وهنا ستقف على قانون لغوي يقدمه لك القرآن الكريم ليكشف لك عن تزامنية اللغة العربية ، وقدرتها على التفريق بين النهي لحظة النهي ، وبين النهي محكياً ، فعندما تقول لابنك : لا تفعل كذا فالأداة جازمة لأنك توجه له الأمر بالأمتناع ، لكن ماذا لو بعد سنوات قلت لابنك أتذكر يوم قلت لك لا تفعل كذا ، هنا أنت لا تنهيه ، بل تحكي عن نهيك له : وهذا ما حدث من القرآن الكريم عندما فرق بين :

١. قوله الأول أثناء الميثاق لبني إسرائيل : لا تعبدوا إلا الله . فهي أداة ناهية والفعل مجزوم .

٢. قوله الثاني بعد زمن : أتذكرون يوم أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله ، هنا لا ينهاهم هذه اللحظة ، بل يخبرهم بحكاية هذا النهي ، والإخبار مرفوع .

ألم أقل لكم : لغة تزامنية ، تفرق بين النهي المباشر الآن ، وبين أن تحكي عن هذا النهي ، لأنك إذ تحكي عن هذا النهي ، فلست تنهي ، ولذلك يجب العدول عن الجزم .

والكتاب الذي بين أيديكم هو دراسة لغوية في تموضعية الأعداد في القرآن الكريم ، لكشف السر وراء استعمالها بتلك الطريقة ، وكذلك لإثبات أن ذلك العدد كالجبل لا يريم من مكانه ، ولا يصلح إلا في مكانه ، ولا يمكن أن يتزحزح ، أو يحل محله شيء مشابه ، فإنك لو قلت ثلاث ظلمات بدلاً من ظلمات ثلاث لتغير المعنى . ولو قلت عورات ثلاث بدلاً من ثلاث عورات لتغير المعنى . ولذلك أطلقت عليه اسم الأعداد السماوية .

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : استعمالات مخصوصة للأعداد ، تناولت فيه بالدراسة ثماني تعبيرات

قرآنية تناولت العدد بطريقة مخصصة .

أما الفصل الثاني فقد كان خاصاً بالتمييز ، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول يتناول اختلاف التمييز للعدد الواحد كما فعل في تمييز العدد سبعة بين سنابل وسنبلات . وقد تناول هذا المبحث ثماني أمثلة .

المبحث الثاني ، فاختص بالتمييز المجرور بمن ، وتناول ستة أمثلة .

المبحث الثالث : فتناول احتجاب التمييز وقد تناول عشرين مثلاً . لتصل الأمثلة المدروسة في هذا الفصل إلى ٣٤ مثلاً .

أما الفصل الثالث : فتناول العدد ذاته ، وقد جاء في ثمانية مباحث : تناولت : (العدد واحد / الفرق بين أحد ، وواحد / الفرق بين الصيغ العددية / الفرق بين ثاني اثنين ، ثالث اثنين / الفرق بين ثاني اثنين ، ثالث اثنين / الثنائيات / التجمعات الثنائية / الكل والمتبقي / النائب عن العدد) .

وجاء الفصل الرابع .. ليتناول تسع قضايا متعلقة بالأعداد تناولت عدد الساجدين ليوسف ، ، وأيام خرس زكريا ، وآيات موسى التسع لفرعون ، ومحمولات السفينة ، وعدم النسخ في عدة النساء ، وزيادة لفظة مفتريات ، والأراضي السبع ، وأيام الخلق ، وسرعة الضوء . وقد حاولت أن أحل في هذا الفصل الآيات القرآنية التي جاءت في مباحثها ، وكذلك دراسة الرأي المخالف للقرآن الكريم بشأن هذه القضايا .

إن أريد الإتيان ما استطعت .. وهل الإصلاح إلا كذلك .. ولا أرجو من الله سوى أن يتقبل هذا العمل ، وأن ينفع به مجموع المسلمين الباحثين منهم وغير الباحثين .

وعلى الله قصد السبيل ، ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

د. صلاح شفيع

بلقاس - ديسمبر ٢٠١٥م



الفصل الأول



أعداد مخصصة

الفصل الأول

استعمالات عددية مخصوصة

تمهيد :

هناك تعابير عددية استخدم فيها القرآن الكريم طريقة غير اعتيادية في استعمال العدد ، كأن لا يقول مثلاً (٩٥٠) إذا كان يقصده ، ويعدل عنه إلى قوله (ألف إلا خمسين) فهذا المبحث يتناول عن أسرار هذا الاستعمال ولماذا عدل عن الاستعمال التقليدي إلى هذا الاستعمال الخاص . وقد تكرر الاستعمالات العددية الخاصة في الأمثلة الآتية :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٢٥ ﴾ (الكهف) .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ ١٤٧ ﴾ (الصافات) .

﴿ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ١٥٥ ﴾ (الأعراف) .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ٢٣٤ ﴾ (البقرة) .

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ١٤ ﴾ (العنكبوت) .

﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنْ تَمَنَعِ بِالْعَبْرِ إِلَى الْحِجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ٢ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحِجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ٤ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ٥ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ١٩٦ ﴾ (البقرة) .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ١٤٢ ﴾ (الأعراف) .

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ١٦٠ ﴾ (الأعراف) .

المثال الأول | ثَلَاث مِائَةٍ سِنِينَ :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (٢٥) (الكهف) .

الاستعمال التقليدي : تسعاً وثلاثمائة سنة .

الاستعمال القرآني : ثَلَاث مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا .

هذه الآية تستعمل العدد بطريقة غير مألوفة ، فالطريقة المألوفة عند الناس في هذا الاستعمال : ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ تِسْعًا وَثَلَاثُمِائَةٍ سَنَةً . لذلك كان عدول القرآن عن الاستعمال التقليدي دعوة للوقوف على أسرار هذا الاستعمال :

- ١- لماذا قال (وَلَبِثُوا) ؟
- ٢- لماذا قال (فِي كَهْفِهِمْ) ؟
- ٣- لماذا استعمل تمييز العدد (جمعاً) بدلاً من المفرد (سنة) ؟
- ٤- لماذا استعمل الجمع (سنين) لا (سنوات) ؟ كذلك لماذا لم يستعمل الجمع (أعوام) ؟
- ٥- عدم ذكر التمييز في قوله (تِسْعًا) ؟
- ٦- تقسيم العدد إلى جزئين بدلاً من القول (٣٠٩) يقول (٣٠٠) وازدادوا تسعاً ؟
- ٧- كم عدد الأيام التي قضاها أهل الكهف ؟ وهل تتفق المدة في التقويم الشمسي الحسابي مع التقويم القمري الفلكي ؟

١. سر استعمال (ولَبِثُوا) :

استخدم التعبير القرآني لفظة (وَلَبِثُوا) :لأنه يتحدث عنهم بعد انقضاء بقائهم في الكهف .
اللبث خلاف المكث :

• المكث : انتظار مازال مستمراً .

• أما اللبث فانتظار غير موجود الآن ، لم يبدأ ، أو قد انقضى .

وجاء الاستعمال في الفعل لبث :

□□ لأهل الكهف للتعبير عن مدة منصرمة أقاموها في الكهف بعد استيقاظهم وانتهاء مدة بقائهم في الكهف .

□□ لما بعث الله ﷻ الرجل الذي أماته مائة عام ، كان الحديث عن مدة موته السابقة ، هو حديث عن إقامة منصرمة فلذلك استخدم الفعل (لبث) للتعبير عن تلك الإقامة المنتهية : (كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ)^(١) .

□□ يوم الحساب في الآخرة ، فكل حديث عن إقامة الناس الدنيوية هو حديث عن بقاء غير موجود (كان موجوداً ، لكنه لم يعد الآن موجوداً) ، قال ﷻ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ)^(٢) ، (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ)^(٣) . (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ)^(٤) . وتكرر ذلك في آيات أخرى^(٥) .

وكذلك عند الحديث عن موسى عليه السلام ، فبعد انتهاء إقامته في مدين : قال ﷻ

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٩) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٤٥) .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية (٢٥) .

(٤) سورة الروم ، الآية (٥٥) .

(٥) تكرر ذلك في :

• سورة طه (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ١٠٤) ، (إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ١٠٣) .

• وسورة المؤمنون (قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) ، (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ١١٣) ، (قُلْ إِن لَّبِثْتُ إِلَّا قَلِيلًا ١١٤) .

• وسورة الإسراء: (وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٥٢) ، وفي سورة النازعات: (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ٤٦) .

• وسورة الروم : (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ٥١) .

: (فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤِسُونَ)^(١) ، ثم بعد أن عاد إلى فرعون ، ذكره الأخير بإقامته الأولى عنده في القصر ، فاستعمل الفعل لبث أيضاً ، لأنها بدورها إقامة قد انتهت : (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)^(٢) .

□□ وكذلك المدة التي بقاها يونس عليه السلام في بطن الحوت : (لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)^(٣) . فالحديث عنه بعد خروجه منها بدليل قوله (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)^(٤) .

□□ والأمر نفسه مع الحديث عن إقامة نوح بعد انتهائها : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا)^(٥) .

□□ ولم تتبين الجن موت سليمان إلا بعد أن أكلت دابة الأرض منسأته ، فاكشفت الجن بعد موته أنهم بقوا في عذاب مهين طيلة موته دون أن يعلموا : (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)^(٦) ، فإقامتهم في العذاب المهين مدة منصرمة انتهت بسقوط جسده على الأرض .

وجاءت لفظة (لبث) لتعبر عن إقامة لم تحدث بعد :

- وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا^(٧) : يتحدث الله y عن أمر افتراضي للمنافقين ، إذا دخل العدو المدينة ، لاستجابوا إلى الفتنة ، وهنا يتوعدهم الله ، لو حدث ذلك لن يبقوا بالمدينة إلا قليلاً . فهي حديث عن إقامة لم تحدث .
- وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا^(٨) : يتحدث الله y عن أمر افتراضي للكفار ، الذين سعوا إلى إخراج الرسول S من الأرض في محاولة اغتياله ،

(١) سورة طه ، الآية (٤٠) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (١٨) .

(٣) سورة الصافات ، الآية (١٤٣) .

(٤) سورة الصافات ، الآية (١٤٤) .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية (١٤) .

(٦) سورة سبأ ، الآية (١٤) .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية (١٤) .

(٨) سورة الإسراء ، الآية (٧٦) .

ويتوعدهم الله γ : إنهم لو فعلوا ذلك وقتلوا نبيه ، ما بقوا بعده إلا قليلاً ، وانتهت حياتهم بتلك القرية . فالحديث عن إقامة لم تحدث لأن القتل لم يحدث .

• لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا^(١) : الآية تتحدث عن جهنم التي ستطول الإقامة فيها للطاغين ، لكنها إقامة لم تبدأ بعد .

ومن خلال استقراء الاستعمال القرآني يمكن أن نقف على حدود كلمة اللبث ، فاللبث هو إقامة غير موجودة الآن ، سواء انتهت ، أو لم تبدأ بعد . أما لفظة مكث فهي معبرة عن مكوث ما زال مستمراً ، ولم ينته .

• فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ^(٢) : إنه الهدهد بعد أن جاء من سبأ نبأ يقين ، يبقى في مكانه قريباً من سليمان ، وهو ما زال في مكانه وهو يحدثه . فالمكث بقاء ما زال يعيش فيه الهدهد .

• فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا^(٣) : موسى عليه السلام ، يطلب من أهله البقاء ، وعدم مصاحبته في رحلته نحو النار التي يراها ، فهم باقون ، وسيظلون هكذا حتى يرجع إليهم ، والحديث الآن أثناء الذهاب ، وقد تكرر ذلك في قوله تعالى :

• ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ (٢٩) (القصص) .

• وَادَّأَى يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْهِ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكُثُونَ^(٤) : أي باقون ، فهم باقون قبل قوله ، وباقون بعد قوله .

• مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا^(٥) : أنزل الله γ على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، قيماً ، أما

(١) سورة النبا ، الآية (٢٣) .

(٢) سورة النمل ، الآية (٢٢) .

(٣) سورة طه ، الآية (١٠) .

(٤) سورة الزخرف ، الآية (٧٧) .

(٥) سورة الكهف ، الآية (٢) .

تعليل ذلك ، فقد ذكر لذلك سببين هما :

١- لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ .

٢- وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا .

فالحال في قوله (مَكْنِيْنٌ فِيْهِ أَبَدًا) يصلح أن يكون حالاً لكلا الفريقين أو أحدهما ، والظاهر أنه يصلح للفريق الأخير ، وأرى أن الحال للفريقين ، وهذا يعنى أن الأمر ليس أخروياً ، لكنه بدأ من الدنيا ، فالكافرون سينالون في الدنيا بأساً شديداً لن يفارقهم ، هم فيه الآن ، وبعد الكلام ، وكذلك المؤمنون الذين يعملون الصالحات يمكنون في أجرهم الحسن ، وهذا الأجر بدأ في الدنيا ويلازمهم إلى الأبد ، فهم مقيمون في هذا الأجر قبل الحديث ، ومقيمون فيه بعد الحديث .

• وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ^(١) : قال ابن عاشور : هما علتان : أن يُقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآناً ، وأن يُقرأ على مُكْثٍ ، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه . والحكمة في ذلك أن تكون الفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين ^(٢) . فالإقامة آنية لم تنته .

• وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ^(٣) : يضرب الله y مثلاً بالماء للحق وأهله والباطل وأهله ، فزبد الماء الذي يرميه السيل سريعاً هو فريق الباطل ، وأما الماء الذي يظل في الأرض ليخرج النبات فهو مثال لفريق الحق ، فاستعمال لفظة (فَيَمْكُثُ) للتعبير عن أن المكث لم ينته .

(١) سورة الإسراء ، الآية (١٠٦) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء الخامس عشر ، ص ٢٣١

(٣) سورة الرعد ، الآية (١٧) .

٢. سر التعبير (في كهفهم) :

في ظرفية ، لأنهم كانوا داخل الكهف ، كما يكون المظروف في ظرفه . وأضيف الكهف لهم لأنه كان خاصاً بهم ، كأنه بيت مملوك لهم ، فلم يدخل عليهم أحد طيلة المدة الطويلة التي دام فيها مكثهم في هذا الكهف ، فأصبح الكهف معروفاً بهم ، وهم معروفون به .

وقد سبق أن أضافهم هم إلى الكهف فقال ﴿ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾ (٩) (الكهف).

ولم يستعمل القرآن الكريم لفظة (أولو) التي تفيد مركزية المضاف إليه ، وأن يكون كل واحد من المضاف يمتلك مخصوصاً له من المضاف إليه ، فلو قلت أولي الأبواب فهذا يعنى أن كل واحد منهم له لب خاص به ، أما قوله أصحاب السفينة فهي سفينة واحدة ، وكل واحد من المضاف يشارك في نفس المضاف إليه . كذلك فهو كهف واحد يشارك فيه كل أصحاب الكهف .

٣. سر استخدام التمييز الجمع بعد (٣٠٠) :

✽ تلك هي المدة التي مكثوها في الكهف بالتقويم الحسابي . والتقويم الحسابي هو تقويم أهل الكهف ، والتمييز محذوف (ثلاث مائة سنة) بدليل وجود التنوين في كلمة مائة .

إن قواعد النحو العربي تنص على أن يكون التمييز جمعاً إذا كان من (٣ : ١٠) ، ثم يكون بعد ذلك مفرداً مهما زاد العدد . وعلى هذا هوجم القرآن الكريم من المتعصبين ضده ؛ لاستخدامها الجمع في هذه الآية لأنه جاء بعد العدد (٣٠٠) الذي يستوجب أن يكون التمييز مفرداً لأنه زاد عن عشرة .

أما الرد .. فلا يمكن أن تطبق قاعدة التمييز هنا ، لأن القرآن جاء بالعدد منوناً (مَائَةٍ) والتنوين يجعل الكلمة منقطعة عن الإضافة . والتمييز مجرور بالإضافة ، فعند التنوين لا تمييز ، ولا يصح أن تطبق قانون التمييز عند عدمه .

إن هذه المعلومة تفسير لقوله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١) (الكهف).

وكان سائلاً سأل فكم عدد هذه السنين .. فجاءت تلك الآية بالإجابة : لبثوا ثلاث مائة وجاء التنوين ليغلق العبارة ، فلو وضعنا مكان قوله تعالى (عدداً) العدد المقصود . لقال : فضربنا على آذانهم في الكهف سنين ثلاثمائة . وبذلك يكون إعراب كلمة سنين : بدل من العدد السابق ، أي لبثوا سنين كثيرة تقدر بثلاث مائة .

أما لماذا لم يقل (سنين ثلاث مائة) لأنه لا يوجد اختصار في السنين على هذا العدد ، وكان يمكن زيادته أو نقصانه .

٤. سر استخدام (سنين) :

وجاءت كلمة سنين (وليس سنوات) حتى لا يظن السائل أنها سنوات متفرقة ، فجاءت لفظة سنين لتدل على أنها مدة متصلة .

ولم يستخدم القرآن هنا كلمة (عامٍ) كما استخدمها مع الرجل الذي أماته الله y مائة عام:

﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ۖ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ۚ ﴾ (البقرة) .

لقد استعمل القرآن معه (مائة عامٍ) لأنه مات فكان خارج الزمن ، لم يشعر بالزمن ، بخلاف النائم حتى لو غاب عن الوعي فجسمه يتأثر بالزمن ، فلو استيقظ بعد النوم سيلاحظ ما حدث لجسمه .

ولقد استعمل لفظة (عامٍ) للتعبير عن هذا الزمن الذي لم يعيشه هذا الرجل ، وكان فيه ليس من أسرة الزمن . وفي المقابل عندما رفع الله y سيطرة الزمن عن الطعام قال عنه (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) فقلوله لم (يَتَسَنَّهْ) يفيد أن السنين لم تترك أثرها عليه ؛ مما يقطع أن لفظة السنين تعني أن تترك السنون أثرها على الشيء . ولما كان أهل الكهف ليسوا بموتى ، وإنما رقاد . فأثر السنين ليس مرفوعاً عنهم ، وقد كان الله y يقبلهم ذات اليمين وذات الشمال . وقطعاً هم بعد استيقاظهم سيحمل الواحد منهم عمره كله ، فلو أن أحدهم دخل الكهف وعمره عشرون سنة ، فقد أصبح عمره بعد البعث ثلاث

مائة وعشرين سنة ، بخلاف الرجل الذي أماته الله y مائة عام انظروا مثلاً لو أن هذا الرجل كان عمره أربعين سنة ، وترك خادمة عمرها عشر سنين ، فبعد يقظته ستكون قد بلغت العاشرة بعد المائة ، فلو وصل إليها ، وقابلها ، وكانت مثلاً قد أصابها العمى ، فإن سألها عن سيدها فلن تعرفها ، وربما قالت : ومن ذا يذكره الآن ؟ فإن قال لها : أنا هو ، فلها تقول له : قد كانت له آية ، إنه مستجاب الدعوة ، فإن كنتَ هو ، فادع الله أن يرجعني مبصرةً ، فدعا الله ، فارتدت بصيرة . فماذا تجد العجوز ؟ ستجدها سيدها الذي تركها من مائة سنة مازال في الأربعين من عمره ، بينما هي في العاشرة بعد المائة ، أي أنها أصبحت أكبر منه بسبعين سنة ، وهي التي كانت تصغره بثلاثين سنة .

أما أهل الكهف ، فعندما يخرج أحدهم ، فهو يحمل عمره معه .

لذلك نجد أن الله y قد غاير في السياقين : فاستعمل عام لمن مات لأنه لم يعيش هذا الزمن . بينما استعمل (سنين) للنائم لأنه حمل هذا الزمن ، وإن لم يحس به أثناء نومه .

٥. لماذا لم يقل (٣٠٩) :

وقد يقول قائل : لماذا لم يقل القرآن الكريم التعبير بالطريقة المألوفة : (ثلاثة مائة وتسع سنين) ؟ ونقول : لم يعدل القرآن عنها إلا لأنها لا تعبر عما يريده . فهو لا يريد أن يقول ثلاث مائة وتسع سنين ، بل يريدها ثلاثمائة لكن بحسابين أحدهما حساب المتحدث عنهم ، لأنهم سيلبثون المدة بحسابهم ، وحساب من يتحدث إليهم ليعرفوا الوقت تحديداً كما يتعاملون هم به . فالقرآن إذن يعبر عن تقويمين :

الأول : يناسب المتحدث عنهم (أهل الكهف) الذين كانوا يستخدمون التقسيم الحسابي .

الثاني : يناسب العرب الذين يخبرهم بالقصة ويستخدمون التقويم القمري .

وهذا يبرر استخدام لفظة (وَأَزْدَادُهُ) فالعدد لا يزيد ولا ينقص ، فالعدد ليس كائناتاً حياً يتكاثر ، لكن إن اختلف التقويمان ، فأحدهما يزيد عن الآخر .

إن القرآن يقرر أن أهل الكهف لبثوا في الكهف مسافة زمنية تقدر بتقويمهم الحسابي ثلاثمائة سنة ، وهذا المدة لا تكون عند العرب الذين يخاطبهم القرآن الكريم ثلاث مائة

سنة ، لكنها تزيد تسع سنين . لذلك اختار القرآن هذا التعبير ليعبر عن التقويمين في عبارة واحدة .

- المدة التي قضاها أهل الكهف بتقويمهم الشمسي : ٣٠٠ سنة .
- المدة نفسها بالتقويم القمري الذي يتعامل به العرب : ٣٠٩ سنة .
- التعبير (ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) : يعبر عن التقويمين معاً .

فأما التقويم الأول : وهو تقويم حسابي يماثل التقويم الذي كان يستخدمه القبط ، وهو تقسيم لا يتابع حركة الشمس ، لكنه يقسم السنة إلى اثني عشر شهراً ، كل شهر منها بعدد أيام ثابت يقدر بثلاثين يوم فيكون المجموع (٣٦٠ يوم) ويضيفون شهراً صغيراً يقدر بخمسة أيام لتصبح السنة الحسابية ٣٦٥ يوم .

وقد عبر القرآن عن هذا التقويم بالعدد الأول (ثَلَاثَ مِائَةٍ) فلو ضربت هذه المدة في قيمة السنة الحسابية فسيكون المدة التي قضاها أهل الكهف هي :

$$\text{المدة التي قضاها أهل الكهف} = ٣٦٥ \times ٣٠٠ = ١٠٩٥٠٠ \text{ يوم} . \quad (١)$$

وقد عبر القرآن عن التقويم الثاني بالعدد الثاني (وَازْدَادُوا تِسْعًا) أي ازدادوا تسع سنين على الثلاثمائة ، أي ٣٠٩ سنة قمرية .

فهل كانت هذه المدة بالتقويم الهجري تساوي نفس المدة بالميلادي = ١٠٩٥٠٠ يوم ؟ أم أنها زادت تسع سنين بالتقريب ؟؟

إن الطريقة الدقيقة في التعامل مع الحساب القمري هي طريقة الوحدة الفلكية . فما هي الطريقة الفلكية ولماذا هي الطريقة الصحيحة ؟

الوحدة الفلكية هي تسع عشرة سنة قمرية . فيها اثنتا عشرة سنة بسيطة عدد أيام كل سنة منها ٣٥٤ ، وسبع سنوات كبيسة عدد أيام كل سنة منها ٣٥٥ يوم ، أي أن الوحدة الفلكية تساوي $١٢ \times ٣٥٤ + ٧ \times ٣٥٥ = ٦٧٣٣$ يوماً .

وهي الطريقة الصحيحة لأنها في كل وحدة منها يعود القمر إلى نفس نقطة انطلاقه مع الأرض . أي أن الوحدة الفلكية تتساوي تماماً مع كل وحدة فلكية أخرى .

المدة بالأيام =

المدة بالسنوات القمرية ÷ الوحدة الفلكية (١٩) × قيمة كل وحدة فلكية (٦٧٣٣)

$$\text{المدة بالأيام} = 309 \div 19 \times 6733 = 109499,8421052632 = 109500 \text{ يوم} . (2)$$

أي ١٠٩ ألف يوم و٤٩٩ يوم وعشرون ساعة وإحدى وعشرين دقيقة ، فلو قربت العشرين ساعة وثلاث تلك إلى يوم لأصبح المجموع ١٠٩٥٠٠ يوم مطابقة تماماً لعدد الأيام بالحساب الحسابي .

وبذلك يتطابق الحسابان تماماً في دقة رهيبة :

$$\text{التقويم الأول (ثَلَاث مِائَةٍ)} = 109500 \text{ يوم} .$$

$$\text{التقويم الثاني (وَأَزْدَادُوا تِسْعًا)} = 109500 \text{ يوم} .$$

وبذلك يمكن أن نقرر بوضوح أن أهل الكهف لبثوا في كهفهم :

$$109499,8421052632 \text{ يوم} .$$

٦. سر استخدام كلمة ازدادوا :

✽ أما قوله (وَأَزْدَادُوا) فتعود إلى اللابثين ، وليست إلى السنوات ، ويكون المعنى ، لقد لبث النائمون في كهفهم سنين تقدر بثلاث مائة ، فإذا حسبت هذه المدة بالتقويم القمري وجدت أنهم قد ازدادوا تسع سنوات .

✽ لو كانت المدة التي لبثوها في الكهف ٣٠٩ لوضع الواو دون لفظة ازدادوا . الزيادة هنا تعنى أن المدة نوعان ، وليست مدة متصلة.

فالنص يعرض تقويمين ، أحدهما حسابي مراعاة لأبطال القصة (أهل الكهف الذي يعرض قصتهم فيخبر عنها بزمهم) ، والثاني قمري مراعاة للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم الذين يعرفون الزمن بالتقويم القمري ، ولما كان ثمة فارق بين التقويمين ، فقد جاءت لفظة (وازدادوا) ونسب الزيادة للأشخاص لأنها زيادة نسبية وليست زيادة حقيقية في الزمن .

٧. إسقاط تمييز (تسعاً):

إن سر مخالفة العدد لمعدوده يرجع إلى وجوب المطابقة . فالعرب تصر على المطابقة ، وتجعل الكلمة المذكرة أصلاً والمؤنثة فرعاً ، فلو كانت الكلمة : الرجل .. يكون الكلمة الملازمة له مثل : المسلم مذكرة . فإذا أتيت بالمرأة وهي فرع من الرجل ، فالكلمة الملازمة لها تُزاد تاء تأنيث لتطابق الفرع . فنقول الرجل المسلم ، والمرأة المسلمة ، وهكذا أضيفت التاء للفرع.

أما (تسعة) فهي موضوعة في الأصل بالتأنيث ، لذلك حدث معها ما يأتي : لأنها الأصل فقد فاز بها المذكر الأصل ، أما المؤنث الفرع ، فقد ظل أيضاً هو من يطرأ التغيير ، فحذفت التاء الموجودة في الأصل لتناسب الفرع . تماماً كما كانت تضاف التاء غير الموجودة في الأصل للدلالة على الفرع .

إذن المذكر يأخذ الأصل ، والمؤنث يأخذ الفرع . والعدد واحد أصله بالتذكير ، والعدد اثنان أصله بالتذكير ، لذلك يختص بهما الأصل المذكر ، والأعداد من (ثلاثة إلى عشرة) أصلها بالتاء لذلك يختص بها الأصل المذكر .

إذن فكلمة (تسعاً) في النص الذي معنا ، جاء ليس بأصله ولكن بفرعه ، مما يدل أن المعدود المصاحب له هو الفرع أي المؤنث .

والتقدير (سنين تسعاً) . ولوجاءت مؤنثة (تسعة) لكان التقدير : أعوام . والقرآن يريد سنين ، لأن تلك السنين من المدة المحتسبة التي لبثها أهل الكهف ، ولو كانت مدة افتراضية لم يلبثوها لاستخدام لفظة أعوام .

فلماذا لم يذكر المعدود (سنين) بعد العدد تسع ؟

إن تنوين العدد (تسعاً) يقطع الإضافة ، فيمنع التمييز ، وإذن يستحيل أن يأتي بعد العدد ، ومن ثم فلا مجال لتقدير العدد إلا قبله : أي وازدادوا سنين تسعاً . أي أن تسعاً نعت لسنين المحذوفة .

وهذا يجزنا للقانون الذي أهده القرآن الكريم لعلماء العربية ليعلمهم أسرار لغتهم ،

وهو أن العدد إذا جاء بعد المعدود فهو يعنى الاختصار على هذا العدد .

إى أن السنين التسع لا تزيد ولا تنقص عن تسع . بخلاف لو قال (تسع سنين) ، فهي تعنى أنها تسع ، لكن كان يمكن أن تكون أكثر أو أقل .

تسع سنين : هذا هو العدد لكن كان يقبل أن يكون غيره . تماماً كما تسأل عن عمر طفل ، فاحتمالات الإجابة تسعة ، عشرة ، ثمانية ، فإن كان عمره تسع سنين ، فالإجابة : تسع لكن احتمالات الإجابة ليست صارمة في أنه لا يصلح إلا كذلك ، بل كان يمكن أن يكون أكثر أو أقل .

سنين تسع : تسع ، ولا يقبل إلا أن يكون كذلك . مثلما تقول ما ناتج طرح أحد وعشرين من ثلاثين ، فليس أمامك إلا أن تقول : تسعة . والذي يتلقى الكلام يدرى أن الناتج الذى ينتظر سماعه هو تسعة .

ونحن نقطع بأن المعدود سنين يسبق العدد .. وأن التعبير يعنى الاختصار ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك تماماً كالفارق بين عددين .

وبترجمة ذلك إلى حساب بالأيام : سنجد أن السنين التسع القمرية تساوي : ٣١٨٩, ٣٢ يوم . وهذه المدة لا يمكن أن تزيد يوماً أو تقل يوماً . لو حسبنا الفارق بين ٣٠٠ سنة قمرية و ٣٠٩ سنة قمرية ، فالناتج بينهما هو تسع سنين باليوم :

٣٠٩	سنة قمرية :	١٠٩٤٩٩, ٨٤	يوم .
٣٠٠	سنة قمرية :	١٠٦٣١٠, ٥٢	يوم .

$$٩ = ٣١٨٩, ٣٢ \text{ يوم .}$$

ولأن المدة ثابتة لا تزيد ولا تنقص . لذلك وجب أن يكون المعدود (سنين) قبل العدد (تسع) ولا بد أن يكون سنين لأنه من المدة المحسوبة .

وهكذا نكتشف أن أهل الكهف لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية أي عددها ١٠٩٥٠٠ يوم .

وهذه المدة المعروفة بالتقويم الحسابي لو حسبته بحسبة التقويم القمري ستجدها مماثلة تماماً لها : (١٠٩٤٩٩, ٨٤٢١٠٥٢٦٣٢) .

لذلك عدل القرآن الكريم عن التعبير العادي إلى هذا التعبير الخاص ، لأن التعبير العادي لا يعبر عما يريده ، والتعبير الخاص يضمن له التعبير عن تقويمين متفقين تماماً حتى في عدد الأيام . فالأيام التي لبثها أهل الكهف بتقويمهم الحسابي (١٠٩٥٠٠) تعادل ثلاثمائة سنة حسابية ، هذه الأيام نفسها (١٠٩٥٠٠) تعادل في التقويم القمري ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية بالتمام والكمال .

إن المدة التي لبثها أهل الكهف فيه بالتقويم الحسابي هي (٣٠٠ سنة) ، وقد اختص التقويم الحسابي بالذكر لأنه تقويم أهل الكهف . ثم ذكر التقويم القمري المقابل له لأنه يخاطب العرب ، فقرر أن هذا العدد الذي عاشه أصحاب الكهف لو أردتم معرفتهم بحسابكم القمري فسوف يزداد تسعاً من السنين ، وهذه التسع لا يمكن أن تزيد لأنها حاصل طرح الفرق بين التقويمين.



المثال الثاني

فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۖ

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢)

الاستعمال التقليدي : أربعين ليلة .

الاستعمال القرآني : ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ .

عدل القرآن إذن عن الاستعمال التقليدي المؤلف للناس (أربعين ليلة) ، والتعبير بقوله (ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ) . وسوف نحاول أن نقف على أسرار الآية لنعرف العلة وراء العدول عن الاستعمال التقليدي إلى هذا الاستعمال القرآني الخاص .

١- ما سبب العدول عن الاستعمال التقليدي (أربعين ليلة) .

٢- الحكمة من تقسيم العدد على مرحلتين ؟

٣- لماذا ذكر التمييز في العدد (٣٠) وحجبه مع العدد (عشر) ؟

٤- قوله (أتممناها) ، (تم) ؟

٥- ما الحاجة إلى ذكر ناتج الجمع ، فالجميع يعرف أن مجموع ثلاثين وعشر هو أربعون؟

١. سر العدول عن العدد (أربعين) :

عدل القرآن عن الاستعمال التقليدي (أربعين ليلة) : للإشارة إلى أن الله ﷻ أبلغ موسى بالميقات على مرتين . ولو قال أربعين ليلة لدل على أن الله ﷻ أبلغ موسى في مرة واحدة .

والميقات هو رحلة يقضيها موسى عليه السلام في رحاب الله ، وقد ظل فيها موسى صائماً لا يأكل طيلة هذه المدة ، وما أشد المفارقة بين موسى في معية الله لا يجوع طيلة أربعين ليلة ، وبين موسى نفسه عندما مضى مع فتاه ليقابل الرجل الصالح ، فيشعر بالجوع في يوم واحد :

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢) ﴿الكهف﴾ .

و المواعدة التي يريدها الله ﷻ هي أربعون ليلة كما جاء في نص آخر في سورة البقرة :

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ﴿البقرة﴾ .

لكن جاء العدول عن الاستعمال التقليدي للإشارة إلى أن الله ﷻ يريد الميقات على مرحلتين ، فلا يعرف موسى ولا قومه المدة النهائية .

٢. الحكمة من تقسيم العدد على مرحلتين:

قرر الله ﷻ أن يكون الميقات أربعين ليلة ، لكنه لم يُبلغ موسى سوى بثلاثين ليلة ، وقد يسأل سائل : مادامت المدة المقدره عند الله لميقات موسى أربعين ليلة ، فلماذا أخبره بأنها ثلاثون ؟ أما الإجابة .. فلسببين :

١. أن يتجدد فرح موسى عندما يشارف على انتهاء الميقات ، فلا ينتابه الحزن لمفارقة ربه ، إذ يفاجئ بأن الميقات لم امتد ، ويكون في المرة الثانية مهيناً نفسه لفراق ربه .

٢. أن يعلم قوم موسى أن الميقات ثلاثون ليلة فحسب ، فإذا تجدد الميقات لعشر ليال أخرى ، وتأخر موسى عن العودة ، ظهر معدن قومه ، وهذا ما حدث ، فلم يكد موسى يتجاوز الثلاثين يوماً حتى ظهر لهم السامري ، وصنع لهم عجلاً ذهبياً ، وادعى أن ذلك العجل

هو إلههم ، لكن موسى نسي ، وذهب يطلبه في مكان آخر :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (طه) .

وبذلك ظهر معدن هذا الشعب الذي لا يؤمن إلا بالمحسوسات ، ولا يتحمل عشرة أيام زيادة قضاها موسى عن الموعد الذي حدده لهم ، فقد مضى مخبراً إياهم بأنه سيغيب ثلاثين ليلة كما واعده ربه ، فلما تجدد الوعد ليزيد العدد إلى أربعين ، لم ينتظروا ، وعبدوا العجل الذي صنعه السامري .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (طه) .

وبذلك سقط بني إسرائيل في هذا الاختبار الصغير سقوطاً ذريعاً ، لأنهم في بضعة أيام فحسب هي الفارق بين أربعين وثلاثين ، عبدوا عجلاً وتركوا رب العالمين الذي نصرهم على فرعون بكل جبروته .

ومن هنا كانت الحكمة في تقسيم الميقات (أربعين) على مرحلتين . فبعد انتهاء المرحلة الأولى سيحدث أمران :

- ضيق موسى لانتهاؤ ضيافة ربه له .
- تبرم بني إسرائيل من تأخر نبيهم بعد انتهاء الميقات المحدد .
- وهنا يتمها الله بعشر أخرى فيتحقق الهدفان :
- يتجدد فرح نبي الله موسى عليه السلام بلقاء ربه ، وتتحقق الفرحة المدخرة له بأن المواعدة متجددة ، ولم تنته ، وله أن ينهل من رحمة ربه عشر ليال أخرى .
- اختبار بني إسرائيل . والاختبار نوعان :

ابتلاء : ليخرج منك أحسن ما فيك . ويكشف عن حسن جوهرك مثل ابتلاء يوسف عليه السلام ، فمراودة امرأة العزيز له كشفت روعة جوهره ، فهو ابتلاء .

إغواء : ليخرج من الإنسان أقبح ما فيه ، ويكشف عن خساسة جوهره ، مثل إغواء

إبليس ، فأمر الله ﷻ له بالسجود لآدم كشف خبث جوهره ، وخبثاته نفسه ، ومن هنا أقسم إبليس أن يفعل مع بني آدم ما حدث له ، بل إنه أقسم بما تم معه وهو الإغواء :

﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف) .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر) .

وهكذا تحقق من إبلاغ موسى عليه السلام بالميقات على مرتين فرحة نبي الله ، وكذلك إغواء قومه ، وسقوطهم المدوي بعبادة العجل .

٣. السر وراء حجب تمييز (عشر) :

السر وراء حجب التمييز :

ذكر القرآن الكريم التمييز مع المدة الأولى (ثَلَاثِينَ لَيْلَةً) ، ولم يذكره في المرحلة الثانية من الميقات (وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ) ؛ وذلك لأنه في الأولى يخبر جاهلين ، بالعدد الذي أخبر الله به موسى . وهو عدد احتمالي ، أي أنه كان يمكن أن يزيده الله أو ينقصه .

أما المدة الثانية (بِعَشْرِ) فهي حاصل طرح المدة المذكورة (ثَلَاثِينَ لَيْلَةً) من ميقات ربه الذي حدده سلفاً ولم يخبره به وهو (فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) . ولأن حاصل الطرح لا يمكن أن يتغير أبداً ، ويظل ثابتاً ، لذلك جاء العدد منوناً ليقطعه عن الإضافة ومن ثم يستحيل وجود المعداد بعده ، وهذا يعني أنه قبله . والتقدير وأتمناه بليال عشر . ولا يمكن أن تقل أو تزيد عن ذلك ، لأنه مطلوب أن تطيل الثلاثين إلى أربعين ، وهذا لا يكون إلا عشراً دون زيادة أو نقصان .

في هذا التعبير (وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً) جاء التمييز (ليلة) ، أي ثلاثين من الليالي ، فلماذا لم يقل ثلاثين من الليالي ، لو قالها لكانت ثلاثين من الليالي المتفرقة ، أما قوله تعالى (ثَلَاثِينَ لَيْلَةً) فيعني ثلاثين ليلة متصلة .

وميقات الله لموسى كان أربعين ليلة ، لكنه جاء مقسماً ثلاثين ، وعشر . والقرآن يلجأ إلى

تقسيم العدد عند وجود تباين . فالميقات كان أربعين ، لكن الله لم يخبر موسى في البداية سوى بثلاثين ، ليكون فرحه كبيراً بتجدد لقاء الله عند اقتراب المغادرة . فلم يكن العدد دفعة واحد ليقوله دفعة واحدة لكنه أبلغ إلى موسى على مرتين ، لذلك ذكر على مرتين .

المواعدة التي يريدها الله γ هي أربعون ليلة كما جاء في نص آخر في سورة البقرة :

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة) .

إذن الميقات أربعون ليلة ، فلماذا قيل (ثلاثين ليلة) ؟ ولماذا زيدت عشر ليالٍ ، وكذلك ما الحاجة إلى الجمع في قوله (فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) ،

لقد أخبر الله موسى أن المواعدة ثلاثون يوماً ، حتى إذا أحس موسى اقتراب الأجل ، وضايقه أن تنتهي ضيافة ربه له ، كانت الفرحة المدخرة له أن المواعدة متجددة وأنها لم تنته ، وما زال على انتهائها عشر ليالٍ . فالله γ قد قرر أن تكون المواعدة من البدء أربعين ليلة ، لكنه لم يخبره سوى بثلاثين ليفرحه عندما يمدّها إلى غايتها .

٤. سر اختيار لفظة (أتمنّا) :

وهناك فرق بين الإتمام والإكمال ، وقد نفهم ذلك من قوله تعالى :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة) .

الإكمال : للوصول بالأصل إلى غايته ، وإزالة ما ينقصه. فبدون الإكمال يوجد نقص في الشئ.

الإتمام : لإزالة النقص من العوارض بعد تمام الأصل. بدونه لا يوجد نقص، وبوجوده توجد زيادة .

فالبيت إذا كان ينقصه شئ من البناء ، واستوفاه ، فقد كمل فإذا بدأ الطلاء والتنسيق يكون قد شارف على التمام. ولذلك استعمل الكمال في الدين ، أي رسخت أصوله ، واستعمل التمام في النعمة أي وصلت إلى حد الرضى .

فكلمة (وَأَتَمَمْنَاهَا) يعني أن الميقات تحقق بالمرحلة الأولى ، لأن القليل مع الله γ كثير ،

وثلاثون ليلة يقضيها موسى مع رب العزة كافية ليكتمل الميقات ، ولكن الجمال لا يتحقق إلا بهذا الإغواء الذي يظهر معدن بني إسرائيل .

٥. السر في ذكر مجموع الرقمين :

السري في ذكر المجموع ؟ لو قال : **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً** ، ثم قال : **وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ** وسكت عند ذلك لكان المجموع المفهوم برغم السكوت أربعين ليلة ، لكن سيفقد المعنى شيئاً أساسياً هو أن المواعدة كانت ثلاثين فحسب ، وبعد اكتمالها رأى الله **Y** أن يزيد لها عشر ليال فبلغت أربعين . لكن هذه الأربعون لم تكن من البدء مقصودة ، بل هي طارئة ، والتجدد محال على الله **Y** . فتحن بين معنيين :

- حذف كلمة **أَرْبَعِينَ** : المعنى المفهوم : **٤٠** ، لكن كانت ثلاثين ، ثم رؤي بعد ذلك زيادتها .
- ذكر كلمة **أَرْبَعِينَ** : المعنى المفهوم **٤٠** ، وكانت من البداية **أَرْبَعِينَ** ، ذكر له منها ثلاثين ، ثم زاد عشرًا لتصل إلى العدد المحدد منذ البداية .

مما سبق نرى أن لفظة أربعين لا تفيد تعليمنا مجموع الرقمين (**٣٠ + ١٠**) ، لكن وظيفتها الأساسية تقرير أن الليالي العشرة لم تزد فجأة ، بل كانت مقررة سلفاً ، وأن المواعدة المعتمدة في علم الله **Y** أربعين ليلة ، أخبره بثلاثين وادخر له الإخبار ببقية المدة عند انتهاء الثلاثين ليلة ، ليفرحه بتجدد لقاء ربه .

جدول دلالة لفظة (أَرْبَعِينَ)

الدلالة	
تقرر أن الميقات من البداية كان أربعين ليلة	ذكر أربعين ليلة
تقرر أن الميقات من البداية كان ثلاثين ثم طرأ عليه تعديل بالزيادة .	حذف كلمة أربعين

وبذلك نرى أن وجود لفظتي (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) مطلوبة لتنفي أن الميقات كان ثلاثين ثم حدث تعديل له . ولو حذف لفظة أربعين : سيكون المعنى كما قلنا : إن النية كانت ثلاثين

فحسب ، وهذا يعطى صفة الحدوث لله . سبحانه وتعالى عن ذلك . كما أنها ستتناقض مع آية قرآنية أخرى ذكرت أن المواعدة (أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) . فوجود لفظة (أَرْبَعِينَ) تنفى صفة الحدوث عنه γ . وتقرر عدم تعارضها مع الآية الأخرى ، ولا وظيفة لها سوى إثبات أن العشرة ليست مزادة ، لكنها من ضمن مدة المواعدة في الأصل .

وتبقى نقطة : لماذا قال ثلاثين ليلة ؟ قلنا إن ذلك ليجدد فرحة موسى بلقاء ربه ، وبالإضافة إلى ذلك أراد افتتاح بنى إسرائيل ، لأن الله γ عندما أخبر موسى أن المواعدة ثلاثين ليلة قام موسى وأخبر قومه بدوره أنه سيغيب ثلاثين ليلة ، فلما تأخر موسى ليتم المدة المحددة عند الله γ سلفاً (أَرْبَعِينَ) تأخر بذلك في نظر قومه ، فقاموا بعبادة العجل في هذه المدة التي تأخرها موسى (مابين الثلاثين والأربعين) بصنع عجل من الذهب وطالب قومه أن يعبدوه ، وبذلك حقق توزيع الخبر على دفعتين فائدتين :

١. تجديد فرحة موسى باستمرار لقاء ربه .

٢. افتتاح قوم موسى الذين استغلوا تأخره عن الموعد الذى حدده لهم (ثلاثين يوماً) واستجابوا لفتنة السامري في عبادة العجل ، لأن موسى تأخر عن مواعده:

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ (١١ طه) .

فلو أن موسى أخبرهم من البداية أنه سيغيب أربعين يوماً وعاد في نهاية المدة حاملاً ألواح التوراة ما عبدوا العجل ، فكان إخباره أولاً بجزء من المواعدة سبباً في أن يتأخر عن الموعد الذى ضربه لهم ، وبتأخره تمكن السامري من فتنهم . فكان تقسيم الخبر على مرتين اختباراً قاسياً لهم سقطوا فيه سقوطاً ذريعاً لم يغفره الله γ إلا بقتلهم أنفسهم ، فقاموا بقتل بعضهم البعض ليتوب الله γ عليهم .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومَ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٤ البقرة) .



المثال الثالث

وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ :

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَنَعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (١٩٦) (البقرة) .

الاستعمال التقليدي : فصيام عشرة أيام .

الاستعمال القرآني : فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ .

رأى بعضهم أن كلمتي (عَشْرَةٌ ، كَامِلَةٌ) لا جدوى منهما ، أو أنها كانت تغني عن الرقمين السابقين ، ولا يدرون أن الصيام في هذا الموقف يتم على مرحلتين : ثلاثة أيام أثناء الحج وسبعة أيام بعد العودة إلى الوطن . لأنه لو قال عشرة أيام لفهم أنها في الحج ، وتوجب أن يبقى الحاج هناك عشرة أيام . في هذا المبحث نقف على أسرار عدول التعبير القرآن عن الاستعمال التقليدي . ويمكن الوقوف على أسرار التعبير من خلال الأسئلة الآتية :

١- السر وراء تقسيم العدد عشرة .

٢- استعمال العدد الأصغر (ثَلَاثَةٌ) في الحج ، والعدد (وَسَبْعَةٍ) في الوطن .

٣- وضع التمييز بعد ثلاثة وحجبها بعد سبعة وعشرة .

٤- ذكر المجموع (عَشْرَةٌ) .

٥- ذكر كلمة (كَامِلَةٌ) بعد كلمة عشرة .

١. السر وراء تقسيم العدد لقسمين :

المتمتع في الحج هو : الذي يجمع بين العمرة والحج ، أي أن يتمم العمرة ، ثم يتحلل ويحرم للحج . وهذا المتمتع بالعمرة إلى الحج ، قد أوجب الله ﷻ عليه هدياً أي أن يذبح شاه أو غيرها من الهدى:

﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ (١٦٦) (البقرة) .

فإن لم يجد الهدى فعليه كفارة الصيام . والكفارة المفروضة في الصيام هي عشرة أيام . على مرحلتين ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة عند الرجوع إلى الوطن مادام ليس من سكان الحرم .

ولم يفرضها الله ﷻ كاملة في الحج : لأن الحاج لا يستطيع أن يصوم عشرة أيام في الحج إضافة إلى مشقة الحج ، كما أنه قد لا يبقى هذه المدة في الحج .

إذن إداء العبادة كاملة متعذرة في الحج ، إذن تؤجل أداة عبادة الصيام حتى الرجوع إلى البيوت ، ويتم صيام عشرة أيام بعد الرجوع من الحج ، لكن هذه أيضاً لا تصلح لأن العبادة يجب أن ترتبط بسببها ، أي لابد أن تتم في الحج . من هنا وجب التقسيم : لتحقيق التيسيرين ..

• تلافي مشقة صيامها في الحج .

• أدائها مرتبطة بسببها .

وحتى يتحقق الأمر الأول : قسم الصيام إلى قسمين . وحتى يتحقق الأمر الثاني : موزع أحد القسمين من الصيام في مكان الحج . وبذلك تحقق التيسير على الحاج ، وأيضاً مع ربط العبادة بسببها .

٢. سر اختيار العدد (ثلاثة) مع الحج :

استعمل القرآن الكريم تعبير (فَصِيَامٌ) لأنه يواجه مقاومة ، وقد اختار العدد الأصغر مع الحج (ثَلَاثَةٌ) لأن الحاج لا يمكنه أن يصوم أكثر منه ، لأنه لا يمكنه بعد العيد أكثر من ذلك . وقال ابن عاشور ، اختار العدد القليل في الحج (ثَلَاثَةٌ) مراعاة لحالته في الحج من مشقة ، في حين اختار العدد الأكبر (وَسَبْعَةٌ) بعد الرجوع : مراعاة لحالة استقراره بالمنزل .

وبذلك نرى أنه إن كانت الحكمة من تقسيم المدة على مرحلتين :

- لا يطيق الحاج أن يصوم عشرة أيام في الحج . وبذلك لا يمكنه أن يصوم المدة كاملة في الحج .

- لا يصلح أن يصوم المدة كاملة بعد الرجوع إلى الوطن ، لأنه لا بد أن يقوم بالصيام في الحج ، لجعل العبادة عند سببها .

ومن هنا كان لا بد أن يتم الصيام في الحج ، ولا يمكنه أن يكملها حتى النهاية ، لذلك كان التقسيم على مرحلتين . ولأن المرحلتين متفاوتتان في المشقة ، بل ربما متضادتان ، لذلك لم يجعل المرحلتين متساويتين لوجود المشقة الشديدة في أحدهما دون الآخر .

٣. السر وراء ذكر التمييز في العدد الأول فقط :

في المدة الأولى : يتلقى المستمتع العدد على جهالة ، فهو لا يعرف العدد الذي يختاره الله y ، فأى عدد يختاره الله ، هو عدد احتمالي بالنسبة للمتلقى ، لأن القائل كان يمكنه أن يختار غيره ، وبذلك فهذا العدد المحتمل للزيادة والنقص لا يقبل المعدود قبله ، لأن وجود المعدود قبل العدد يعنى أن العدد ينغلق ، فلا يصلح إلا كذلك .

أما المدة الثانية فقد حجب التمييز لأن السبعة هي الموصلة إلى العدد المطلوب وهو عشرة ، وبذلك أصبح الفارق بين العدد الأول والناتج هو عدد حصري ، لا يزيد ولا ينقص ، فليس من حق المتكلم أو المستمع أن يغير الفارق بين ناتج ومطروح ، فالثلاثة لن تصل أبداً إلى رقم عشرة إلا إذا كان الرقم الثاني سبعة ، وبذلك توجب أن يكون العدد (سبعة) حصرياً لا

يتغير أبداً ، لذلك جاء التنوين ليمنع وجود التمييز بعده ، ومن ثم ينتقل المعدود إلى ما قبل العدد ويكون التقدير : فصيام ثلاثة أيام في الحج ، وصيام أيام سبعة إذا رجعتم .

والأمر نفسه مع العدد الأخير: الناتج .. فهو حاصر للرقم سبعة ، ومحصور به ، فلا يمكن أن يكون مجموع السبعة والثلاثة إلا عشرة ، لذلك جاءت عشرة منونة ، ليمتنع التمييز بعدها ، ويتوجب أن يكون قبلها : والتقدير : تلك أيام عشرة لا مزيد .

جاء العدد (ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ) ذكر العدد أولاً لأن المتلقى لا يعرف العدد ، ولأنه يحدد ثلاثة أيام من أيام كثيرة . ثم جاء (وَسَبْعَةٍ) . وتلاحظ أن العدد مجرور لأنه معطوف على ثلاثة ، وهذا يعنى أن التقدير ليس (وأيام سبعة) بل وسبعة أيام . لأنه يريد أي سبعة أيام بعد الرجوع والأيام كثر .

ثم جاء العدد (تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ) وكلمة كاملة المرفوع تفيد أن التميز غير موجود ، ولو كان موجوداً لجاءت مجرورة . أي أن التقدير ، تلك أيام عشرة كاملة . أي أن العدد لك أن تصوم ما تختاره من أيام (ثلاثة) في الحج ، و(سبعة) بعد الرجوع ، ما تختاره من أيام أنت حرفيه ، لكنهما معا لا يمكن أن يزيدا عن عشرة أبداً لذلك جاء العدد مغلقاً ، ولم يأت التمييز بعده للدلالة على أن العدد يقتصر على عشرة ولا يمكنه أن يزيد .

٤. السر وراء ذكر المجموع (عشرة) :

بعد أن ذكر الله ﷻ كفارة الصيام مقسمة على مرحلتين ، ذكر مجموعهما بقوله (تِلْكَ عَشْرَةٌ) . وقد أدي ذكر المجموع إلى هجوم بعض أعداء الإسلام على هذا التعبير ، قائلين : فمن لا يدري أن مجموع ثلاثة وسبعة هو عشرة ؟

إن الكفارة قسمت على مرحلتين هما :

- ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ أَثْنَاءَ الْحَج .
- وسبعة أيام بعد العودة من مناسك الحج .

والاثنان مطلوبان معاً ، فيجب أن يذكر لفظة (عَشْرَةٌ) ، ولو لم يذكرها القرآن الكريم لفهم المعنى كالآتي :

من لم يجد الهدي ، فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج ، أو لا يصوم في الحج ، ويصوم بدلاً من الأيام الثلاثة سبعة أيام بعد العودة من الحج لأنه بعد العودة من الحج خفت المشقة ، فزادت الثلاثة إلى سبعة . ولأنه لا يريد أحد الأمرين استعمل لفظة عشرة ، فكانت حاسمة في وجوب الجمع بين الصيامين .

أو يفهم آخر أن الهدف سبعة أيام ، ثلاث منها في الحج ، ويكمل بعد الحج حتى يصل إلى سبعة أيام ، أى يكون مجموع الصيامين سبعة أيام ، ثلاثة ثم أربعة والمجموع سبعة . والقرآن لا يقصد ذلك ، بل يقصد عشرة أيام ؛ لذلك أحكم قصده بذكر العدد ليمنع الفهم الخاطئ . فلو سقطت لفظة (عَشْرَةٌ) لذهب كل إنسان إلى الفهم الذى يريده .

٥. السر وراء كلمة (كاملة) :

كما هوجم القرآن في ذكر كلمة عشرة ، كذلك تعرض للهجوم أيضاً في ذكر كلمة كاملة ، وقال المعترض : وإن كان لابد من ذكر عشرة ، فلماذا قال كاملة هل هناك من يظن أن العشرة ستكون تسعة ؟

ونحن نؤمن أن القرآن الكريم في موضعه ، لا يوجد فيه حرف زائد ، فهو متموضع في مكانه ، وقيمة القرآن ليس في استعمال المفردات ، فلا يمكن لأبلغ البلغاء أن يأخذ مفردات من القرآن الكريم ويصنع منها عبارة فتكون بإحكام القرآن ، برغم أنه يستعمل المفردات نفسها ، ذلك لأن قيمة اللفظة القرآنية أن تكون في الموضع الذى وضعه الله ﷻ فيها ، فهي كالأشجار التى تكون باسقة في مكانها ، فإذا نقلت من مكانها ماتت .

لماذا ذكر كلمة (كاملةٌ) ؟ لأن كل كفارة تحدث متتابعة ، لكن هذه الكفارة تخلو من التتابع ، فالحاج سيقوم بصيام ثلاثة أيام في الحج ، ثم يفطر ويسافر إلى بلده ، وبعد عودته إلى بلده يقوم بصيام سبعة أيام ، فالسفر والإفطار يفصل بين الصيامين ، فجاءت كلمة كاملة لتقرر أنها مع انفصالها كالمتصلة . فهي كاملة كأنها لم يفصل بينها إفطار . وقد عرفنا من المبحث السابق الفرق بين الإتمام والإكمال ، فالتمام زيادة على الأصل ، لذلك فكلمة (كاملةٌ) في هذا الموضع أدق من تامة ، لأنه يريد أن يقرر أنها ليست نافلة ، بل هى أساس ينقص الحج لو لم تتم . وقد وصفت باسم الإشارة تلك لعلو منزلتها ليؤكد أن تلك الأيام المتباعدة

عند الله تصل إلى مرتبة المتوالية .

عند التبديل بين تامة وكاملة :

• تامة : العبادة نافلة .

• كاملة : العبادة واجبة .

عند التبديل بين وجود كاملة وحذفها :

• وجود (كاملة) : مرحلتا الصيام متصلتان برغم انفصالهما .

• حذف (كاملة) : الكفارة غير متتابعة وهذا يخالف كل كفارة .



المثال الرابع

أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا :

* ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (١٤) (العنكبوت) .

الاستعمال التقليدي : تسعمائة وخمسين .

الاستعمال القرآني : أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .

التعبير القرآني فيه عدول عن الاستعمال التقليدي . ويمكن الوقوف على أسرار التعبير من خلال الأسئلة الآتية :

١- سبب استخدام الفعل (لبث) وليس (مكث) ؟

٢- سر استخدام ألف سنة . وعلاقة ذلك ..

٣- هل المكتوب يتغير ؟

٤- اختلاف التمييز (ألف سنة) ، (خمسين عاماً) .

١. السر وراء استخدام الفعل (لبث) :

الفعل لبث يماثل لبث في البقاء ، لكن مكث تقتصر على البقاء الذى مازال موجودا ، فلفظة مكث تعنى أن الماكث مازال ماکثاً ، ولما كان الله ﷻ يحكى قصة نوح لنبيه محمد S ، فهو يحكى قصة قد انتهت ، بل أن مكوث نوح قد انتهى ونوح نفسه مازال على قيد الحياة ، لأن التعبير يعبر عن مكوثه رسولا لقومه ، وتلك المهمة انتهت بالطوفان .

واستعمل (فِيهِمْ) ليدل أن نوحاً عندما كان ماکثاً في قومه ، لم يغادرهم أبداً ، بل استمر معهم كأنهم مكان حبس فيه .

٢. السر وراء استخدام العدد (ألف سنة) :

ما كان القرآن المحكم ليضع لفظة (أَلْفَ) دون الحاجة إليها . فلفظة ألف هنا تشير إلى أن البعثة كانت مقدرة سلفاً ألف سنة . ولذلك نرى أن مدة بعثة نوح كانت محددة مسبقاً بألف سنة ، فلذلك أثبت ذلك بقوله (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ) ليشير إلى أن تلك هي المدة المحددة التى كان يجب أن يقضيها .

لكن نوح على مدى أكثر من تسعمائة عام لا يؤمن له إلا قليل ، فيصيبه ذلك بالأسى ، ويضيق بعدم زيادة من آمن وقد بلغ تسعمائة وخمسين سنة في دعوتهم ، وهنا يوحي إليه الله ﷻ بأنه لن يؤمن له أحد بعد ذلك برغم أن البعثة مازال فيها خمسون عاماً :

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (هود)

وهنا توجه نوح عليه السلام لربه يطلب إهلاك الكافرين الذين حسم الله ﷻ له خبرهم بأنهم لن يؤمنوا بعد ذلك : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) إِنَّكَ إِن تَذَرَّهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ (١)

واستجاب الله ﷻ لطلبه ، وحدث إهلاك القوم قبل استيفاء مدة الرسالة ، وبذلك قلت

(١) سورة نوح ، الآية (٢٦- ٢٧) .

البعثة خمسين عاماً لتصبح تسعمائة وخميسن سنة ، لكن القرآن اختار هذا التعبير الفريد ليجمع بين الإشارة أصل البعثة والواقع المتحقق منها . فقال (أَلْفَ سَنَةٍ) ليشير إلى أصل الرسالة . ثم قال (إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) ليشير إلى ما تم فعلاً منها ، ويوضح أن هذه الخمسين عاماً كان يجب أن يقضيها نوح عليه السلام في قومه ، لكنه لما دعا ربه واستجيب دعاؤه طوى الله تلك المدة ، واقتطعها من أصل المدة .

وهذا نطرح سؤالاً ، فهل يتغير المكتوب ؟ حتى يمكن أن تتحول الألف سنة إلى ألف سنة إلا خمسين عاماً .. قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد أن نقرر أمراً مهماً هو أن الله y له كتابان :

١- أم الكتاب . ٢- كتاب الأعمال :

فالكتاب الأول هو اللوح المحفوظ ، وهو مثبت فيه ما سيحدث . والكتاب الثاني في أيدي الملائكة وهذا تتغير فيه الأعمار : ودليلنا على ذلك :

١- تحريم القتل : لأنه يختصر عمراً كتبه الله y للقتيل ، ولهذا كان منع نفس من القتل بمثابة إحياء الناس جميعاً .

٢- تحريم الانتحار ، فلو كان يموت في عمره المحدد ، ما عاقبه الله y ، لكن الله يعاقبه لأنه اختصراً عمراً مقررأ له ، ولذلك جاء في الحديث (بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة)^(١) . إن لفظة بادرني تعني أن المنتحر قد اختار أجله . وأنه تعجل قتل نفسه قبل موعدها . وهذا لا يعني أنه مات دون إذن الله ، فموته في هذا الوقت مُسَجَّل في اللوح المحفوظ ، لكن الله قد كتب له في كتاب أجله عمراً آخر :

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبَ مُوَجَلًّا﴾ (آل عمران) .

٣- الوائد عليه ذنب لأنه حرم الموءودة من حياة كانت معدة لها . وكذلك التي تجهض حملها خوفاً أن يخرج مشوهاً ، ستحاسب على جريمتها في حق ابنها لأنها حرمتها من حياة كانت حقاً له ، ورزقاً كفله الله له قبل أبويه ، يقول y :

(١) صحيح البخاري . الحديث رقم : ٣٢٠٤ .

﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدُكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (الإسراء: ٣١)

لقد قدّم الأولاد على الأبوين ليطمئن الأبوين أنه ضمن رزق القادمين قبلهما .

٤- أحاديث كثيرة منها : «من سره أن يبسط في رزقه وأن ينسأ في أثره فليصل رحمه»^(١) . عن ابن مسعود قال رسول الله S : «صلة الرحم تزيد في العمر، وصدقة السر تطفئ غضب الرب»^(٢) . «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثارة في المال منسأة في الأثر»^(٣) . «من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه»^(٤) . «صِلَةِ الرَّحِمِ، وَحَسَنُ الْخُلُقِ، وَحَسَنُ الْجَوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(٥) .

إن الأحاديث السابقة تفيد أن الأعمال الصالحة ، -وخصوصاً صلة الرحم- تزيد في العمر، ولما كان قد ثبت عند العلماء أن الله لا يغير ما قدره للعبد من العمر، فقد حاول بعض العلماء توجيه المعنى إلى معنى البركة في العمر ، أي يفعل في العمل القصير من الخير ما يعمله غيره في عمر طويل .

ولا اعتراض لنا على وجود البركة ، لكن الحديث يتحدث عن زيادة العمر ، وليست لغة النبي S بالقاصرة حتى يريد البركة فيستعمل ما يفيد زيادة العمر ، ولا نرى الحديث إلا على معناه الظاهر ، وما أحسن القول الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية في (مختصر الفتاوى المصرية) وهو أن المقصود بالزيادة أو النقص في الأعمار ما يكون في الصحف التي بأيدي الملائكة، فهذه الصحف يمكن أن يقع فيها التغيير، فيكون فيها مثلاً أن فلاناً عمره كذا فإن وصل رحمه زيد له كذا، أما ما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ فلا تغيير فيه ولا تبديل ولا محو ولا إثبات، وقد قال الله تعالى:

(١) البخاري ٥٩٨٥ .

(٢) الطبراني في الكبير ٢٦١ / ٨ ، حسنه الألباني في صحيح الترغيب ٨٧٦ .

(٣) المسند ٣٧٤/٢ ، الترمذي ١٩٧٩ ، الحاكم ١٦١/٤ وصححه ووافقه الذهبي ، الألباني جود إسناده في الصحيحة ٢٧٦

(٤) المسند ١٤٣/١ صحح إسناده أحمد شاكر ١٢١٢ والحاكم ١٦٠ / ٤ وصححه ووافقه الذهبي ، صححه

الألباني في صحيح الترغيب ٢٥٢٠

(٥) صحيح الجامع (عن عائشة) .

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩) (الرعد).

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ أي في ما بأيدي الملائكة .

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ أي أصله ، وهو اللوح المحفوظ الذي لا محوف فيه ولا إثبات ، ولا يطلع عليه أحد إلا الله سبحانه وتعالى ، هذا والله تعالى أعلم ..

ومال إلى ذلك ابن التين الذي حاول أن يجمع بين الرأيين : البركة ، والزيادة الحقيقية ، فالبركة بأن يعمر وقته بما ينفعه في الآخرة ، فتكون الأيام القليلة عنده كالكثيرة عند غيره ، كما أن ليلة القدر تعوض أمة محمد عن تقاصر أعمارهم بالنسبة للأمم التي مضت . أو تكون الزيادة على حقيقتها بالنسبة إلى علم الملك الموكّل بالعمر ، كأن يقال للملك مثلاً : إن عمر فلان مائة مثلاً إن وصل رحمه ، وستون إن قطعها . أما علم الله تعالى فتأبث لا يتقدم ولا يتأخر ، وهو ما ثبت في أم الكتاب .

٥- جاء في الحديث أن الدعاء يرد القضاء ، عن سلمان : قال النبي S : «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ»^(١) . وعن ابن عباس ، عن ثوبان ، أن النبي S قال : «إن الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد في الرزق ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه»^(٢) . وقد سمعت أحد العلماء مرة يذكر حديثاً مفاده : لا يزال القضاء والقدر يعتلجان (أو يختلجان) ما بين الأرض والسماء إلى يوم القيامة . أي أن القضاء والدعاء في صراع ، فلو غلب الدعاء فالقضاء مردود . قال الفضيل بن عياض : قالوا : «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت ، وأنت أعظم منها وأجلّ ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» .

٦- كتب الله العذاب على قرية يونس عليه السلام ، وأبلغوا بذلك ، ثم رفعه عنها :

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لِمَآءِ أَمْتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨) (يونس).

فقد رحمها الله لأن القرية أكملها آمنت بنبيها بعد أن مضى عنها لأنها خشيت نزول العذاب . فكشف الله عنها العذاب الذي كان سيحل عليها حتماً .

(١) سنن الترمذي . الحديث ٢٠٦٥ . والطبراني الكبير : الحديث : ٦٠٠٥ . والطحاوي في الجامع الصحيح ٤٤٨/٤ ، حديث (٢١٣٩) .

(٢) مستدرک الحاكم : الحديث ٦٠٧٤ .

٧- زيادة عمر داود عليه السلام ، قال رسول الله S : لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً ، من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : أي رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب من هذا ؟ فقال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة ، قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة ، فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فتسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته ^(١).

٨- تخيير الأنبياء في طول العمر : ثبت عن النبي S أنه خير بين أن يموت أو يمتد عمره فاختر لقاء ربه : عن عائشة زوج النبي S قالت: كان رسول الله S يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف ثم قال اللهم الرفيق الأعلى قلت إذا لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به قالت فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي S قوله اللهم الرفيق الأعلى ^(٢).

٩- عرض الله Y على موسى عليه السلام مد عمره : وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فرد الله Y عليه عينه وقال ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة قال أي رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال قال رسول الله S فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر ^(٣).

(١) المسند ٢٩٩/١، صحح إسناده أحمد شاكر ٢٧١٣، الترمذي ٢٣٤٤ وقال حسن صحيح وكذا الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٠٧٦

(٢) صحيح البخاري. الحديث رقم : ٦٠٢٨ . وانظر أيضاً : مسند أحمد . الحديث رقم : ٢٥١٤٢ . مسند أحمد . الحديث رقم : ٢٥١٤٣ . المعجم الكبير للطبراني . الحديث رقم : ١٨١١٠ . صحيح ابن حبان . الحديث رقم : ٦٧٣٧ . والحديث رقم : ٢٦٣٤٦ . ومسند أحمد - ط الرسالة . الحديث رقم : ٢٦٣٤٧ . فقه السيرة . الحديث رقم : ٤٧٠ . السنن الكبرى للنسائي . الحديث رقم : ٧١٠٣ - ٧١٠٦ .

(٣) صحيح البخاري . الحديث رقم : ١٢٥٣ . وانظر أيضاً : صحيح البخاري الحديث رقم : ٣١٥٥ . وصحيح مسلم . الحديث رقم : ٤٣٧٤ . و سنن النسائي . الحديث رقم : ٢٠٦٢ . و مسند الإمام أحمد . الحديث رقم :

١٠- ثمة نصوص قرآنية صريحة في أن الأعمار تزيد وتنقص :

﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ (١١) (فاطر) .

إن النص القرآني صريح في أن الإنسان يعمر وينقص من عمره ، وكل ذلك في كتاب . ولو لم يوجد سوى هذا الدليل لكفاه دليلاً قاطعاً على أن الأعمار تزيد وتنقص . والزيادة والنقصان في كتاب ، وهذا يقطع أن ثمة كتابين : كتاب عند الله لا يتغير ، ولنقل أنه اللوح المحفوظ ، وكتاب في يد الملاك يزيد فيه عمر المعمر وينقص .

١١- قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ﴾ (٢) (الأنعام) .

الآية الكريمة تتحدث عن أجلين أحدهما منصوب ، والآخر مرفوع ، فالمنصوب حدثي متغير ، والثاني ثابت من خلال الرفع والجملة الاسمية مما يعني أنه ثابت لا يتغير وهو الأجل المسمى عنده في أم الكتاب ، أم الأجل الأول فمتغير ، وهو الأجل الذي في يد الملاك ، وقد استعمل القرآن لفظة (قضى) مع الأجل المتغير (المنصوب الحدثي) الذي يقابل الأجل الثابت عند الله (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ) .

النص يتحدث عن أجلين :

• أجل قضاء (المتغير في يد الملاك)

• أجل مسمى عنده . (في أم الكتاب المثبت الذي لا يتغير) .

استخدم الله Y لفظة أجل مرتين بالعطف ، أجلاً نكرة أى غير محدد ، واستعمل معه الفعل (قضى) : (قَضَىٰ أَجَلًا) وفي رأينا أنه القضاء القابل للتغيير ، ثم عطف عليه بقوله (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) وهو القدر الأزلى ، وترى أن الله Y استعمل الأول المتغير في جملة فعلية لأنها حادثة تقبل التغير ، واستخدم في الثانية الصيغة الاسمية للثبات والدوام وعدم قابلية التغير.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ (٢) (الأنعام) .

قَضَى أَجَلًا حكم بأجل قابل للتغير ، بالدعاء ، بصلة الرحم ، بالحفاظ على النفس ، وجاءت فعلية لأنها متغيرة . وجاء الأجل نكرة لأنه غير محدد .

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ حكم قطعي لا يتغير ، هو القدر المسجل في اللوح المحفوظ ، والذي لا يتزحزح ، ولا يتغير ، وجاءت الصيغة اسمية لأنها ثابتة ، ووصف بكلمة مسمى لينفى عنه عدم التحديد ، وعنده للإشارة إلى أن ما هو مسجل في اللوح المحفوظ ، انظر إلى قوله تعالى :

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّطُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الزمر: ٣٩) (الرمز).

انظر إلى قوله تعالى في الآيتين إلى لفظة (عِنْدَهُ) فهي تشير إلى أن الأجل المسمى عنده في الآية الخاصة بسورة الأنعام هو أم الكتاب (اللوحة المحفوظ) الذي قال عنه أيضاً (وَعِنْدَهُ) .

ولو طبقنا أسلوب الاحتباك وهو أسلوب يتم في التقابل كأن يذكر شيئاً في طرف ليفهم منه أن الطرف الثاني على العكس منه ، لو طبقنا هذا الأسلوب : مع قوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ (الأنعام: ٢) (الأنعام).

في الأولى : ذكر (قَضَى) ، إذن في الثانية لا يوجد فيها قضى (بل قدر) .

في الثانية كلمة (مُسَمًّى) إذن في الأولى الأجل غير مسمى .

في الثانية كلمة (عِنْدَهُ) إذن في الأولى الأجل مسجل في كتاب مع الملائكة .

فالمحو والإثبات : لما في علم الملك ، أما ما في أم الكتاب (علم الله تعالى) فلا محوفيه . فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ، أما علم الملك الموكل بالعمر : فيمكن الزيادة فيه أو النقص لو وصل رحمه .

١٢- استجابة الله للدعاء ، لقد استعمل الله y لفظة (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) بما تحمل من دلالات : سرعة الاستجابة ، وضمير المتكلم ، وقد تكرر ذلك أربع مرات في سورة الأنبياء (مع نوح ، وإيوب ، ويونس ، وزكريا) عليهم السلام . فالاستجابة الربانية تعني أن معكوس الدعاء هو ما كان سيحدث ، ثم استجاب الله لدعاء نبيه ففلااستجابة تعني أن الدعاء لعب دوراً في تغيير الأحداث ، ولولا الدعاء ما حدثت الاستجابة أو تأجلت .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنبياء ٧٦)

﴿ وَيُؤْتِيكَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ . (الأنبياء ٨٤)

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء ٨٨)

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ۖ زَوْجُهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (الأنبياء ٩٠)

فهؤلاء الموتى لهم أجل جديد . وكذلك من أحياهم عيسى بإذن الله ، والرجل الذي أماته الرجل مائة عام :

١٣- هناك موتى تم إحيائهم من الموت ، كالسبعين الذين أحياهم الله y استجابة لموسى عليه السلام ، فهؤلاء الموتى لهم أجل جديد ، وكذلك من أحياهم عيسى عليه السلام بإذن الله ، والرجل الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه .

فإن قيل ، هذه كلها تمت بإذن الله ، فقد كتب لهم أنهم سيموتون ، ثم يعيشون ، أي أنه كتب لهم أجلاً ثانياً ، ووالله إن الثانية لأهون على الله ، لأن من ماتوا قبل مياعدهم أيضاً ماتوا بإذن الله ، وكما يمكن أن يكتب لمن مات حياة ورزقاً وأعمالاً بعد النهوض من الموت ، فكذلك يمكن أن يكتب لمن ينتحر حياة ورزقاً وأعمالاً ثم يموت فيحرم منها . وأيهم أهون ؟ أن تحدد خطة ثم لا تكتمل ، أو أن تكتمل خطة ثم تحتاج إلى استدراك .. الأولى أهون ، أيهم أهون ؟ أن تعد مائة من الناس ثم لا يأتي سوى خمسين ، أو أن تعدها مائة ، ثم يأتي

أكثر منهم .. الأول أهون ، وكلاهما على الله Y هين .. لكن لله قصة مع من استبعد البعث ، ولا يستبعد الحياة ، فقال لهم إن لا منطق لمن يستصعب البعث لأن الأمر الأول أهون :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) (الروم).

١٤- ثمة أحداث تم تغييرها بعد الأمر بها ، ومنها : تكليف إبراهيم بذبح ابنه في الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حقيقة ، لكن في الواقع لما بدأ التنفيذ ، افتداه الله Y بذبح عظيم ، لتمتد حياة إسماعيل بعد ذلك . وكذلك قتل العبد الصالح للطفل الذي سيرهق أبويه وسيكون كافراً :

﴿وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (٨١) (التغف).

معنى ذلك أن الغلام كان قد سجل له أنه سيرهق أبويه طغياناً وكفراً ، وأن الله Y أطلع العبد الصالح على ذلك ، لهذا قتله بأبويه المؤمنين .

مما سبق يتبين لنا أن الآجال محددة قطعاً في اللوح المحفوظ ، أما كتب الملائكة ، فالأعمار تزيد وتتنقص . وهكذا .. نرى أن مدة بعثة نوح عليه السلام كانت محددة مسبقاً بألف سنة .. وهذا يفسر أشياء :

١- استعمال لفظة (ألف) في القرآن .

٢- يبين أن دعاء نوح واستجابة الله Y للدعاء كان لهما أثر في الوجود ، فلو كان الدعاء واستجابته لا تغير من الواقع شيئاً . لفتح الباب لمن يقول : ففيم الدعاء ، وأين الاستجابة؟

وخلاصة القصة أن البعثة كانت ألف سنة ، فلما مضى وقت دون أن يؤمن أحد ، تأسى نوح ، فواساه الله Y وأخبره بأنه لن يؤمن بعد ذلك أحد ، وهنا دعا ربه ألا يبقى من الكافرين دياراً ، فاستجاب الله لدعائه وأرسل عليهم الطوفان ونجا نوحاً ومن معه في السفينة ، وبذلك كانت مدة البعثة أصلاً خمسين ، لكن نوحاً لم يقض منها سوى تسعمائة وخمسين ، ولذلك جاء التعبير المعجز ليعبر عن الأمر معاً . أصل البعثة ، وما قفضاه منها .

ولو قال : تسعمائة وخمسين سنة لعبر عن المدة التي قضاها فحسب . فهذا التعبير الفريد يجمع بين أصل البعثة وما تحقق منها .

٤. السر وراء المغايرة بين السنة والعام :

وقد غاير الله y بين التمييز في المديتين :

المدة التي كان يجب أن يقضيها : ألف سنة .

المدة التي لم يقضها خمسين عاماً .

فاستعمل لفظة (سَنَةٍ) في التعبير عن المدة التي قضاها مع قومه ، واستعمل لفظة (عَامًا) للتعبير عن المدة التي لم يقضها مع قومه ؛ لأن تلك مدة لم يلبثها مع قومه ، فاستخدم لفظ عام التي تفيد المدة الافتراضية للزمن أي الخالية من معاناة العيش . أما سر عدول القرآن الكريم عن الاستعمال التقليدي (تسع مائة وخمسون) إلى (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) فلإشارة إلى أن بعثة نوح كانت ألفاً ثم حدث التعجيل بسبب دعاء نوح على قومه .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٦٦) (نوح) .

فالبعثة كانت ألفاً ، لكنه ابتئس لعدم إيمانهم ، فأوحى الله إليه ليمنعه من الحزن بأنه لن يؤمن أكثر من الذين آمنوا فلا يأمل أو ينتظر ، ويحزن لعدم تحقق ما ينتظره ، فهنا ، دعا نوح عليهم بالإبادة . ويبدو التغاير المذهل في استعمال القرآن الكريم ، فلم يضع تمييز المدة المحذوفة (سنة) بل وضع عاماً لأن مدة تقديرية لم تحدث .

كانت مدة بعثة نوح ألف سنة ، لكنه عندما ابتئس أخبره اليوم بالحقيقة وأن قومه لن يؤمن منهم أحد بعد ذلك ، فدعا ربه عليهم بالهلاك ، وبذلك نفذ فيهم الحكم قبل أن تكتمل المدة المحددة لرسالة نوح .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١٤) (العنكبوت) .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ

بتعبير مؤكد يفيد القسم ، يقرر النص إرسال نوح عليه السلام لقومه ، ولم يرسل نبي إلا إلى قومه ، وكان نوح عليه السلام أول رسول للبشرية . وأنا لي فهمي الخاص في التفرقة بين الرسول والنبي :

فالرسول : يرسل لكافرين ، ليدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، ولأنهم كافرون يقبلون أو يحاربون .

النبي : للمؤمنين ، ينبئهم أوامر ونواهي ربهم ، وعليهم ، ولا يكون لهم الخيرة من أمرهم ، فعليهم الإذعان لأوامر من آمنوا به .

ولعلك تلاحظ أن نوحاً قد سبقه آدم ، وآدم كما قال النبي S نبي مكلم ، وكذلك سبقه إدريس ، فقد ذكر البخاري بأن إدريس جد نوح ، وكلاهما نبي لا رسول ، لأن الأمم التي كانت بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإيمان . فلم يرسل للمؤمنين إلا نبي ، فلما انتشر الكفر ، أرسل لهم أول رسول وهو نوح ، وبهذا الفهم نقف على حدود أن محمداً S نبي ورسول ، فهو رسول لقومه يدعوهم لعبادة الله ، فإذا استجابوا ، فهو نبيهم يبلغهم أوامر ربهم وشريعتهم التي لا يجوز لهم مخالفتها .

وقد استعمل الفعل (أَرْسَلْنَا) ولم يستخدم بعثنا لأن نوح كان أول رسول يرسله الله Y .

فَلَبِثَ الفاء تفيد أنه بدأ الرسالة مباشرة بعد الإرسال . واستخدم الفعل الماضي لأنه يحكي قصة للنبي S قد مضت من عشرات القرون . واستخدم الفعل (لبث) ولم يستعمل مكث ، لأن لبث تعني أن يقيم دون انتظار مغادرة ، أما المكث ، فهو لبوث مع انتظار انتهائه .

فِيهِمْ الظرفية دلالة على أنه لم يخرج عنهم أبداً طيلة هذه المدة .
أَلْفَ تلك هي مدة الرسالة المحددة سلفاً . ولو لم تكن المدة من الأساس ألفاً ما قال ألف سنة إلا خمسين ، ولقال العدد كما هو (تسعمائة وخمسين سنة) ولا حجة لمن قال : أن العبارة غير فصيحة ، فقد استعمل الله Y ما يماثلها

فقال : (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) فلو كانت المدة من البداية ليست ألفاً : لقال (تسعمائة سنين وخمسين) .

سَنَةٍ

استخدم اللفظة الدالة على تعايش هذه المدة بما فيها من معاناة وشدة، تطلق السنة على السنة المجدة إكباراً لها وتشجيعاً واستطالة. كانت السنوات شديدة على نوح وهو يدعوهم، فيسخرهم منه.

إِلَّا خَمْسِينَ

لم يقل العدد في مرة واحدة ، فلم يقل (تسعمائة وخمسين) وذلك لأنه كان محدداً لبعثة نوح أن يلبث في قومه ألف سنة ، فلما استاء نوح أن لا أحد لم يعد يؤمن من قومه ، أوحى الله ﷻ إليه أنه لن يؤمن منهم أحد بعد ذلك ، فهنا دعا نوح عليهم ، فاستجاب الله ﷻ لدعائه ، وبذلك طويت الخمسون سنة المحددة قبلاً ، وأصبحت مدة البعثة ألفاً من السنين مقطوعاً منها خمسون .

عَامًا

عدل القرآن عن لفظة سنة ، لأنه يتحدث عن مدة افتراضية لم يمكنها نوح في قومه ، فلم يكابد مشقاتها ، وبذلك يفرق القرآن بين السنة والعام ، فالسنة هي ما تكابدها ، أما العام فهي المدة الافتراضية ، أى أنك تقول في نهاية سنة ، لقد كانت سنة صعبة ، والعام القادم سأتلافى أخطائي .

فالسنوات التي دعا فيها قومه كانت شديدة واستثنى من هذه الشدة خمسون سنة، فأطلق عليها العام وهذا التباين في التمييز يعنى تباين في الحالة.

دعوة نوح (قاسية) = سنة.

المدة المستثناه من الدعوة (غير قاسية) = عام.

الفاء للسرعة ، وأخذهم تعنى ألا يبقى منهم شيء . قطع دابر .

فَأَخَذَهُمُ

الفاء للسرعة ، وأخذهم تعنى ألا يبقى منهم شيء . قطع دابر .

الطُّوفَانُ

وَهُمْ

لو قال بظلمهم ، لربما فهم المتلقى أنهم ظلموا قبلاً ، والعقاب على هذا الذنب السابق . لكن استعمال الجملة الحالية يعنى أنهم عندما أخذهم الطوفان كانوا في تلك اللحظة يتصفون بالظلم . وقد استخدم القرآن في ذلك : جملة اسمية ، خبرية ، حالية : أى أن ظلمهم حقيقة ثابتة ملازمة

لهم .

ظَلِمُوا أَنفُسَهُمْ ، لذلك حتى في عقابهم لا يشفق عليهم أحد . فالتعبير
بالظلم لمنع الإشفاق عليهم وهم في أرثى حالة يتعرض لها إنسان .

مما سبق نرى أن رسالة نوح كانت ألف سنة ، فلما ابتئس أن لا أحد لم يعد يؤمن ، أخبره
الله y أن من يؤمن قد آمن ، ولن يؤمن أحد بعد ذلك ، وكانت البعثة لم تنقض مدتها ، فهنا
دعا نوح عليهم ، فلماذا يعيشون إذن مادام لا أمل في استجابة أحدهم ، فاستجاب الله له ، وغلب
دعاء نوح على القضاء المسجل ، لذلك عندما أبلغ عن مكوثه ذكر العدد الـ (ألف سنة) ليقرر
أصل المدة ، ثم استثنى ولا استثناء إلا باقتطاع ، فاستثنى المدة التي لم تكمل بسبب الدعاء ،
وغير في التمييز لأن المدة التي لبثها في قومه مشقة فاستخدم لها تمييز يفيد المشقة (سَكَنَة)
، والمدة المقطوعة من البعثة لم يعيشها مع قومه ، فليس فيها مشقة فاستخدم التمييز الذي يفيد
عدم المشقة (عَامًا) .



المثال الخامس

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة ٢٣٤)

مائة وثلاثون ليلة ..

الاستعمال التقليدي :

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .

الاستعمال القرآني :

التعبير القرآني فيه عدول عن الاستعمال التقليدي . ويمكن الوقوف على أسرار التعبير من خلال الأسئلة الآتية :

١- هل السورة ناسخة أو منسوخة ؟

٢- سر استعمال الفعل (يذرون أزواجاً ، يتربصن بأنفسهن) .

٣- عدم استعمال التمييز للعدد (عشرًا) ؟

٤- الهدف من عدة المرأة :

١. الآية بين النسخ وعدم النسخ :

النص يتحدث عن عدة الأرملة التي يتوفى عنها زوجها ، فعليها الانتظار حتى تكتمل عدتها ، فإذا أتمت تلك العدة فمن حقها أن تقدم على الزواج .

وقد بدأ الآية بقوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) ليخلق سؤالاً في نفسك :

١- ماذا يفعل هؤلاء الأزواج قبل وفاتهم لتلك الزوجات ؟

٢- ماذا تفعل تلك الأرمال بعد وفاة أزواجهن ؟

وقد كرر القرآن الكريم هذه الصيغة (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) مرتين ، ليجيب في كل مرة عن سؤال من الاثنين . فمرة أجاب عما يجب على الأزواج أن يفعلوا قبل رحيلهم في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة) .

فكانت الإجابة : (مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ) أي أن يوصى الزوج قبل وفاته وصية لأهله من أجل إمتاع زوجته (إذ أصبحت أرملة) في بيته حولاً أي سنة من تاريخ الوفاة ، لا يقوم الأهل فيها بإخراج الزوجة ، إلا إن خرجت هي وأرادت الزواج بعد انقضاء عدتها ؛ فلا يتعرضون لها .

والمرّة الثانية أجاب عما يجب أن تفعل الأرمال أنفسهن بعد وفاة أزواجهن في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة) .

فكانت الإجابة (يَرَصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) أي على تلك الأرمال الانتظار قبل أن تطلب إحداهن الزواج حتى تنقضى عدتها (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) . وبذلك نرى أن تلك الآية لا تتسخ السابقة ، لأن كل منهما له مساره المختلف عن الآخر . ولكل منهما فاعل مختلف ، فالأولى (وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) موجهة للأهل من الرجل قبل وفاته لإكرام

زوجته بالبقاء في بيتها إلا إن شاءت الزوجة عدم البقاء فلها ذلك . والثانية : هي عدة الأرملة الملزمة التي ليس لها فيها خيار . وسوف يأتي الحديث مفصلاً حول الآيتين في الفصل الرابع^(١)

٢. يتربصن بأنفسهن :

إذن البداية المتحدة تمتلك سؤالين ، لذلك تتفرع فرعين ، لكل فرع إجابة عن أحد السؤالين ، وفي الآية التي معنا يجب عن السؤال الأول : ماذا تفعل الأرملة بعد وفاة زوجها ؟ فجاءت الإجابة : (يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) وكلمة (بِأَنْفُسِهِنَّ) ليست تأكيداً ؛ لأن تأكيد الفاعل المرفوع يكون بوجود ضمير منفصل بين الفعل وكلمة التوكيد فتكون (يتربصن أنفسهن) أي أن الباء لو حذفت لكانت أنفسهن مفعولاً به ، وهذا يجعل من نفس الأرملة شخصية أخرى غيرها تتعجل الزواج . فجاء الأمر للأرملة أن تتربص بتلك النفس المتشوقة للزواج أي أن تمسك بزمام تلك النفس المندفعة لتروّض جموحها نحو الزواج لحين انتهاء العدة^(٢).

٣. عشراً :

العدد المذكور (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) وهو يتكون من جزأين : (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) بالأشهر الهجرية ، والجزء الثاني (وَعَشْرًا) جاء تذكيره ليشير إلى تمييز مؤنث أي ليلة . لأن العدد أصله بالتاء ، فقد انه التاء يفيد أنه تحول عن أصله الذي نشأ عليه إلى الفرع ، والفرع هو المؤنث ، فالتمييز حتماً ليلة . وعشر ليال أي تسعة أيام ، كما رأينا في تفسير قوله تعالى (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)^(٣) فهي الليالي العشرة الأولى من ذي الحجة قبل عيد الأضحى ، لأن اليوم يبدأ بليالته ، فالليالي العشرة تكتمل بليلة عيد الأضحى في العاشر من محرم دون أن تصل إلى العاشر نفسه .

وجاء تنوين العدد ليحجب التمييز ، فالتمييز مجرور بالإضافة ، ولا إضافة بعد تنوين . أما لماذا لم يرد التمييز (ليلة) ؟ فذلك لأن الله يريد أن يجعل العدد نعتاً ، ومن ثم يصبح عدداً غير قابل على الزيادة ، وذلك لأن العدد من بداية الشهر (أي شهر) حتى الليلة العاشرة لا يتغير ، وهي مثل قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر) .

فالليالي العشر من شهر ذي الحجة هي الليالي التي تسبق فجر عيد الأضحى ، ولن يأتي عام

(١) انظر صفحة () .

(٢) أحمد () .

(٣) سورة الفجر ، الآية (٢) .

أبدأ تكون الليالي من بداية الشهر إلى فجر اليوم العاشر ، وتكون تسعاً أو إحدى عشرة .. وهنا الليالي العشرة للأرملة هي العشر الليالي التي تعقب شهرها الرابع . ولا يمكن أن تزيد أو تقل هذه الليالي التي تسبق اليوم العاشر من الشهر الخامس أبدأ عن عشرة ، وعند الاختصار على العدد لا يزيد ولا يقل ، فإن مكانه بعد المعداد يغلط بنفسه المعداد ، ولذلك نُون العدد ليحول دون وجود المعداد بعده ، ومن ثم يليه وراءه .

والسؤال : هل تتغير المدة من (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) عنها لوقيل (١٣٠) ليلة ؟ إن ١٣٠ ليلة عددها محدد ، وهو رقم يعطي طولاً نفسياً ، لا يتناسب مع جموح النفس المتشوفة للزواج ، كما أن الغلط في ليلة يعني عدم الالتزام بأمر الله .

أما التعبير القرآني الذي يتلأ في هذا الثقل النفسي ، وَيُجَنَّبُ الْمَرْأَةُ أَنْ تَغْلُطَ فِي الْعَدَدِ ، وهو يقل حتماً عن الرقم الآخر ، فالأربعة أشهر قيمتها : ١٢٣ ، ١١٨ يوماً . لو بدأت من أول يوم في الشهر . أي هي ١١٨ ، ١١٩ يوماً ، فهي أقل بيوم أو يومين من المدة السابقة .

وقيل في اختيار هذا العدد أن ذلك هو عمر الجنين حتى تصبح فيه الروح ، فكما جاء عن النبي S في حديث ابن مسعود أن الجنين « يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح » ، فهو يمكث (١٢٠ يوماً نطفة ، علقه ، مضغة) وزيدت الأيام الستة لتشهد نفخ الروح في الجنين . ولو كانت المرأة المتوفى عنها زوجها حاملاً وأنجبت ولو بعد وفاته بأيام فقد انتهت عدتها ولا تنتظر المدة المحددة (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) .

فإذا بلغت الأرملة المدة المحددة ، فالأولياء لا جناح عليهم إن تركوها تطلب المعروف (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) ، جاء (بِالْمَعْرُوفِ) معرفة ليدل على أمر محدد ومقصود واستخدمت معه (أل) العهدية لتشير إلى وجه واحد بعينه هو الزواج . إن الأرملة من حقها أن تفعل أشياء مستساغة كثيرة ، لكن لو أردنا شيئاً واحداً فحسب ، وسألت كل إنسان على حده : اذكر شيئاً واحداً لا تختلف فيه مع غيرك يمكن أن تفعله الأرملة بعد انقضاء عدتها ويكون حلالاً ، لا يعترض عليه الناس . إن الإجابة المتحدة للناس لن تخرج عن : الزواج . لأنه لا مستساغ مشهور سواه . فالمعروف هو تزوج الأرملة بعد انقضاء عدتها .

وقد استخدم في الحكم قوله (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) وهو قوله تقرر وجود أمرين كلاهما ليس إثماً

هو : الزواج أو البقاء أرملة . ويرجّح المذكور أي الزواج .

٤. الهدف من عدة المرأة :

ويبقى سؤال : ما الهدف من عدة المرأة ؟ والإجابة : استبراء الرحم من الزوج السابق قبل الزواج بزواج جديد . وهذا يطرح سؤالاً فلماذا اختلفت عدة المطلقة عن عدة الأرملة ؟

١. تزيد الأرملة على المطلقة بوجود الحداد على الزوج ، فالعدة للأرملة عبادة بترك الزينة ، وذلك لا يصح إلا بقصد ، والقصد لا يكون إلا بعد العلم ، ولذلك قال العلماء (منهم الحسن ، وعمر بن عبد العزيز ، والشعبي) ^(١) . أن العدة للأرملة تبدأ بعلمها بوفاة زوجها وليس بوفاته .

٢. عدة العدة هو استبراء الرحم . والرحم يستبرئ بثلاثة قروء . ولو كان يستبرئ بأربعة أشهر وعشراً مثل عدة الأرملة لوجب على المطلقة أيضاً .

٣. أن الأمة وحكمها نصف الحرة ، يحكم عليها بثلاثة قروء بعد الطلاق ، مما يقطع أن العدة من العدة هي إبراء الرحم . وإبراء الرحم يحتاج ثلاثة قروء فحسب .

مما سبق نرى أن استبراء الرحم هو ثلاثة قروء . وزادت الأرملة حداداً على زوجها .. والحداد أربعون يوماً . ولذلك أميل إلى أن التي تعلم بوفاة زوجها بعد وفاته بأكثر من ١٣٠ يوماً ، ليس عليها العدة كاملة ، ولكن الفارق بين عدة المطلقة وعدة الأرملة ، لأن هذا الفارق هو عدة الحداد . فعليها عدة الحداد وليس عدة الاستبراء .

أي أن العدة اثنتان .. عدة استبراء .. ومدتها ثلاثة أشهر .. تشترك فيه المطلقة والأرملة . وعدة حداد خاصة بالأرملة فحسب ، ومدتها أربعون يوماً . فإذا كانت الأرملة حاملاً ووضعت بعد وفاة زوجها طفلها .. ففى رأى الحسن وحماد بن أبي سليمان والأوزاعي : يرون أنها لا تحل إلا بعد الطهر من النفاس .



(١) ابن العربي ، أحكام القرآن الجزء الأول ، ص ٢٣٤ .

المثال السادس

وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ :

❖ ﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾ (الأعراف) .

الاستعمال التقليدي : اختار موسى من قومه

الاستعمال القرآني : وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ .

عدل التعبير القرآني عن الاستعمال التقليدي فأسقط حرف الجر (من) ..

ومع الأسئلة الآتية :

١- تحليل كلمات الآية .

٢- سبب العدد (سبعين) .

٣- السر وراء حذف من قبل قومه .

١. دقة اختيار كلمات الآية :

(وَأَخَارَ) : الواو تدل على اختلاف زمن الحدث عما قبلها ، أي أنه بعد وقت غضبته في عبادة قومه للعجل ، ولاشك أنه لابد أن يكون قد مر وقت ، لأن عبادة العجل اقتضى بعدها حرق العجل ونسفه في البحر ، ومشادة موسى مع هارون ، والأمر لقومه بقتل أنفسهم ، ولابد أنه بعد كل هذا سيكون ثمة وقت لدفن من قتلوا .

(مُوسَى) اسم متفرد أطلقته عليه امرأة فرعون . وقد شكك أحد خصوم الإسلام في القرآن لأنه جعل امرأة فرعون هي من تلتقط الطفل ، مخالفة كتابه الذي قال بأن ابنة فرعون هي من عثرت على الطفل .

والأقرب إلى المنطق أن تقوم الزوجة التي لا تتجب بتبني الطفل ، فهذا أليق بها ، وليس بالابنة ، وإن كانت الابنة صغيرة لا يعقل أن تتبناه ، وإن كانت متزوجة فهي تعيش في قصرها ، ولا يكون فرعون هو الذي ربى موسى . فلنر القصة أولاً كما تقدمها التوراة في سفر الخروج ، الإصحاح الثاني :

١ وَذَهَبَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ لَآوِي وَآخَذَ بِنْتَ لَآوِي

٢ فَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتْ ابْنًا . وَلَمَّا رَأَتْهُ أَنَّهُ حَسَنٌ حَبَّأَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ .

٣ وَلَمَّا لَمْ يُمْكِنَهَا أَنْ تُحَبِّبَهُ بَعْدَ أَخَذَتْ لَهُ سَفْطًا مِنَ الْبُرْدِيِّ وَطَلَّتْهُ بِالْحَمْرِ وَالزَّفْتِ وَوَضَعَتْ الْوَلَدَ فِيهِ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ .

٤ وَوَقَفَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ لَتَعْرِفَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ .

٥ فَفَزَلَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى النَّهْرِ لِتَغْتَسِلَ وَكَانَتْ جَوَارِيهَا مَاشِيَاتٍ عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ . فَرَأَتْ السَّفْطَ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ فَأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وَأَخَذَتْهُ .

٦ وَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ الْوَلَدَ وَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي . فَرَقَّتْ لَهُ وَقَالَتْ : « هَذَا مِنْ أَوْلَادِ الْعِبْرَانِيِّينَ » .

٧ فَقَالَتْ أُخْتُهُ لَابْنَةِ فِرْعَوْنَ : « هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُوكَ امْرَأَةً مُرْضِعَةً مِنَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لَتَرْضِعَ لَكَ الْوَلَدَ ؟ »

٨ فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ : « اذْهَبِي » . فَذَهَبَتِ الْفَتَاةُ وَدَعَتْ أُمَّ الْوَلَدِ .

٩ فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ : « اذْهَبِي بِهَذَا الْوَلَدِ وَأَرْضِعِيهِ لِي وَأَنَا أُعْطِي أَجْرَتَكَ » . فَآخَذَتِ الْمَرْأَةُ الْوَلَدَ وَأَرْضَعَتْهُ .

١٠ وَلَمَّا كَبُرَ الْوَلَدُ جَاءَتْ بِهِ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ فَصَارَ لَهَا ابْنًا وَدَعَتْ اسْمَهُ « مُوسَى » وَقَالَتْ : « إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ » .

ولنا ملحوظات عدة على النص :

١ - النص يوهم أن هذا الولد هو أول أولاد هذين الزوجين : لأنه يتحدث عن زواج رجلين وحبل المرأة (١ وَذَهَبَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ لَآوِي وَآخَذَ بِنْتَ لَآوِي ٢ فَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ وَوَلَدَتْ ابْنًا) ، والمعروف أن موسى ليس أول أولادهما ، إذ تسبقه أخته مريم ، وأخوه هارون . وسوف نرى أخته بعد ذلك

تقف لمراقبته .

٢- النص يقرر أنها خبأت الطفل ثلاثة أشهر ، ثم يقول لما لم يمكنها أن تخبئه ، كيف لا يمكنها وقد فعلت فعلاً ، فوسيلة فرعون لمعرفة الولادة هي القابلة ، فمادام مر ثلاثة أشهر فلن يعرف ، ومادامت أمه قد نجحت في إخفائه هذه المدة فهي قادرة أن تواصل إخفاءه .

٣- لا يذكر النص شيئاً على بث الله السكينة في قلبه ، أو ربطه على قلبها ، لذلك نتعجب من قيام الأم من تلقاء نفسها بإلقاء ابنها في النهر . إن القرآن يقرر أن الله هو من أمرها بذلك ، وأنها برغم ذلك أصبح فؤادها فارغاً لولا أن ربط الله على قلبها . فكيف فعلت أم موسى ذلك دون تلك المساعدة من الرب ؟؟ فأى الخطرين أشد على الطفل : أن يكون في بيت أمه ، أو يكون في الحلفاء ؟؟ فمادام لا توجد معونة إلهية ، فعلى الأم أن تحارب لأبعاد العيون عنه ، لا لجذبها ، في القرآن كان هناك تدخل إلهي ، فالله أمرها إن خافت عليه من الهلاك أن تلقيه في الهلاك لأنه من يرعاه ، وهو الله Y الذي يولد الحياة من التقاء عضو ميت بجسم ميت ، فهو من يقدر أن يجعل الخطر أمناً له ، لكن مادام لا توجد معونة إلهية كيف لم يصبح قلبها فارغاً ؟ وكيف طاوعها قلبها على إبعاده ؟

٤- لماذا طلت سبط البردي بالْحَمَرِ وَالزَّفَرِ ، مادام لن تلقى به في النهر ؟

٥- تم وضع الطفل في مكان ثابت غير متحرك ، فوقوف الأخت عجيب ، لأن الثبات يعني أن تطيل الأخت الانتظار . بخلاف لو وضع في النهر ومضى الماء به ، فسوف تتابع أين يأخذه النهر ؟ أى بيت استوقفه وأخذه . ثم تعود وتخبرها ، وتكون حركة السبط مختصرة الوقت ، لأنها في تحركها تدعو أنظار الكثيرين ، لكن ثباته مخفياً بين الحلفاء في مكان واحد يحتاج إلى الصدفة لتبعث به من يأخذه ، ولو أخذه يجب أن تمضى الأخت وراءه لتعرف أين استقر به .

٦- وهل تغتسل ابنة فرعون في النهر في أماكن عامة يصل إليها الناس ؟ المنطقي : أن يكون قصرها يطل على النهر ، ويكون هذا المكان خاصاً بها ، لا يدخل إليه كل من يريد الدخول ، وهذا يصلح لو كان السبط سارياً في النهر ، فيحملة الماء إلى القصر ، فإذا نزلت إلى الماء لتغتسل رآته ، وإذا لم تنزل رآته من شرفتها فنادت الخدم ليأتوه بها . إن الماء من حقه اقتحام الأماكن الخاصة ، لكن عوام الناس . ولا سيما إذا كانوا مضطهدين . لا يحق لهم أن يدخلوا تلك الأماكن بهذه السهولة الشديدة .

٧- إن التوراة تقرر إن بني إسرائيل كانوا يعيشون في مدينة مستقلة هي جاسان ، بعيدة عن مدينة فرعون ، فكيف جاءت ابنة فرعون إلى أرض العبرانيين سباحة ؟؟

٨- فالأولى برؤية السفط الذي بين الحلفاء من يمشى على الشط لا من يغتسل في النهر ، وأي فضول يدفع ابنة فرعون للعثور على سبط مطلي بالزفت مهما كان ما فيه على فرض أنها هي من رآته ؟

٩- وهكذا رأت ابنة فرعون السبط المختفي بين الحلفاء وهي في الماء ، وأرسلت أمتها التي ليست معها لتحضره ، ثم هي التي فتحتة ، ولا يحدثنا النص أنها خرجت من الماء ..

١٠- فماذا حدث لما فتحتة ؟ (إِذَا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكِي) ، كأن البكاء صورة تراه العين وليس صوتاً ، إن البكاء سبب وجيه ليلفت نظرها إلى السبط ، لكنه لم يخبرنا بأنه يبكي إلا بعد أن فتحت ، ماذا حدث لما فتحتة ؟ إذ هو صبي يبكي . وكيف يكون ابن الثلاثة أشهر صبياً ؟؟

١١- تدخلت الأخت لتعرض مرضعة قبل أن تستقر ابنة فرعون على شيء بالنسبة للطفل أمر عجيب ، والأعجب موقف ابنة فرعون التي قالت لها : اذهبي ، وأعطت الطفل للمرأة العبرانية لترضعه مقابل أجرة ، وظل الولد بلا اسم . فلما كبر ، جاءت به الأم لابنة فرعون ليصير لها ابناً ، وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوسَى» .

١٢- عللت ابنة فرعون لتسميته بموسى بقولها : «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ» . والمعروف أنه لم ينزل الماء قط لأنه كان في السبط بين الحلفاء ، وأرسلت أمتها لتحضره . وغني عن القول : إنها مصرية ، فالأولى أن تطلق عليه اسماً مصريةً ، أما الاسم العبري فيقبل لو كان الذي عثر على الطفل من العبرانيين .

الاسم موسى هو صيغة مبنية للمعلوم للفعل العبري (مشح) وهذا يعني أنه يخرج بنفسه ، وهو لم يخرج بنفسه ، أما كونه خرج من الماء ، فلم يخرج لا بنفسه ولا بغيره .

والأمر الأقرب للمنطق أن يكون الاسم مصريةً لأن التي سمته به مصرية ، ويرى رؤوف أبو سعدة أن المعنى بالمصرية القديمة هو ابن ، وبذلك تستقيم العبارة : فَصَارَ لَهَا ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوسَى» ، ويكون قولها : إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ ليس تعليلاً لمعنى الاسم ، بل تعليلاً لاتخاذها إياها ابناً . فجزر الكلمة باللغة المصرية (م . س . ي) يعني ولد ، يلد ، ولادة . وقد دخل في الأسماء

المصرية (تحتمس) أي ابن تحوت ، وسوف يشير فرعون إلى أنه لم يعطوه اسماً :

﴿ قَالَ أَلَمْ نَرْبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء).

ولذلك ستناديه أمه وهو الذي لم يحمل سوى لفظة وليد : يا ابن أمك ، لذلك ستظل هذه الكلمة محببة لنفس موسى ، فيناديه بها أخوه ليحننه في لحظات غضبته العارمة .

وبذلك قدم لنا القرآن اسمه كما نطقت المرأة الفرعونية بالسین وليس بالشين ، كما قدم لنا معناه بالعربية وهو وليد .

(قَوْمُهُ) القوم هم بنو إسرائيل ، وهي كلمة خاصة بالرجال ، بدليل ورودها في مقابلة النساء في قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ (الحجرات).

وسُمي الرجال بالقوم لأنهم يقومون على شأن القبيلة .

٢. سر اختيار العدد سبعين :

• لقد قسم الله لا بني إسرائيل إلى اثني عشر قسماً عندما خرجوا من مصر :

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمًّا وَأَوْجِبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِمَّةً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف).

وعندما أراد موسى أن يخرج لميقات ربه ، قرر أن ينتخب قومه كلهم ، أي أن يخرج ممثلون يمثلون كل فريق من الاثنى عشر ، فأخذ من كل فريق ستة أشخاص ، ليكون المجموع اثني وسبعين رجلاً ، ومنهم موسى وهارون ، فإذا استخلف موسى هارون مكانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ (الأعراف).

سيكون المجموع واحداً وسبعين بموسى ، إذن عندما ينطلق موسى بمن اختارهم للقاء الله ، لن يكون معه إلا سبعون من قومه .

٣. لماذا حذف حرف الجر (من) :

• لم يقل النص (واختار موسى من قومه) بل حجب حرف الجر (من) ، والفعل (اختار) لا يتعدى بنفسه إلا إلى مفعول واحد ، وبإسقاط (من) تعدى إلى مفعولين ، فما سر إسقاط من قبل (قومه) ؟

لو قال : اختار من قومه سبعين رجلاً ، لاحتمل المعنى ألا يمثلوا القوم أجمعين بكل قبائلهم . لكن المعنى المراد هنا أنه اختار كل قومه ليذهبوا معه ، بمعنى أن السبعين ممثلون لكل بني إسرائيل فكأن كل بني إسرائيل ذهبوا معهم . وجاء المفعول به (قومه) ، وجاءت سبعين بدلاً . والبدل هو تخصيص الحكم أى هو المعنى المقصود .

وما أروع هذا التقعيد اللغوي الذي قدمه لنا القرآن الكريم : إذا أردت أن يكون الاختيار ممثلاً للجميع فأسقط (من) لأنك لا تختار مجموعة من كل ، لكنك تختار مجموعة تمثل الكل .

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً : أي سبعين غير موزعين ، لا يمثلون كل بني إسرائيل .

اختار موسى قومه سبعين رجلاً : أي سبعين يمثلون كل قبائل بني إسرائيل .

قَوْمَهُ جعلها المفعول ليقرر أن اختياراته تمثل كل القوم ، ممن يعنى أن كل القوم يكون حاضراً بحضور ممثليه .

سَبْعِينَ اختيار هذا الرقم لتمثيل كل القبائل .

اختار موسى قومه كلهم لميقات الله وأصبح من قبيلته أربعة أشخاص ليصبح مجموعته قبيلته ستة بإضافته هو وهارون ، ليكون المجموع اثني وسبعين رجلاً ، ثم استخلف هارون مكانه ليمضى موسى ومعه السبعون من قومه .



المثال السابع

أَوْ يَزِيدُونَ :

❖❖❖ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ (الصفحات) .

أكثر من مائة ألف

الاستعمال التقليدي :

مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ .

الاستعمال القرآني :

عدل التعبير القرآني عن الاستعمال التقليدي فأسقط حرف الجر (من) .. وسوف نقف على أسرار التعبير من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية :

١- لماذا قال (وَأَرْسَلْنَاهُ)

٢- استخدام أداة التخيير (أَوْ) .

٣- تنوين العدد

١. استعمال وأرسلناه إلى :

وَأَرْسَلْنَاهُ الفعل أرسل يصلح أن يكون أرسل إلى ، وأرسل ل ، فإذا كنت متجهاً لهم فالإرسال إلى ، وإذا كنت مرسلأً من أجلهم فالإرسال ل . وإذا أردت الانتشار في المكان يكون الإرسال في : مثل قوله تعالى (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٣١﴾) (١) ، والإرسال ب : إذا كان يتحدث عن الرسالة ذاتها . والإرسال على : للتحكم فيهم.

(١) سورة الأعراف، الآية ١١١ .

إِلَى

قوله (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى) تبين : أن يونس عليه السلام أرسل متوجهاً إليهم .
وهذه القولة مناسبة لأداء المهمة الثانية له ، بعد أن أبق ، وركب البحر ،
فابتلعه اليم ، واستجاب الله ﷻ لدعائه ، فلما استجاب له وأنقذه من
الحوت ، وعالجه مما أصيب به ، جاء الأمر الثاني بالإرسال إلى قرية أخرى
غير قريته . فجاء حرف الجر (إِلَى) لأنه كان متجهاً إليهم .

ولم يقل (بعثناه) لأن البعث يدل على أمرين :

- أن يكون المحور المبعوث نفسه . وهنا المحور المرسل إليهم .
- أن المبعوث له علاقة سابقة بالأمر . ويونس لم يكن له علاقة بهؤلاء القوم .

٢. وجود حرف التخيير (أو) :

قال المشككون : إن (أَوْ) شكية ، ولا يصلح مع الله الشك ، لأنه هو الذى يعلم كل شيء
، لكن الله يستخدم (أَوْ) إذا كان يقرب الصورة كما جاء في قوله تعالى :

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم) .

فالتائل لا يقرر ما يعلمه ، لكنه يقرب الصورة للمستمع الذى لا يعرف الصورة ، فيقربها
بأقرب الأشياء إلى تصويره ، ثم بعد ذلك يقول له وهو أقرب من أقرب شيء تعرفه .

فهى مثل قول رجل يريد أن يخبر الناس بمدى قوته ، ولنفترض أنه يمكنه أن يهزم مائة
رجل ، فإذا ذهب إلى بلد وأراد أن يخبرهم بقوته : يسألهم من أقوى رجل في ظنكم ؟ قالوا
الذى يستطيع أن يهزم عشرة ، قال لهم أنا أستطيع أن أهزم عشرة وأكثر من ذلك .

تتركز الاعتراضات على الجملة الخبرية الصادرة من الله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ،
ونحن نرى أن ثمة فارقاً بين التقرير والتشبيه ، فعند التقرير : لا تجوز (أو) . وعند التشبيه
: فلا ضرر من (أو) ، لأنه من البداية لا يخبرك بالحقيقة التى تقبل التقرير ، لكنه يقربها
إليك بما تعرفه ، ثم يأتى ب(أَوْ) ليقرر لك أن هذا للتقريب وليس للحقيقة . ولننظر
لأمثلة :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ (٧٤) (البقرة).

النص القرآني يشبه قلوب اليهود فيأتي بأشد شيء تعرفه وهو الحجارة ، وهذا يكفى لتعلم أن قلوبهم متجلدة ، ثم يأتي ب (أو) ليقرر أن جمود قلوبهم يفوق أكثر صورة تعرفها أنت . أما قوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (١٤٤) (آل عمران).

فهو افتراض يفترضه يهدف منه أن يعلمهم أنه لا ينبغي لهم أن ينقلبوا على أعقابهم في أى حالة من حالات الافتراض .

مثال آخر :

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) (النازعات).

لاحظ (كأن) فعند وجود كأن فهو يقرب لك الصورة ، ولا يقرر لك الحقيقة . وهو يخبرنا عن إحساس الكافرين عندما يرون قيام الساعة ، لم يلبثوا في الحياة الدنيا سوى نصف يوم من شدة هول القيامة . وأى النصفين يصلح .

أما قوله :

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) (سبا).

فالعبارة سيقولها النبي S للكفار : ولهذا عدل الله عن استخدام (أو) حتى لا يجمعهم معه في أمر واحد .. فلو استعمل الواو ، فهذا يعني أن الفريقين كليهما سيكونان معاً في ناحية من الناحيتين : لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أما أو فتعني أن كل واحد منهما في جهة ، فأحدهما سيكون في جهة والآخر لابد في الجهة الأخرى :

استعمال الواو : الفريقان في ناحية الهدى أو ناحية الضلال المبين . وهذا غير ممكن .

استعمال أو : كل واحد منهما في جهة ، الفريق الأول يكون جهة الهدى فيكون الثاني في

أما (أَوْزِيدُوك) التي في النص الذي معنا فأيضاً للتقريب كما سيتضح .

٣- تنوين العدد (ألف) :

إن تنوين العدد يعنى قطعه عن الإضافة ومن ثم يستحيل أن يأتي التمييز بعده . وهذا يعنى أن التمييز لا مجال له للوجود إلا إذا وضع قبل العدد .

والتقدير : أرسلناه إلى ذات مائة ألف . وبذلك يتحول العدد من كمية إلى عدد فتوي (نسبي) . والنسبة تسمح بوجود حرف العطف (أو) . لأنك لو كنت تتحدث عن أقسام ينسب إليها . ولو ضربنا مثلاً بعيداً عن الأعداد ولنجعلها أحجاماً : فقلنا إن هناك أوزاناً قياسيةً : طن ، وخمسمائة كيلو ومائة كيلو .. فهذه فتات ، فلو كانت هناك بهيمة وزنها مائة كيلو نقول ذات المائة ، ولو كان وزنها خمسمائة كيلو نقول ذات الخمسمائة ، وهكذا ، أما لو كانت مائة وعشرين فنقول ذات المائة أو تزيد .

إن تنوين العدد يجعله مقطوعاً عن الإضافة ، ومن ثم يستبعد التمييز بعده . ولذلك فالمعدود إن أردنا إثباته لا يصلح إلا متقدماً عن العدد .

وأرى أن التقدير لا يمكن أن يكون لمعدودات ، بل لابد أن يكون نسبة ، مثل ذات ، وأرسلناه إلى ذات مائة ألف ، أي إلى قرية من فئة هذا العدد .

ولاشك أن هذا الفهم يسمح لوجود (أَوْ) لأن القرى ستتفاوت في عدد الأفراد ما بين الانتسابين ، فهناك قرية ذات مائة ألف ، وأخرى ذات مائتي ألف ، وهناك قرية ثالثة بينهما . فأو تشير إلى أن الأفراد أكثر من الفئة المحددة ، لكنهم لا يصلون إلى الفئة التالية عنها .

وهذا يقتضى احتمالين :

١- حجب المعدود .

٢- تقديم المعدود .

القرآن إذن عن الاستعمال التقليدي المألوف للناس (أربعين ليلة) ، وسوف نحاول أن نقف على أسرار الآية لنعرف العلة وراء العدول عن الاستعمال التقليدي إلى هذا الاستعمال

القرآني الخاص .

المرسل هو يونس بن متى المشهور عند العبرانيين باسم يونان ، وقد تم إرساله مرتين ، الأولى إلى قومه الذين تركهم ومضى .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) ﴿ ٨٨ ﴾ (المؤمنين) ﴿ (الأنبياء) .

أما قومه فقد آمنوا ، عندما غادرهم يونس ، فلما رأوا أسباب الهلاك ورأوا الدخان يغشى مدينتهم ، فلبسوا المسوح ، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الذواب وأولادها ، فحنّ بعضها على بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا ، وترادوا المظالم ، ودعوا كما قال الفضيل بن عياض : «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت ، وأنت أعظم منها وأجلّ ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» .

فرحمهم الله Y وكشف عنهم . ولذلك قال الله Y : فهلا فعلت القرى التى كتبنا عليها الهلاك مثل قرية يونس التى تابت عن الكفر قبل أن ينزل بها الهلاك .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨) ﴿ (يونس) .

أي أن قرية يونس لم تعد بحاجة إلى يونس ، لأنها آمنت وهو في بطن الحوت ، ثم في فترة نقاهته من المرض الذي أصابه من جراء السوائل التى أفرزها الحوت عليه وهو في بطنه . لذلك كان الإرسال لقوم آخرين ، بعد أن أبق من قومه إلى الفلك المشحون ، والتقطه الحوت ، ثم نبذه الحوت لأنه كان من المسبحين :

﴿ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ (١٤٥) ﴿ وَأَبَلَّيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ (١٤٦) ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (١٤٧) ﴿ فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١٤٨) ﴿ (الصافات) .

ما سبق يدل أن القوم الذين أرسل يونس إليهم هم غير أمته التى أبق منها ، وآمنت في فترة غيابه ، فبعد أن عولج من سقمه بشجرة اليقطين أرسله الله Y إلى (مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) .

تتوین العدد (مائة ألف) ٩ إن تتوین العدد يجعله مقطوعاً عن الإضافة ، ومن ثم يستبعد التمييز بعده . ولذلك فالمعدود إن أردنا إثباته لا يصلح إلا متقدماً عن العدد .

وأرى أن التقدير لا يمكن أن يكون لمعدودات ، بل لابد أن يكون نسبة ، مثل ذات ، وأرسلناه إلى ذات مائة ألف ، أي إلى قرية من فئة هذا العدد . ولاشك أن هذا الفهم يسمح لوجود (أو) لأن القرى ستفاوت في عدد الأفراد ما بين الانتسابين ، فهناك قرية ذات مائة ألف ، وأخرى ذات مائتي ألف ، وهناك قرية ثالثة بينهما . ف (أو) تشير إلى أن الأفراد أكثر من الفئة المحددة ، لكنهم لا يصلون إلى الفئة التالية عنها .

النص لا يقرر العدد ، بل يقربه ، والتقريب يصلح معه (أو) .

إن تتوین العدد يعنى رفع المعدود من بعده . ومن ثم فيجب التقدير قبل العدد ، والتقدير هنا فتوي . أي يجب أن يكون التقدير : وأرسلناه إلى قرية ذات مائة ألف .

وبذلك نرى أن لفظة (أو) دقيقة ، لأن الأمر الفتوي لن يكون عدد الأفراد مطابقاً له . بمعنى لو أن القرية من فئات المليون ، فلن يكون عددها مليوناً بالضبط ، قد يزيد عدجده الأشخاص أو يقل عدد الأشخاص ، فتأتي لفظة (أو يزيدون) لتعبر عن هذا التفاوت بين والأفراد . ولو اقتصر العدد على مائة ألف لكان المعنى أن القرية مائة ألف فحسب . وهذا ليس المقصد ، المقصد أنه أرسله إلى قرية كبيرة مماثلة لكل قرية يبلغ عدد سكانها قرابة هذا العدد ، ولذلك عدل إلى ضمير جمع المذكر لأنه انتقل إلى الحديث عن الأفراد ، فالأفراد يزيدون عن هذا المقياس السكاني . فلو قلنا أن مدينة المنصورة ذات المليون نسمة ، فهذا يعنى أن عدد سكانها يحوم حول هذا الرقم ، فلو كانوا أكثر قليلاً ، قلنا هي ذات المليون أو يزيدون .



المثال الثامن

وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

* ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف: ١٦٠)

الاستعمال التقليدي :

اثني عشر سبطاً

الاستعمال القرآني :

اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا .

عدل التعبير القرآني عن الاستعمال التقليدي فجعل التمييز جمعاً .

١- قطعناهم والقبيلة المفتقدة

٢- سر العدول عن المفرد (سبطاً) إلى (أسباط) .

٢- اختيار العدد (١٢) .

١. قطعناهم والقبيلة المفتقدة :

إن بني إسرائيل ظلوا كلهم أبناء يعقوب في عهد يوسف عليه السلام ، ولم يصبحوا أقساماً إلا عند الخروج في عهد موسى عليه السلام . والتعبير (وَقَطَّعْنَهُمْ) يفيد أن الله y هو الذي فعل ذلك . وأسند الفعل إلى نون العظمة كعادة التعبير عن أفعال الله ، فأفعال الله دوماً تأتي معظمة ، بينما يقتصر الحديث عن ذاته عز وجل بلفظة المفرد حتى لا يتوهم أحد أنه متعدد ، أو أنه ثالث ثلاثة .

فالفعل (قَطَّعَ) يعني أنهم لم يكونوا كذلك ، ووقت التقطيع كان بعد الخروج ، وإذن ليس المقصود بالتقسيم عدد أبناء يعقوب ، لأنهم كانوا كذلك قبل الخروج ، فلا يمكن أن

يكون فروع بني يعقوب اثني عشر فرعاً ، ثم يقطعهم الله إلى اثني عشر ، فلا بد أن الفروع التي بدأت باثني عشر فرعاً قد انقطع منها فرع أثناء وجودها في مصر ، أي مات أحد أبناء يعقوب دون ذرية ، وبذلك كانت فروع بني إسرائيل عند الخروج أحد عشر فرعاً ، وهنا أعاد الله تقطيعهم ثانية ، وجعل الأسباط اثني عشر سبطاً بأن جعل فرعاً من الفروع فرعين ، وبذلك أصبح الأسباط اثني عشر قسماً .

فمن الفرع المفقود ؟ أي أبناء يعقوب مات ولم يترك نسلًا ؟ التوراة ذاتها تشير في خفاء إلى ذلك ، فعند اختيار النقباء الممثلين لبني إسرائيل تجعل التوراة ليوسف نقيبين ، في إشارة إلى أن النقباء الاثني عشر يمثلون إحدى عشرة قبيلة ، وأن يوسف أصبح ينوب عن القبيلة المفقودة ، فأصبح له نقيبان بدلاً من نقيب واحد ، نقيب يمثل قبيلته ، وآخر مكان أخيه الذي مات دون أن يعقب .

إذن من السهولة أن نعرف الفقيد الذي مات ولم يترك نسلًا ، وذلك باستعراض باقي النقباء ، إذ لن يكون هناك نقيب يمثله ، العجيب أننا نجد واحداً نتق أنه لم يميت ، وأنه أنجب ، لأن من أولاده : موسى ، هارون ، مريام .. وهذا يعني أنه ليس الفقيد الحقيقي . أما القرآن الكريم فيقدم لنا الابن الذي مات ليعقوب دون أن يترك ذرية ، إنه يوسف عليه السلام .

في البداية يجب أن نعلم أن الولي هو ابن الإنسان بدليل دعوة زكريا عليه السلام من ربه للابن ، استعمل لفظة (وَلِيًّا) :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتْ أَمْرًا نِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ ﴾ (مريم) .

أما في الآخرة فالله ولي الذين آمنوا ، وفي ختام سورة يوسف دعاء الوفاة بدليل قوله (توفني) : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّني مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ (يوسف) .

في هذا الدعاء الأخير يقول يوسف لربه Y : (أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) ، والله وليه في الآخرة ، فدلّت لفظة في الدنيا أن ليس له ولد . وأنه لم ينبج خلاف كل ما يشاع عنه . ولذلك جعل

الله وليه في الدنيا حيث لا ولي له ف يالدنيا ، وابن الرجل هو وليه بدليل دعوة زكريا عليه السلام في طلب الولد ، كان يطلب وليا يرثه .

ويدعم هذا الرأي الذي وفقنا الله تعالى إليه قوله تعالى في سورة غافر عن يوسف :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ ﴾ (٣٤) (غافر).

فقوله عن يوسف عليه السلام هلك ، هي قوله موجعة إن فهمنا أنه من الهالكين ، فالقرآن لم يصف أحداً بالهلاك إلا من غضب عليهم ، وحاشا لله أن يكون يوسف منهم . لكن المقصود بقوله (حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ) أنه مات دون أن يترك نسلًا ، وقد استعملها القرآن في آية الكلاله عن الرجل الذي لم يترك نسلًا ، فقال :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنَّ أُمْرَأًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (١٧١) (النساء) .

فقد قال (إِنَّ أُمْرَأًا هَلَكَ) ثم أعطى تعريفها أي (لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ) . وانظر المطابقة بين اللفظين لتعرف وتؤكد أن يوسف عليه السلام مات دون ذرية وليس كما يزعم العهد القديم .

حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ يوسف عليه السلام أي مات وليس له ولد .

إِنَّ أُمْرَأًا هَلَكَ أي إنسان أي مات وليس له ولد .

وإذن فيوسف هو الفرع اليعقوبي الذي مات دون أن يترك عقبًا ، وهنا قطعهم الله تقطيعاً جديداً ليجعلهم اثنتي عشرة قبيلة ، فوضع بديلاً ليوسف واحداً منهم يكون له نصيبان ، ولا يوجد سوى لاوي ، الذي منه النسل الهاروني الذي يقوم بالكهنوت يكون فرعاً وباقي أبناء لاوي فرعاً آخر . وبذلك تكون التوراة بدلت فحسب تقسيم النقباء ، فجعلت ليوسف نقيبين ، وأسقطت لاوي ، والعكس هو الصحيح ، لاوي له نقيبان ، ويوسف ليس له أحد . لأنه بلا نسل ، أما أخوه لاوي (من نسله موسى ، هارون) فقد انقسم قسمين أحدهما يقوم بالكهنة وهو فرع هارون . والقسم الثاني سائر أبناء لاوي .

والفعل (قطع) يقتضى أن نقول: أي قطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، أي قطعناهم قطعاً يصل عددها إلى اثنتي عشرة . ولأن فعل الله لا يجوز عليه التعديل ، فتقطع الله لهم إلى

هذا العدد لا يجوز لهم أن يعدلوه . فهو تقطيع إلهي ، وليس تقسيماً وراثياً توارثوه بصفتهم أبناءً ليعقوب عليه السلام ، وإن كانوا كذلك ، فأين التقطيع ، وقد كانوا وإذن فالتقطيع لم يكن تقسيماً وراثياً بعدد أبناء يعقوب ، وإلا ما صلحت لفظة (وَقَطَّعَهُمْ) لأن هذا هو حالهم قبل التقطيع . فقوله قطعناهم يعني أن لأحدهم أكثر من قسم .

٢. سر العدول عن المفرد إلى الجمع :

ويقول ابن هشام أن كلمة أسباطا : بدل من العدد (اثنتي عشرة) والتمييز محذوف ، أى اثنتي عشرة فرقة . أو قبيلة أى قطعناهم اثنتي عشرة أمة ، وحذفت كلمة أمة ^(١) . فالتمييز - إذن محذوف . وتقديره أمة أو قبيلة ، ويكون المعنى وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة ، كل قبيلة من نسل رجل أسباطاً أمماً .

ومع موافقتي على أن التمييز محذوف إلا أن مذهبي في حذف التمييز يقتضى مباشرة أن ينتقل قبل العدد ويكون التقدير : قطعناهم قطعاً اثني عشر ، وبذلك لا يكون قطعة ، لكن جمعاً (قطعاً) ، وبانتقال التمييز قبل العدد فإنه يسمح للعدد أن يغلق عليه ، ويتقيد هذا المعدود بهذا العدد تحديداً في نوع من أنواع القصر . وهذا القصر الذي يتم بتقديم المعدود على العدد ؛ ليمنعهم من العبث بهذا العدد . ولذلك لما عجزوا أن يغيروا في العدد لأن تلك مشيئة الله ، في الاختصار على هذا العدد ، أخذوا يغيرون دون المساس بالعدد .

وبذلك يستريح أهل اللغة من لفظة (أَسْبَاطاً) التي جاءت جمعاً بعد العدد (اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ) الذي لابد أن يكون تمييزه مفرداً ، فمن الواضح أنها ليست تمييزها لأنها جمع ، ولأنها مذكرة . ومن ثم فالتمييز محذوف ، وحذفه يعني وجوده قبل العدد : والحذف لإحداث الاختصار اللازم ، في أن الله قطعهم إلى هذا العدد فلا يمكن لقوة في الأرض أن تغير ما فعله الله **Y** . والتقدير : قطعناها قطعاً اثنتي عشرة أسباطاً أمماً . فأما العدد فقد حل محل المفعول الثاني . أما أسباطاً فبدل من العدد ، وأمماً نعت للأسباط . والخلاصة لقد قطع الله **Y** بني إسرائيل عند خروجهم من مصر إلى اثنتي عشرة فرقة ، وهذا التقسيم ليس مصدره فروع يعقوب الاثني عشر ، بل مصدره الله ، وقد ردهم ثانية إلى اثنتي عشرة قبيلة يجعل لاوي له نصيبان ليعوض من هلك ولم يترك ذرية وهو يوسف عليه السلام .

(١) ينظر : ابن النحاس ، إعراب القرآن ، ص ٣٥٨ ، مكى بن أبي طالب القيسي ، مشكل إعراب القرآن ص ٢٠٠ .

ـ أسباطاً بالتنكير :

يقول ابن عاشور أن القرآن عدل عن جعل أحد الحالين تمييزاً للتنبيه على قصد المنة بكونهم أمماً من آباء أخوة ، وأن كل سبط من أولئك قد صار أمة . بعد أن كانوا قليلاً فكثرهم الله ^(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن لفظ أسباط هذه بالتنكير لا علاقة لها بالأسباط التي جاءت بالتعريف في قوله تعالى :

﴿ قُلُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣) (البقرة) .

﴿ أَمْرُ نَفُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤) (البقرة) .

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٤) (آل عمران) .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٣) (النساء) .

فالأسباط بالتعريف ليسوا أبناء يعقوب ، لأن الأسباط المعرفة أنبياء أنزل إليها وحي أو كتب ، ، ففي الآيات السابقة جاءت كلمة (وَالْأَسْبَاطِ) معرفة ، وقد قصد بها أعلام تم الوحي إليهم . والسبط هو الحفيد (ولد الولد بوصفه امتداد الفروع) نميل أنها غير محددة العدد ، فلا يقصد بها اثني عشر سبطاً ، وعندما أراد أبناء يعقوب الاثني عشر ذكر عددهم قبل كلمة أسباط ،

• كلمة الأسباط تعني الأنبياء ما بين (يعقوب إلى محمد) :

• الأسباط كلمة تدل على جميع الأنبياء أحفاد إسحاق ، فالسبط هو الحفيد ، لقد أعطى إبراهيم ^a إسماعيل وإسحاق ويعقوب فقد بُشِّرَ بعد إسماعيل بإسحاق ويعقوب . وقد تفرع إبراهيم فرعين إسماعيل وقد ادخر له في ذريته محمداً ، وإسحاق وقد أعطى سلسلة الأنبياء حتى عيسى

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الجزء التاسع ، ص ١٤٣ .

عليه السلام . فلو جعلنا الأسباط هم أحفاد إسحاق . باعتبار أن يعقوب كان تبشيراً لإبراهيم وليس له . سنرى أن الآية الآتية جامعة لكل الأنبياء من بنى إسرائيل ، مجموعة إبراهيم (إِبْرَاهِيمَ - وَإِسْمَاعِيلَ - وَإِسْحَاقَ - وَيَعْقُوبَ وقد ذكرهم مفصلين) ثم أحفاد إسحاق (وَالْأَسْبَاطَ) وهم أبناء يعقوب أى أنبياء بنى إسرائيل (ذرية يعقوب) .

﴿ أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ (البقرة) .

ومحمد خارج مجموع الأسباط لأنه محور القضية ، فهو يدعوهم إلى الإسلام وهم يتمسكون باليهودية والنصرانية ، فيقول لهم : لماذا لا تجيبونه إلى دعوته لكم بالإسلام هل كان كل الأنبياء السابقين قبله بدءاً من إبراهيم a كانوا هوداً أو نصارى ؟ ما كانوا كذلك ، وكذلك هذا النبی .

• فالكلمة لا تعنى أبناء يعقوب الاثنى عشر ، بل أسباط إسحاق ، وإذ كان إبراهيم a هو أبو الأنبياء ، وكل الأنبياء من نسله ، فأسباط إبراهيم a تعنى جميع الأنبياء ، بما فيهم محمد S ، وأسباط إسماعيل : محمد وحده ، وأسباط إسحاق تعنى جميع الأنبياء ما عدا يعقوب ، محمد S ، ولهذا يذكر يعقوب قبلها ، ويخاطب النبي S ، فإذن كلمة الأسباط لا تشملهما والخطاب موجه للنبي S :

﴿ قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة) .

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران) .

الكلمة إذن تعنى كل أنبياء الله جميعاً ما بين يعقوب ومحمد ، وكلهم من سبط إسحاق ، ويكون المعنى : قل يا محمد آمنا بالله ، وما أنزل على كل الأنبياء من إبراهيم a حتى آخر نبي قبلك . أما قوله (مُوسَى وَعِيسَى) فهو يقصد أنهما أعطيا بصفة خاصة من بين الأسباط بالكتب (التوراة والإنجيل) أما لفظة (وَالنَّبِيُّونَ) فيقصد بها الأنبياء من نسل نوح ، فقد كانت النبوة في نسل نوح حتى جاء إبراهيم فانتقلت النبوة في نسله :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٣٦) (الحديد).

أما آية النساء (١٦٣) التي جاء فيها أسماء عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٣) (النساء).

ونرى أن إعراب وعيسى هي مفعول به تقديره وأخص ، لكنهم جميعاً من أسباط إسحاق ، وكلها كلمات ممنوعة من الصرف مما يدل أن لا أحد منهم من العرب .

• الأسباط المعرفة إذن تدل على الأنبياء الموحى إليهم من أحفاد إسحاق ، ولم يرد قبلها عدد . فهم ليسوا اثني عشر ، وعندما جاءت نكرة ذكر العدد قبلها :

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمًّا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضُرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٦٠) (الأعراف).

• في الآية الأخيرة ، جاءت كلمة (أسباط) نكرة ، وهو يقصد به قبيلة ، أى قطعناهم اثني عشرة قبيلة ، كل قبيلة من نسل رجل أسباطاً أمماً .

• من غير المقبول أن يكون أبناء يعقوب (١٢) كلهم أنبياء ، ويكفى محاولتهم قتل يوسف والتخلص منه ، وحسدهم له . ووصفهم أباهم بأنه في ضلال مبین ، وكذبهم على أبيهم عندما جاءوا عشاء ليكون يزعمون أن الذئب قد أكل يوسف :

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) (يوسف).

كل هذا ينفي العصمة ، لا نجردهم من الصلاح ، لكن لا يمكن القول أنهم أنبياء . ولا نأخذ بما قالته التوراة عن اعتداء رابين على زوجة أبيه ، وإنجاب يهوذا من زوجة ابنه ^(١) .

(١) جاء في سفر التكوين ، الإصحاح ٣٥ ما نصه : (٢٢) وَحَدَّثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ أَنَّ رَأُوْبِيَّتَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَ سُرِّيَةِ أَبِيهِ . وذكر سفر التكوين قصة اعتداء يهوذا على كخته زوجة ابنه وحملها منها بتوأمين هما نسل يهوذا .

• من غير المبرر أن يكون في وقت واحد أكثر من اثني عشر نبياً ، فالنبي لا يرسل إلى نفسه ، وكيف يكون ثمة اثنا عشر نبياً ومعهم أبوهم أى ثلاثة عشر نبياً لعائلة لا يتجاوز عددها سبعين فرداً .

• ولماذا نهى يعقوب ابنه يوسف أن يقص رؤياه على أخوته ، أليس خوفاً أن يحسدوه لأنه أصبح وحده دون سائر أخوته هو النبي ؟؟ ولهذا نرى أن من المستحيل أن يبعث الله ثلاثة عشر نبياً في وقت واحد وفي مكان واحد ، يكفي أن يكون يعقوب ويوسف . لأنهما سيكونان في مكانين ، وكذلك كان موسى وهارون لأن هذا تم بطلب موسى ، ولأن هارون سيخلفه عند غيابه .

• والخلاصة أن الأسباط الموحى إليهم لا يقصد بها أبناء يعقوب بسبب :

١- انعدام العصمة .

٢- عدم الحاجة لكل هذا العدد من الأنبياء في مكان واحد وزمن واحد ، وقلة الشعب المبعوث إليه .

٣- كلمة سبط تعنى ولد الولد ، فهي لغويا لا تعنى أبناء يعقوب .

الرأى عندنا أن كلمة الأسباط تشمل كافة الأنبياء بين يعقوب ومحمد ، وهم حفدة إسحاق ، وبذلك تكون الآية الأولى شاملة جامعة مانعة :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة) .

يقصد كل ما أنزله الله .

• الإعراب لأمم نعت أو بدل ، وهى مؤنثة مما يقرر أن أسباط في معنى المؤنث.

• وقطعناهم أسباطاً أمما : إن التقطيع ينصب لبيان كيف لا العدد ، ثم لا مانع من إرفاق العدد مع تقدير فعل لأحدهما . فتقول قطعناهم اثنتي عشرة ، قطعناهم أسباطاً أمماً ، أو تعرب أسباطاً مفعولاً للفعل الأول ، وتقدر فعلاً لاثنتي عشرة .

• ويجمع التعبير القرآني المعجز بيان العدد والكيف ، مع الاختصار على فعل واحد ، ولو

جاءت العبارة كما أرادوا (قطعناهم اثني عشر سبطاً لكانت ركيكة لا تعني شيئاً ، فالفعل لا يكون مطلوباً ، فهم دون تقطيع هكذا ، ولا حاجة إلى تشديده ، لأن التشديد يقتضى التأكيد وهنا العدد مقنن ، فضلاً عن عدم الحاجة للكلمة (أمما) لأنها لن تصلح نعتاً للمفرد (سبطاً) ، وبذلك لو جعلنا العبارة كما يريدون ، فلا حاجة لوجودها .

• لكن المعنى المقصود هو وصف مستقبلي لهذا الشعب ، وما سيؤول إليه كما وكيفاً ، فالكم (اثنتي عشرة قبيلة) والكيف : تقطيع أي أن يذهب كل منهم في اتجاه ، واستخدم التشديد في الفعل لإمعان التفريق . واستخدم الأسباط جمعاً لأن كل قبيلة فيها أسباط كثيرة (جماعة كثيرة العدد) فالأسباط هنا بمعنى جماعات ، ولعل هذا ما جعل (أمما تأتي وصفاً لها) . فالوصف بالمؤنث يعني أن الموصوف أيضاً مؤنث .

واستخدم الأمم جمعاً : لأن كل واحدة منها كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى ، لا تكاد تأتلف كما يقول الزمخشري .





الفصل الثاني



التميز

الفصل الثاني

التمييز

تمهيد :

يتناول هذا الفصل التمييز ، وهو الذي يأتي بعد العدد .. وقاعدة التمييز نحويًا :

- في الإعراب : مجرور إلا إذا جاء بعد الأعداد من (١١ - ٩٩) فيكون منصوباً .
- في العدد : جمع إذا جاء بعد الإعداد من ثلاثة إلى عشرة ، فإذا زاد العدد عن عشرة التزم التمييز الإفراد .

وهذا الفصل يتناول التمييز من خلال ثلاثة مباحث :

✽ المبحث الأول ويتناول اختلاف التمييز للعدد الواحد ، كما قال سبع سنابل ، وسبع سنبلات ، وهذا المبحث يقع في خمسة أمثلة .

✽ والمبحث الثاني يتناول التمييز المجرور بمن ، مثل قوله تعالى : فخذ أربعة من الطير . ويقع في ستة أمثلة .

✽ والمبحث الثالث : يتناول احتجاب التمييز مثل قوله تعالى : من يمشى على أربع ، ويقع في عشرين مثلاً ، لتكتمل مباحث الفصل التي تناولت أربعة وثلاثين مثلاً .

المبحث الأول : اختلاف التمييز:

إذا كنت تتحدث عن مدة لشيء واحد هو عدة المطلقة مثلاً : فقد تقول : ثلاثة أشهر ، لكن ماذا لو استخدم القرآن الكريم في موضع آخر عن المدة نفسها : عدة المطلقة تمييزاً آخر للعدد ثلاثة بعيداً عن كلمة أشهر المستعملة قبلاً . هذه المغايرة في التمييز أي استخدام تمييزين مختلفة لنفس العدد تكشف أن كل منهما لا يصلح أن يسد محله الآخر .

وكذلك عندما يكون للكلمة الواحدة أكثر من جمع ، ثم يستخدم كلا الجمعين تمييزاً ، فلا يمكن أن يكون كل من التمييزين مساوياً للآخر . يتناول هذا المبحث اختلاف التمييز للعدد الواحد ، وهو يقع في ثمانية أمثلة هي :

- ١- استخدام لفظتي (قروء ، أشهر) بعد العدد ثلاثة في عدة المطلقة .
- ٢- استخدام لفظتي (سنابل ، سنبلات) بعد العدد سبعة .
- ٣- ثلاث عورات ، ثلاث مرات . في التعبير عن أوقات الاستئذان على الأبوين .
- ٤- المغايرة بين السنة والعام في قوله تعالى : (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) .
- ٥- آية زكريا في الامتناع عن كلام الناس : ثلاثة أيام ، ثلاثة ليال .
- ٦- أربع شهداء ، أربع شهادات .
- ٧- رهط ، رجال .
- ٨- حجج ، سنين .

المثال الأول | قروء : أشهر :

الحكم الشرعي عند الطلاق أن تنتظر المرأة قبل الزواج بآخر حتى يتم استبراء رحمها . لكن الشرع يفرق بين نوعين من النساء ، المرأة التي يأسست من الحيض ، والتي مازال تحيض . فيعطي كل واحدة منهما حكماً يختلف عن الآخر ، توضحها المغايرة الآتية :

[الطلاق]	ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ	{ وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ } إِنْ أَرْبَتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ	①
[البقرة]	ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ	{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ }	②

الصورة الأولى ① : {ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} : في نص سورة الطلاق استخدم القرآن الكريم لفظة قروء ابتغاء براءة الرحم ، لأن الحيض يكشف ذلك ، أما اللاتي (يَبْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ) فلا يعلم متى حاضت ، لذلك عدل القرآن عن لفظة قروء إلى لفظة (أَشْهُرٍ) ، واستخدم لفظة أشهر لأن الثلاثة من أعداد القلة ، ولو زاد العدد عن عشرة لاستخدم الجمع (شهور) .

الصورة الثانية ② {ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ} : يتحدث هذا النص عن عدة المطلقة ، وقد استخدم لفظة (بِأَنْفُسِهِنَّ) وهي ليست تأكيداً لأن تأكيد الضمير المرفوع بلفظة النفس يحتاج إلى ضمير فصل ، فيجب حتى تكون تأكيداً أن يكون القول (يتربصن هن بأنفسهن) وبذلك جعل النفس كأنها شخصية أخرى غيرها ، وعلى المطلقة أن تتعامل مع نفسها كأنها غريب عنها تخوض معركة ضده ، فالنفس مندفعَةٌ تشوق إلى زوج لأنها تحس بأهانة شديدة في تطليقها ، فترغب في التواللحظة في آخر مثلما هو يمكنه كذلك ، لذلك استعمل القرآن الفعل (يَرْبِصْنَ) ليحمل المطلقة على مقاومة هواها ، وكأنها نفسها جواد مندفع ، وعليها أن تقمعه ، وتروضه حتى

تنقضى مدة العدة .

والأصل في القرء أن يطلق على الوقت المعين ، لذلك اختلفوا في المقصود منه : هل هو الحيض أو الطهر .. ؟ فمال ابن عمر وزيد بن ثابت وعائشة وذهب معهم الشافعية إلى أن المقصود انقضاء ثلاثة أطهار ، ودليلهم : أن الجمع جاء على وزن فاعول وهو جمع خاص بمعنى الطهر ، ولو كان بمعنى الحيض لجمعه على أفعال . والطهر مذكر وتأنيث العدد يدل على أن المقصود مذكر ، والدليل الثالث أن القرء هو التجمع ، والدم يتجمع في البدن أثناء الطهر .

ومال عمر وعلى وابن مسعود ومعهم الحنفية إلى أن المطلقة تعدد بأيام حيضها ، فإن مر عليها ثلاث دورات من الحيض تنتهي عدتها ، ودليلهم أن قولهم أقرأت المرأة يعني حاضت ، القرء في الحيض حقيقة ، لكنه مجاز في الطهر .

والرأي الثاني (ثلاث حيضات) أرجح :

١. لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المستحاضة تدع الصلاة أيام أقرائها ، وقوله : طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان .

٢. لو طلقها وقد مضى بعض الطهر ، فلم يستوف العدد استيفاء كاملاً .

٣. قوله تعالى : فطلقوهن لعدتهن : يستلزم أن يكون المقصود الحيض لتبدأ عدتها بعد الحيضات ، لكن لو كان المقصود الطهر ، فهذا يعني أنها بدأت العدة قبل الطلاق^(١)

والعدد المستعمل (ثَلَاثَةً) وقد جاء على أصل بنائه بالتاء ، ليفيد أنه مستعمل مع الأصل في النوعين وهو المذكر ، والتمييز هو القرء . ولم يقل القرآن ثلاثة أشهر ، لأن المنشود طهارة الرحم ، والقرء دليل على ذلك ، فقد يحدث الحيض لها بعد

(١) عبد القادر عبد الرحمن السعدي . أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية . دار عمار عمان . الطبعة الأولى . ٢٠٠٠ . ص ٢٨٦ .

الطلاق مباشرة فيحتسب واحداً من القروء . دون أن يمض شهر ، فثلاثة أشهر تعنى تسعين يوماً ، أما ثلاثة قروء فقد تعنى شهرين وبضعة أيام .



وثمة طلاق آخر أوقفه الإسلام ، هو الإيلاء .. فقد كان طلاقاً دون طلاق ، بل أن الطلاق أشد رحمة منه ، لأن للمرأة المطلقة عدة يمكنها أن تتطلق بعدها إلى زواج جديد . وهنا وضع للإيلاء أجل ليوقف هذا الطلاق الزائف ..

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة) .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة) .

كانوا يحلفون على ترك وطء المرأة ، وهذا الحلف يسمى إيلاءً ، وكان الإيلاء بذلك نوعاً من الطلاق يضر المرأة في الجاهلية ، فقد كان الرجل لا يحب امرأته ، ولا يريد أن تتزوج غيره ، فيحلف أن لا يقربها أبداً فتبقى لا أيماً ، ولا ذات بعل . وقد جاء النص على شكل جواب لسؤال : إذا كان الإيلاء إيذاء للمرأة في الجاهلية ، فما حكمه في الإسلام ؟

فكان الجواب : إن من يفعل ذلك ، فليس له أن يظل هكذا إلى ما لانهاية ، يترك المرأة معلقة ، فمدته التي لا يزيد عنها هي أربعة أشهر . وبذلك أصبح للإيلاء أجل لا يزيد عن أربعة أشهر . وقال ابن عباس : لا إيلاء إلا بغضب . فإن كان إيلاء الرجل بالآ يقرب امرأته حتى تقطم ولده يهدف من ذلك صلاح ولده فلا إيلاء عليه . قال علي بن أبي طالب : إنما الإيلاء ما أريد به الإيلاء . والإيلاء : كل يمين منعت جماعاً ، وجاء الإسلام فوضع له حداً لا يزيد عليه ، فعليه بعد انقضاء أربعة أشهر أحد أمرين : الفئدة (الجماع) أو الطلاق .

• إذا جامع امرأته قبل انقضاء الأشهر الأربعة : فعليه كفارة يمين . لأنه بذلك ليس مؤثماً ، لكنه حالف حنث في يمينه ، وإذا جامعها عند انقضاء الأشهر الأربعة : فلا كفارة عليه . وإذا زاد عن ذلك : فيجب الطلاق .

وقد استخدمت الآية لفظة (تَرْبُصُ) التي تعني انتظار مع الصبر عليه ، واللفظة مقلوب

الصبر ، أى الانتظار عن شيء مع ترقب انتهائه . والتربص : انتظار على ما يكره من منعه ما يريد من إيذاء للمرأة .

١- لو كان القسم أقل من أربعة أشهر : فهو ليس مؤلياً ، وإنما هو حالف ، وعليه الالتزام بالمدة التى أقسم عليها . ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبتة بالفيئة في هذه المدة . كما حدث مع رسول الله عندما آلى من نسائه شهراً ، فنزل لتسع وعشرين ، وقال : « الشهر تسع وعشرون » .

٢- لو كان القسم أكثر من أربعة أشهر ، فعليه الانتظار حتى تتقضى أربعة أشهر ، وعليه أن يجامع ، أو يطلق . فإذا جامع فقد حنث في يمينه ، وقد أنعم الله عليه بالغفران في ذلك .

العدد المستعمل هو (أَرْبَعَةٌ) وهو على أصل بنائه بالتاء أي خاص بالذكر الذي يختص بأصل البناء ليناسب الأشهر المذكورة . وجاءت (أَشْهُرٌ) لم يقل شهور ، لأن الشهور جمع كثرة يستخدم للعدد الذى يزيد عن عشرة ، والأشهر جمع قلة يستخدم للجمع دون العشرة .

أما سر اختيار هذا العدد (أَرْبَعَةٌ) فلأنه غاية انتظار المرأة أي المدة التى تصبر فيها المرأة عن زوجها ، بعدها يحدث إضرار بالمرأة ، لهذا وقت الله تلك المدة ليمنع الضرر عن المرأة . وقد اختير التأديب للمرأة بأربعة أشهر : لأن المرأة ينفذ صبرها في أربعة أشهر ، كما قالت ابنة عمر لأبيها عندما سألتها عن مقدار صبر المرأة على مغيب زوجها ، فقالت : شهرين ويقل في ثلاثة ، وينفذ في أربعة . وهنا سن عمر بن الخطاب مدة غزو الرجل أربعة أشهر ، فإذا مضت استرد الجنود . وأرسل غيرهم .



المثال الثاني | سنبلك : سنابل :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة) .

• ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَدَتِ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُ لِرَأْيِكَ بِعَبْرُونَ﴾ (يوسف) .

{ ٤٣ }	سُنْبُلَاتٍ	{ وَسَبْعَ } ①
{ ٦١ }	سَنَابِلٍ	{ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ } ②

الصورة الأول ①-: { سُنْبُلَاتٍ } : يتحدث استعمال الجمع السالم (بالألف والتاء) الذي يفيد القلة ، لأنه قد رأى عددا محدداً في الحلم ، فهو عدد مجرد مقنن ، لن يتنامى لأنه يرمز به إلى عدد ثابت من السنين . والعدد سبعة قليل . ولو استخدم جمع الكثرة وهو لا يريد سوى السبع لحدث تناقض بين المستعمل والمقصود ، ولأن المقصود قليل فلا تناقض بين استعماله لجمع يوحي بالقلة ومقصود قليل .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَدَتِ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُ لِرَأْيِكَ بِعَبْرُونَ﴾ (يوسف)

جاء الجمع جمعاً سالماً ، وهو يفيد القلة ، لأن العدد مقنن لا يزيد أو يتكاثر .. فهو سبع ، غير قابلة للزيادة ، والسبع قليلة تناسبها جمع القلة ، فالمقام لا يحتاج الكثير ، بل يقتضي التقرير ، فهو يقرر أن الشيء يأكل مثله ، ولما كان العدد هو سبعة ، وهو عدد قليل ، لم يشأ أن يأتي بجمع الكثرة ، بل العدد قليل والجمع قليل .

إن مصر سيمر عليها سبع سنين عجاف بعد سبع سنين خضر .. فالأمر محدد لا يحتاج إلى مبالغة ، فاكتفى بالتقرير ، وكان منطقياً أن يكون التمييز مطابقاً

باستخدام جمع قلة مع عدد يفيد القلة. (فالتمييز يأتي جمع كثرة لو كان العدد كثيراً ، أو يأتي جمع قلة لو كان العدد قليلاً) ولما كان العدد (سبعة) قليلاً التزم بجمع القلة ”سنبلات“ الذي يستخدم إذا كان العدد أقل من عشرة .

الصورة الثاني ٢- { سَنَابِلُ } : الآية تتحدث عن مثل يضربه الله ، وقد استخدم لفظة التشبيه (مَثَلٌ) فتح الميم لأنه سيقدم صورة مشابهة لا مطابقة . والحديث عمن ينفق في سبيل الله ، فنفقته يضاعفها الله سبعمائة ضعف ، وقد أتى بجمع تكسير (الذي يفيد الكثرة : سَنَابِلُ) لأن السياق موضع تكثير ، إذ لا يقصد العدد محدداً ، بل يقصد العدد متنامياً ، ليعبر عن الأجر ومضاعفته إلى سبعمائة ضعف ، فمال إلى الجمع الذي يوحي بالزيادة .

وبذلك يقدم القرآن الكريم يقدم نموذجاً مثالياً في التمييز بين جموع القلة والكثرة عند جمع كلمة واحدة بجمعين ، فعند جمع كلمة (سُنْبُلَةٌ) استخدم الجمع السالم الذي يفيد القلة : (سُنْبُلَاتٍ) عند قصد العدد المحدد الذي لا يتزائد وذلك في حلم الملك الذي فسره له يوسف عليه السلام . ثم لما أراد الله الإغراء بالإنفاق والوعد بمضاعفة الأجر جاء بجمع الكثرة (سَنَابِلُ) لبيان استجابة المضاعفة للتكثير في مجال الإغراء بالإنفاق، والوعد بمضاعفة الأجر.

سُنْبُلَاتٍ	جمع قلة	ناسب العدد القليل (ماتحت العشرة) فدلت على محدودية العدد .
سَنَابِلُ	جمع يفيد الكثرة	ليضفى قابلية التكاثر فدلت على تنامي العدد .



المثال الثالث | مرآة : عوارض :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِزَّزْنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَھُنَّ طَوُّفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ ﴾ (النور) .

الخطاب للذين آمنوا .. وتعبير (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) هو تعبير زمني يرتبط بعصره ، فهو صالح للنداء . فإن صدر هذا النداء مثلاً من النبي S لأصحابه ، فالأمر لا يتجاوزهم إلى عصور تالية ، أما لو صدر الأمر من رب العزة ، فهو خطاب لكل العصور لكن كل عصر على حده . اقرأوا معي هذه الآيات من سورة النور ^(١) :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۚ ﴾ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۚ ﴾ (٢٩) قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۚ ﴾ (٣٠) (النور) .

نجد رب العزة يوجه أوامره بقوله (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) للذين آمنوا ليتبعوها جيلاً بعد كل ؛ فيقول لهم : (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) ، (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ) ، (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا) ، (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ) ، فلما وصل النقطة شاء أن يجنبهم موقف الاستحياء فيها وهي غض البصر وحفظ الفرج ، أمر نبيه أن يبلغهم بها ، وهنا عدل القرآن عن قوله (الَّذِينَ ءَامَنُوا) لأنه لو قال له قل للذين آمنوا لانحصر الأمر في المعاصرين للنبي S ، ولذلك قال له (قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) ولأن لفظة المؤمنين لفظة شاملة

(١) سورة النور . الآيات من ٢٧ - ٣١ . ونصها : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۚ ﴾ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۚ ﴾ (٢٩) قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۚ ﴾ (٣٠)

فالقول موروث ، على كل من ينطبق عليه هذا الاسم من الأزمان التالية الطاعة ، وكأن أحداً أبلفهم بأن الرسول يريد منهم كذا ، لكن لأن الرسول محدود بزمنه لا يمكنه أمر من لم يتواجد في عصره .

أما الله Y فهي الحي الذي لا يموت ، خالق الزمن ، فقولته الزمنية المرتبطة بعصرها فحسب (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) صالحة منه لتشمل الجميع ، فالقائل مسيطر على الزمن ، فقولته متفرعة لكل الأزمان ، ما من جيل يأتي إلا ويجد القولة في انتظاره ، فهو خطاب متجدد بتجدد الأزمان .

وفي آيات الاستئذان على الأبوين في خلوتهما ، يبين الله Y للذين آمنوا أن يحددوا ثلاثة أوقات من اليوم لا يدخل عليهم :

• الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم .

• العبيد والإماء الذين يملكهم الرجل ويخدمونه في بيته .

لا يدخلون إلا باستئذان ، وهذه الأوقات هي :

• مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ . • وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ . • وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ .

وللمذكورين أن يدخلوا في غير هذه الأوقات بغير إذن . أما إذا كبر الطفل وبلغ الحلم ، فعليه الاستئذان دوماً .

وقد وجه الله Y الأمر لأولياء المأمورين ليعلموهم آداب البيوت ، وهي تعليم للأولياء عن الأوقات التي يجب عليهم فيها الجماع أو التعري ، فالاستئذان لمنع الاطلاع على عورة ولي البيت . وقد روي أن عمر بن الخطاب كان في منزله وقت القائلة فأنفذ إليه رسول الله S بصبي من أولاد الأنصار يقال له مدلج فدخل على عمر بغير إذن وكان نائماً فاستيقظ عمر بسرعة فانكشف شيء من جسده فنظر إليه الغلام فحزن عمر فقال : وددت لو أن الله بفضله نهى أبناءنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا ياذننا ثم انطلق إلى النبي S فوجد هذه الآية قد أنزلت فخرّ ساجداً شاكراً لله ^(١) .

(١) الواحدي النيسابوري . أسباب النزول . سورة . الجزء الأول . ص ٢٢٢ .

وقد ذكر الله تعالى (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، ثم بعد أن عددها أشار إليها بأنها (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) والقرآن في هذا الموقف يعلمنا التوصيف الصحيح للفرق بين ذكر التمييز صريحاً وبين ذكر لفظة مرات مكانه ، أما العدد فكان (ثَلَاثَ) الحاجة إليه ، فذلك أوقات التجرد من الثياب ، و خلوة الرجل إلى زوجته ، يميل فيها الإنسان إلى النوم ، فيضع ثيابه ، وهذه الأوقات هي : ١- مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ٢- وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ

٣- وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ .

وقد سماها رب العزة عورات ، لأن الإنسان يكون فيها عاجزاً ، ولا يستر ما يجب ستره .

{ ٥٨ }	ثَلَاثَ مَرَّاتٍ	{ 1 }
{ ٥٨ }	ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ	{ 2 }

الصورة الأولى ١-ي : { ثَلَاثَ مَرَّاتٍ } : هذا النص القرآني يكشف الفارق في الاستعمال بين مرات ، عورات ، فالمرات عند التعاقب ، والتمييز عند الجمع . المرات لأنه يتحدث عن الاستئذان ، ولا يمكن جمع الاستئذانات إلى جوار بعضها ، أى لن يأت الولد ليستأذن الثلاث مرات مرة واحدة ، فلو استأذن الآن حتى لو استأذن ثلاثاً فهي مرة واحدة . فكل زمن مرتبط بواحدة ، بمعنى لا يجوز أن يستأذن الظهيرة اثنتين ، وبعد العشاء يدخل دون استئذان بحجة أنه حصل على الإذن ظهراً .. لا ، الإذن مرتبط بلحظته .

الصورة الثاني ٢-ة : { ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ } : جمع عورة ، والعورة سواة الإنسان . وأصلها من العار ، لأن ظهورها يؤدي إلى العار والمذمة . فهي ما يستحي الإنسان من كشفه . لم يقل مرات ، لأنه يمكنه الجمع بينهم في الحكم عليهم ، أما الحدث المرتبط بزمنه أو بلحظته ، فلا يمكن الجمع بينها مثلما لا يمكن جمع زمنين في لحظة واحدة .

سمى الوقت عورة لتكرار احتياج الإنسان إلى الستر فيها ، وكل ما يستوجب الستر فهو عورة . فتكرار احتياج الإنسان إلى الستر في هذا الوقت أدى إلى أن تلازم التعور مع هذا

الوقت ، فكأنه توحد به ، فأصبح كأنه يكثر حدوث الشيء فيه كأنه هو نفسه ، وكما يسمى الزمان بأشهر أحداثه ، تقول شهر الصيام لأن الصيام يلزمه ، فبدوران الحدث في الزمن يتوحد الحدث مع الزمن . قال الزمخشري : وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة؛ لأن الناس يختلّ تسترهم وتحفظهم فيها . والعورة : الخلل . وقد أباح لهم ترك الاستئذان وراء هذه المرات .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب : ١٣)

وقد جاءت في القرآن ثلاث مرات لوصف :

١- البيوت التي يمكن اختراقها . (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ)

٢- الأوقات التي لا يجوز على الأبناء أن يدخلوا فيها على الأبوين (نصف النهار ، وآخر الليل ، وبعد العشاء الآخرة) .

٣- تحديد سن الذين لم يبلغوا الحلم فهم (لم يظهروا على عورات النساء) .

فالذي لم يبلغ الحلم لا يحرم على المرأة أن تظهر بزيبتها عليه .

حجب ألف الجمع (عَوْرَاتٍ) ، لأن المفردات متنوعة غير متساوية.



علمًا ،

سنة ،

المثال الرابع

﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (العنكبوت ١٤) .

النص يتحدث عن نوح عليه السلام ، والتعبير العادي أن يقال : فليت فيهم تسعمائة وخمسين سنة ، لكنه جمع بين السنة والعام .

1	{	أَلْفَ سَنَةٍ	{	العنكبوت [١٤]
2	{	خَمْسِينَ عَامًا	{	العنكبوت [١٤]

الصورة الأولى ١: { أَلْفَ سَنَةٍ } : يعبر عن المدة التي كابد فيها نوح عليه السلام مشقة دعوة قومه المعاندين ، وقد استخدم للتعبير عن تلك الفترة شديدة المعاناة بكلمة سنة بما تحمله تلك الكلمة من معاناة ومشقة ، وبذلك واكبت مشقتها معاناته من مقاومة قومه لدعوته .

الصورة الثانية ٢: { خَمْسِينَ عَامًا } : عدل القرآن عن لفظة سنة ، لأنه يتحدث عن مدة افتراضية لم يلبثها نوح في قومه ، وبذلك يفرق القرآن بين السنة والعام ، فالسنة هي ما تكابدها ، أما العام فهي المدة الافتراضية ، أي أنك تقول في نهاية سنة ، لقد كانت سنة صعبة ، والعام القادم سأتلافى أخطائي .

مما سبق نرى أن رسالة نوح كانت ألف سنة ، فلما ابتأس أن لا أحد لم يعد يؤمن ، أخبره الله أن من يؤمن قد آمن ، ولن يؤمن أحد بعد ذلك ، وكانت البعثة لم تنقض مدتها ، فهنا دعا نوح عليهم ، فلماذا يعيشون إذن مادام لا أمل في استجابة أحدهم ، فاستجاب الله له ،

وغلَّب دعاء نوح على القضاء المسجل ، لذلك عندما أبلغ عن مكوثه ذكر العدد الـ (ألف سنة) ليقرر أصل المدة ، ثم استثنى ولا استثناء إلا باقتطاع ، فاستثنى المدة التي لم تكمل بسبب الدعاء ، وغاير في التمييز لأن المدة التي لبثها في قومه مشقة فاستخدم لها تمييز يفيد المشقة (سَنَةً) ، والمدة المقطوعة من البعثة لم يعيشها مع قومه ، فليس فيها مشقة فاستخدم التمييز الذي يفيد عدم المشقة (عَامًا) .

فاستعمل لفظة (سَنَةً) في التعبير عن المدة التي قضاها مع قومه ، واستعمل لفظة (عَامًا) للتعبير عن المدة التي لم يقضها مع قومه . وهو تغاير مذهل بالعدول عن تمييز المدة المحذوفة لأنها مدة لم يلبثها مع قومه ، فاستخدم لفظ عام التي تقيد المدة الافتراضية للزمن أي الخالية من معاناة العيش .



المثال الخامس | آية : ليل :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (آل عمران) .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم) .

النص يتحدث عن زكريا عليه السلام وقد بشره الملاك بغلام فلما تعجب زكريا قائلاً (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) فجاءه الرد (كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) . وهنا قال زكريا (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) ، أي علامة ليطمئن قلبه ويتأكد أن الذي يخاطبه ملاك من عند الله ، وأنه ليس الشيطان يعبت به .

• لو قال : اجعل آية لي ، لصلحت أن تكون له ولغيره . لكنه يريد أن يختص نفسه بتلك الآية . فما الآية التي قليت له ؟ • أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا

• أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا

أَلَّا تُكَلِّمَ الامتناع عن الكلام جاء بأسلوبين ، مثبتاً عن طريق نقض النفي بإلا (إِلَّا رَمَزًا) ، ومنفياً . فالأول يمنعه عن الكلام المباشر مع الناس ، والثاني ظل على نفيه مصحوباً بالحال (سَوِيًّا) ليكشف أنه لا يتكلم عن عجز ، وإنه يملك القدرة على الكلام ، فلم تتعطل آلة الكلام ، لكنه لا تعمل إلا في التسبيح ، أما مع الناس فلا يستطيع ، وإن حاول .

النَّاسَ وقد استخدم الناس وهي كلمة عامة تصلح للإطلاق على أي عدد ، حتى المفرد . وهي تختلف عن كلمة أناس التي تعني مجموعات محددة ، كل مجموعة على حدة ، كفصول المدرسة ، فكل فصل منها أناس .

○ ثَلَاثَ لَيَالٍ :

- لم يقل : ليال ثلاث : لو قال ذلك لكان لا يوجد إلا تلك الليالى الثلاثة ، لكن لما كان سيقطع ثلاث ليال من مجموع ليال السنة كان لابد أن يأتى بالعدد أولاً .

{ ٤١ } [آل عمران]	ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ	{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ }	①
{ ١٠ } [مريم]	ثَلَاثَ لَيَالٍ	{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ }	②

الصورة الأولى ①: { ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } : نفهم أن عدم كلامه للناس يستمر ثلاثة أيام ، لكنه في هذا النص لم يحدد الليالى ، ومن ثم يمكن أن تكون ليلتين فحسب .

لماذا اختار الليالى في نص مريم : واختار الأيام في نص آل عمران ؟

فالإجابة لأنه في آل عمران كشف لنا أن الأمر كان بالنهار ، لذلك جاء فيها تحديد الأيام ، ليبدأ من يومه هذا ، والدليل على ذلك أنه قال بعدها (وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) وكان منطقياً أن يقول سبح بالإبكار والعشي للترتيب الزمني ، لكنه بدأ بالعشي لأنه قد فاتته الإبكار فهو أثناء النهار ، فلم يرد أن يفوته العشي لو قال له (وسبح بالإبكار والعشي) فهذه الإشارة تقرر أنه أثناء اليوم ، لذلك قال له (ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ) ليكون هذا اليوم من الأيام الثلاثة .

الصورة الثاني ②: { ثَلَاثَ لَيَالٍ } : النص السابق حدد أنها ثلاثة أيام ، فلو لم يأت هذا النص لفهمنا أنها ثلاثة أيام أما الليالى فقد تكون ثلاث ليال ، أو ليلتين ، فجاء هذا النص ليقرر أن المدة المحددة ثلاثة أيام بليالها . وهكذا لو لم يأت النص الأول لفهمنا أن الأيام ثلاثة والليالى متأرجحة بين ليلتين أو ثلاث . ولو لم يأت الثاني لفهمنا أن الليالى ثلاث والأيام متأرجحة بين اثنين أو ثلاثة ، فاحتاج كلا النصين إلى الآخر ليخرج المعنى المنشود وهى أن المدة المحددة له ثلاثة أيام بليالها .

أراد زكريا الآية ليشكر ربه ، فجاءت الآية متحدة مع علته ، يريد علامة ليشكر ، فالعلامة ذاتها إفصاح للشكر ، فلا يتكلم مع الناس ، ويظل مع الله يسبح . ولهذا نسبت الآية إليه . آيتك : هو نفسه ما تريد الآية من أجله .

○ سَوِيًّا : ولفظة (سَوِيًّا) في الآية الكريمة تعنى ألا يتكلم مع الناس برغم سلامته ، وقدرته على الكلام ، لكنه يمكنه أن ينطق بذكر الله .

○ رَمَزًا : بالإشارة ، ينعقد لسانه في هذه الأيام عن كلام الناس ، لكن ينساب مع تذكير الله وتسبيحه .

1	}	{ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ	سَوِيًّا	[مريم]
2	}	{ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ	إِلَّا رَمَزًا	[آل عمران]

الصورة الأول 1ى : {سَوِيًّا} : وجاءت كلمة سويًا : لتقرر أن زكريا كان قادراً على الكلام ، ولم يصب بأفة ، فهو ممنوع عن مخاطبة الناس تحديداً ، لكنه يمكنه الكلام بصوت تسبيحا لله وذكراً . لقد طلب زكريا الآية لأنه لا يدرى من الذى يخاطبه أهو ملاك من عند الله أم الشيطان يعبث به ، فطلب الآية ليستوثق أن محدثه هو ملاك الله . فجاءته الآية معجزة ، أن يظل ثلاثة أيام يمكنه أن يتكلم ، فإذا أراد أن يخاطب الناس عجز عن الكلام ، وهذه آية يعجز عنها الشيطان وهى الكلام والعجز عنه في الوقت نفسه . فالشيطان يمكنه أن يصيب الإنسان بأفة تخرس لسانه تماماً فلا يتحدث مطلقاً ، لكنه لا يستطيع أن يوقف اللسان في اتجاه معين ويطلقه في آخر . فكانت تلك الآية شاهدة بطلاقة قدرة لا يقدر عليها سوى الله . أى أن كلمة سويًا هى القاطعة بأن الآية من عند الله ، لأنها تقرر أنه معاف وقادر على الكلام إلا عن كلام الناس فحسب . وهذا العجز الموجه لا يقدر عليه الشيطان .

الصورة الثاني ② : { إِلَّا رَمَزًا } :ولفظة إلا رمزاً لتحديد وسيلة التعامل مع هؤلاء المحظور عليه أن يكلمهم ، ولا يقدر أن يفعل لو حاول . ولفظة (وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) : لتقرر أنه قادر على الكلام في هذا الاتجاه . وبذلك تكاملت الآيتان لتعطي المعنى الكامل : فقد أعطيت له آية يستيقن منها أن البشرى من عند الله ، تلك الآية أن يكون قادراً وعاجزاً عن الكلام في آن واحد ، قادراً على ذكر الله بصوت مسموع ، وتسبيحه بالعشى والإبكار ، وعاجزاً أن يخاطب الناس ولو حاول ، وليس أمامهم في مخاطبتهم سوى الإشارة والرمز ، وهذه الآية مدتها ثلاثة أيام وثلاث ليال.



المثال السابع | شهادتك : شهادته :

رمي المحصنة بالزنا ، يصدر من اثنين : غريب عنها ليس بزوجه ، أو زوجها ، وقد عبر القرآن الكريم عن الفريق الأول بقوله : (وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) ، وعن الفريق الثاني بقوله (وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) . والاسم الموصول لفظة زمنية ترتبط بزمن الفعل ، أي كل من يفعل ذلك في زمنه . واستخدام الفعل رمي الذي يترتب عليه جرح . والرمي مقصود (باليد) أى تقذف محددًا ، ويترتب على القذف إصابة جارحة .

وقد قرر القرآن عقوبة الفريق الأول الذي يقذف المحصنات بالجلد ثمانين جلدة وسقوط الشهادة ، ووصمه بأنه فاسق . وتلك العقوبة نافذة عليهم إذا لم يأتوا بأربعة شهداء ، وتأنيث أربعة يقرر وجوب أن يكونوا رجالاً . واستثنى من ذلك (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وتوبة القاذف لا تمنع حد الجلد ، وقد علل ابن كثير ذلك بأن الحد حق للمقدوفة ، فلا تزول حقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضهم على بعض . فالجلد يتم سواء تاب القاذف أو لم يتب ، لأنه كما قلنا حق المقدوفة ، وكذلك لا تسقط عنه بتوبته رد الشهادة ، لأن الله y أصحبها بلفظة (أَبَدًا) مما يعنى أنه يبقى مردود الشهادة . فرد الشهادة هي تعطيل للآلة الخائنة وهي اللسان لتساوي قطع اليد حقيقة في السرقة .

فالتوبة لا ترفع عن القاذف الجلد ، ولا رد الشهادة ، ومن ثم فهي لا ترفع عنه سوى الحكم بالفسق ، وهذا أيضاً رأى أبي حنيفة ، وشريح ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . فإذا أتى القاذف بأربعة شهداء أقيم الحد على الزانين ، فإن لم يأت بأربعة شهداء دمغت بالعقوبة السابقة (الجلد ثمانين جلدة ، رد الشهادة ، الدمغ بالفسق) . وقد جلد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في واقعة المغيرة كل من أبي بكر نضيع بن الحارث وأخيه عبد الله بن الحارث وشبل بن معبد البجلي لأن الشهيد الرابع : زياد توقف عن الشهادة ولم يؤدها كاملة .

لكن حد القاذف لا يتكرر ، فلو أقيم الحد على القاذف ، واستمر يقول في المحافل فلا يحذ ثانياً ، فأبو بكر لما شهد على المغيرة وحده عمر ، استمر يقول في المحافل : أشهد أن

المغيرة لزان ، فأراد عمر أن يحده ثانياً فمنعه علي . لأن أبا بكره لم يقصد أن المغيرة ارتكب حدث الزنا مرة أخرى ، ولكنه يتحدث عن الزنا الأول الذي حد فيه ، فإذا كان يقصد زنا جديد ، فهو قاذف جديد ويكرر معه الحد .

أما إذا كان الزوج صاحب الشأن في عرضه هو من رأى واقعة الزنا ، فقد كان له حكمه الخاص ، فلم يكلفه الشرع بأن يأت بأربعة شهداء على روايته ، بل أمر بالتلاعن ، أن يشهد هو أربع شهادات بأنه من الصادقين ، ويطلب اللعنة على نفسه إن كان كاذباً ، وعلى الزوجة أن تشهد هي الأخرى أربع شهادات أنه من الكاذبين ، وتطلب اللعنة على نفسها إن كان من الصادقين . فإن شهدت ، تم التفريق بينهما وتأجيل العذاب إلى يوم القيامة إلى الله Y ، لكن يفرق بينهما ولا ينتسب الولد للزوج ، ولا يلعن الولد . فإن لم يكمل الزوج الشهادة الخامسة جُلِدَ ، وإن لم تكملها الزوجة أقيم عليها حد الزنا .

لقد رمي الأنصاري : هلال بن أمية امرأته ، فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء ، فوجدت رجلاً مع أهلي ، رأيت بعيني وسمعت بأذني امرأته . فكره رسول الله S ما أتاه به وثقل عليه جداً ، حتى عُرف ذلك في وجهه ، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به ، والله يعلم أنني صادق ، وما قلت إلا حقاً ، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً فنزلت الآية ، فقال الرسول S : «أَبَشِّرْ يَا هَلَالُ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ فَرْجاً » فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله ، فقال رسول الله S : «أَرْسَلُوا إِلَيْهَا» فجاءت ، فلما اجتمعا عند رسول الله S قيل لها ، فكذبت ، فقال رسول الله S : «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ » فقال هلال: يا رسول الله ، بأبي وأمي لقد صدقت ، وما قلت إلا حقاً ، فقال رسول الله S : «لَا عِنَا بَيْنَهُمَا» قيل لهلال: يا هلال اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فقبل له عند الخامسة: يا هلال اتق الله ، فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس ، إنها الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها ، كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد الخامسة: (أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) ثم قيل لها : اشهدي ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فقبل لها عند الخامسة: اتقي الله ، فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة ، ثم قالت: والله لا أفضح قومي ، فشهدت الخامسة: (أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ففرق بينهما رسول الله S ، وقضى أن الولد

لها، ولا يُدعى لأب، ولا يُرمى ولدها^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (النور).

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (النور).

[النور]	٤	بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ	1
[النور]	٦	أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ	2

الصورة الأولى ١: {بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} : استخدم أربعة بالتأنيث دلالة على وجوب أن يكونوا رجالاً، وجاء التمييز : شهداء ، جمع شهيد ، وهو من كان على بينة يقينية مما يشهد به.

الصورة الثانية ٢: {أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ} : إن الفرق بين الاستعمالين (بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) ، (أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ) يكمن في الفرق بين الاكتفاء بالشاهد الواحد ، فعند قذف المحصنة ممن هو غير زوجها يجب أن يكون العدد أربعة رجال ، أما من زوجها فلا حاجة لشاهد آخر ، لكن تتعدد الشهادات منه ، والفيصل الشهادة الخامسة .

ويفرق القرآن بين **الشهيد والشهادة** :

يستخدم الشهادات إذا خرجت من شخص واحد (في الملاءنة بين الزوج المتهم زوجته ، والزوجة المدافعة عن نفسها) .

ويستخدم الشهاد إذا كانت الجريمة تخص الشرف ، فلا بد من اجتماع أربعة شهداء من الرجال .



(١) أبو جريب الطبري . جامع البيان في تأويل القرآن . الجزء (١٩) . ص ١١٢ .

رجال :

رهط :

المثال السابع

عدل القرآن الكريم عن لفظة رجال في وصفه مفسدي المدينة في عهد صالح ، والذي قتل أحدهم ناقة الله . واستخدم بدلاً من كلمة رجال رغم أنهم كذلك كلمة (رهط) ، والرهط كلمة تجمع من ثلاثة إلى عشرة ، والترهيط : دهورة اللقمة وجمعها ، والراطاء : جحر اليربوع يخبأ فيه أولاده ، جماعة يرجعون إلى أب واحد ، سموا رهطاً لأنهم فروع شتى وأصلهم واحد مثل الرهط الذي يُقطع سيوراً وتلبسه الجارية .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) (النمل) .

□ المَدِينَةُ : يتحدث عن مدينة صالح ، وقومه ثمود :

تِسْعَةُ : جاء العدد على التأنيث لأنه لا يقصد الجماعات ، بل يقصد الرؤساء ، والرؤساء مذكر ، ولهذا تبقى التاء لأنها من أصل الكلمة ، والمذكر يلزمه الأصل . فالحديث عن تسعة رجال ، لكن لكل منهم أتباعه ، لذلك جاء التعبير بلفظ رهط المعبرة عن الرجل بأتباعه .

رَهْطٌ : أى أشخاص ، ولم يقل أشخاص ، لأنهم من الكبراء أو الرؤساء الذي كل واحد منهم يتزعم جماعة ويتحكم في البلد ، ولم يقل تسع جماعات ، لأن كل جماعة أمرها في يد كبيرها ، ومن ثم أصبحت الجماعات التسعة يتحكم فيها هؤلاء الرجال التسعة . ولو قال تسعة رجال ما فهم أنهم تسع جماعات . ولو قال تسعة رجال أشقياء : ما فهم منها أن كل واحد من هؤلاء الأشقياء يتحكم في عدد من الأشقياء . سعوا في عقر الناقة . والكلمة من الترهيط وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل . فهم من تضخموا ، وتحكموا في البلد .

وجاء قوله (يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أى أن فسادهم يتجاوز المدينة إلى أى مكان . فهو إفساد واسع لا يحده مكان .

وَلَا يُصْلِحُونَ لماذا استخدم عدم الإصلاح والإفساد يكفى للسد عنها ؟ لا ، قد يكونوا يفسدون في مرات ويصلحون في مرات ، فالجمع بين الضدين دليل على اقتصارهم على أحدهما دون الآخر في كل الأوقات . وقد جمع الله تعالى :
الفاعلين في وصف (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾) الشعراء .

وقد جاءت كلمة (رَهْطٌ) مرة أخرى غير المرة التي بين أيدينا عن رهط شعيب :

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ (هود) .

ويبدو أن قوم شعيب الذين يحاربون دعوتهم ، كان معهم أحد أقارب شعيب الذي يملك رجالاً ونفوذاً مثلهم ، فهم يراعون صاحبهم ذا النفوذ هذا ، فلا يرضون رجم شعيب إكراماً لقريبه الذي يملك تأثيراً على مجموعة من الرجال تأتمر بأمره . فهو وحده رهط بما يملك من تأثير على المجموعة التي تخضع له .



سنين

حجج

المثال الثامن

﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ (٢٧) (القصص).

قال y (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ ^(١)) ، الكلام على لسان شيخ مدين ويقولون : هو شعيب ، وجاء نص القول مؤكداً لأنه يخاطب غريباً لا يطمع سوى في الطعام والإيواء ، ويعرض عليه أن يكون سيداً وزوجاً لابنته . فقد يظن به الغريب أنه يسخر منه ، فبدأ بالتوكيد لينفي له أي ظن بالسخرية منه . والفعل نكح أي تزوج ، والشيخ لا يتزوج ، لكنه يقوم بتزويج ابنته لذلك استخدم الفعل المتعدي (أنكح) ، وقد قال (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) لأن قوله ابنتي : قد يوهم أن لديه ابنة واحدة وهذا غير صحيح ، أو أنه لديه اثنتان ، لكن غير مسموح لموسى أن يختار أيهما ، لذلك قال له (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) ليبين أنه يريد صهراً ، لكنه في الوقت نفسه يترك له حرية الاختيار أي البنتين يريد . وقوله (هَاتَيْنِ) لأنهما كانتا واقفتين ، وهو يدري من التي سيختارها .

وكان المهر أن يعمل موسى أجيراً عنده (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي) ، ولم يكن هذا غريباً في بني إسرائيل ، فقد عمل يعقوب قبلاً عند خاله لابان سبع سنين ليتزوج ابنته راحيل . ولا يدخل الزوج على عروسه إلا بعد أن يدفع المهر الذي عليه .

استخدم القرآن لفظة (ثَمَنِي) بدون التاء ، أي أن الكلمة لم تأت على أصل بنائها (ثمانية) فهي تعبر عن الفرع المؤنث وهو الحجة . وقد جاء التمييز (حَجَجٌ) لأن شيخ مدين عربي لا يعمل بالزراعة مثل مصر حتى يتعامل بتقويم شمسي ، وهو يحج إلى بيت الله الحرام في شهر ذي الحجة ، فمن المعلوم أن الحج موجود قبل الإسلام ، بدليل تسمية الشهر بذي الحجة نسبة إلى قيامهم بالحج فيه .

وبذلك يخطب شيخ مدين موسى لابنته بأجرته عنده ثماني حجج ، فإن أتم عشرًا فهذا من عند موسى ، وقد قضى موسى أوفى الأجلين كما أخبر محمد S . وقد استخدم الشيخ لفظة (فَإِنْ) وهي لفظة استيعادية ليقرر أن الشيخ لا يريد أن يثقل عليه ، ويمكن للشاب أن (١) سورة (القصص) الآية (٢٧) .

يقبل الكبرى ولا يثقل على نفسه السنتين . وقد أثر لفظة (أَتَمَّتَ) لأن الإتمام ليس من أساس الشيء ، بل هو إضافة كالزخرفة للبيت . كأنه يشير له أن أي البنيتين تصلح له ، فإذا أثر هوى نفسه فهي زيادة إن لم تحدث فلا ضير .

وقد جاء العدد (عَشْرًا) بدون التاء أي ليس على أصل البناء ، ليدل أن الكلمة متجهة للفرع أي للمؤنث ، وهو الحجة . وتلاحظ تغيراً في استعمال العددين :

● ثَمَنِي حَجَجَ . ● عَشْرًا .

فالأولى استعمال العدد مضافاً للتمييز ، لأن الحجج كثيرة ، ولا تنتهي بثمان ، أما الثاني فقد نون العدد ليقطع عن تمييزه ، ومن ثم يكون العدد نعتاً للمعدود ، ويكون التقدير فإن أتممت حججاً عشراً فمن عندك . وهذا يقرر أن الحجج لن تزيد عليه عن عشر . فهذا سقف الحجج التي يعمل فيها أجيراً عنده . أما الثماني فهي قابلة للزيادة إلى عشر . والعشرة غير قابلة للزيادة في العمل عنده أجيراً .

وقد جمع القرآن بين الفعلين أريد في حالتي الإثبات والنفي فقال :

❁ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .

❁ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ .

فشيخ مدين يرغب وإن رغب في تزويجه ابنته ، لكنه لا يرغب في مشقته . لذلك قال له (فَمِنْ عِنْدِكَ) ليجعل له الخيرة ، وكذلك ينسب إليه الفضل لو أتم التطوع . فإن عمل أجيراً ثمانين سنين فهذا ما تم الاتفاق عليه ، فإن شاء موسى أن يتمها عشراً فمن عنده إن لم يجد في ذلك مشقة . وقد أخبر النبي S أن موسى قضى أوفى الأجلين ، أي قضى عشر حجج . ولم يقل النص (ابنتي) ، بل قال (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) لأنه لو قال ابنتي فهي تعني أحد أمرين:

١- لديه ابنة واحدة وهذا غير صحيح .

٢- لديه اثنتان ، ولا يسمح له أن يختار .

فقوله إحدى ابنتي ، يعني أن يترك له حرية أن يختار بينهما . وأشار إليهما بكلمة (هَاتَيْنِ) لأنهما كانتا واقفتين . وهو يدرى من التي سيختارها . ولم يدخل موسى بابنة الرجل إلا بعد أن أدى المقابل . وثمة قصتان تعرضهما التوراة أن يعقوب : عمل سبع سنين

عند حماء ثم تزوج بابنته ، وتزوج الثانية ثم عمل عنده سبع سنوات أخرى ، أى أن يعقوب عمل أولاً ثم تزوج ، وفي مرة أخرى تزوج ثم عمل .

ثَمَنِي لأنه سيتزوج الصغرى ، فقد أطال المدة ، ويبدو أنه تزوجها وهى في العشرين من عمرها .

حَجَجَ إن شيخ مدين (شعيب) يحج إلى بيت الله الحرام ، وهو يرى السنة تقدر بمقياس الحجة . لأنه من بلد ترعى وليس من بلد تزرع مثل مصر حتى يقدر العام بالمقياس المناخي .

فَإِنْ استبعادية لأن الرجل لا يحب أن يشق عليه . فلو قبل حياء فهو يكره ذلك .
أَتَمَمْتَ الإتمام ليس من أساس الشيء ، بل هو إضافة كالزخرفة للبيت .
عَشْرًا عشر حجج ، أى أن يتطوع موسى بسنتين من العمل عند الشيخ .
فَمِنْ عِنْدِكَ نسب الفضل إليه لو أتم التطوع .

وَمَا أَرِيدُ جمع بين (أريد ، ما أريد) الأولى في عرض الابنة عليه للزواج ، والثانية في مشقة موسى بالسنتين الزائدتين .

أَنْ أَشُقَّ جمع بين (أريد ، ما أريد) الأولى في عرض الابنة عليه للزواج ، والثانية في مشقة موسى بالسنتين الزائدتين .

سَتَجِدُنِي استخدم السين لأنه يتحدث عن أمر مستقبلي ، واستخدم الفعل (وجد) ليبين له أنه سيجتهد في ذلك حتى يراه رؤية العين غير الباحثة أو المنقبة .
أى سواء اختار ثمانى أو عشراً سيجد الصلاح منه .

إِنْ شَاءَ اللَّهُ استخدم المشيئة ونسبها إلى الله ، لأنه صالح يدرى أن لا شيء إلا بمشيئة الله .
مِنَ الصَّالِحِينَ لم يقل صالحاً ، بل زيادة في طمئنة الرجل ، وعده أن يجتهد حتى يكون من المشهورين بالصلاح .



المبحث الثاني : التمييز المجرور بمن

التمييز المجرور يأتي على صيغتين ، مجرور بالإضافة مثل قولنا (ثلاثة رجال) أو مجرور بمن (ثلاثة من رجال) ، والمبحث الراهن يناقش الاستعمالات القرآنية التي جاء فيها التمييز مجروراً بمن ، في محاولة للوقوف على قانون استعماله .

✽ والمبحث الثاني يتناول التمييز المجرور بمن ، ويقع في ستة أمثلة هي :

- ١- فخذ أربعة من الطير .
- ٢- ولقد آتيناك سبعاً من المثاني .
- ٣- يغلبوا ألفاً من الذين كفروا .
- ٤- ممدكم بألف من الملائكة مردفين .
- ٥- بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين .
- ٦- بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .

المثال الأول

فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمَ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٠)

النص يتحدث عن طلب إبراهيم الخليل من ربه أن يرى كيفية البعث ، ليطمئن قلبه ، فقدم الله له تجربة عملية ، بأن جعله يقطع أربعة طيور مختلفة الأنواع والألوان ، ثم يضع على كل جبل ربعاً من كل طائر ، ثم يدعو تلك الأجزاء بإذن الله ، فتأتى الطيور سعياً على أقدامها إليه قد عادت إليها الحياة ، واعلم - أيها الرسول - أن الله غالب على أمره ، يضع كل شيء في موضعه .

أما قوله (فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ) فنجد أنه لم يقل أربعة طيور ، لأن أربعة طيور تعنى أنها طيور متجانسة من نوع واحد ، فقوله (مِّنَ الطَّيْرِ) يقرر أن الطيور مختلفة ، وانظر التقنين القرآني للاستعمال العربي للأعداد :

• أربعة طيور : فهي طيور متجانسة .

• أربعة من الطير : فهي طيور مختلفة متعددة ، أكثر من نوع .

فهي طيور مختلفة الأنواع (طاوساً ، وديكاً ، وغراباً ، ونسراً) كلها مذكر لأن تاء أربعة تؤكد أن الطيور المختارة مذكرة ، والألوان : فالغراب أسود ، والنسر أبيض ، والديك قيل أحمر ، والطاوس متعدد الألوان . وقد اختار الطير كما يقول الزحيلي في التفسير المنير لأن : الطير أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخواص الحيوان ، ولسهولة إجراء التجربة عليها ، ولأن الطير أكثر نفوراً من الإنسان في الغالب ، فإتيانها بمجرد الدعوة أبلغ في المثل .

ولسنا نوافق على القول بأن اختيار هذه الأنواع لذبحها هو ذبح مطامع النفس في الدنيا من حرص عليها ، ومن إقبال على زينتها ، ومن رغبة في طول العمر فيها ، ومن ، لأن القصة لم تنته عند الذبح ، فقد تم إحيائها ثانية .

ثم قال الله له (فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ) وكلمة (فَصُرُّهُنَّ) تعني : (الجمع ، القطع) فجاءت هنا لتؤدي المعنيين : اجمعهن إليك ثم قطعهن . وقال (إِلَيْكَ) ليتأملهن ، ويحفظ أشكالهن وإمارات كل منها حتى يتعرف عليهن بعد الإحياء .

ثم قال (ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا) ولفظة (ثُمَّ) تفيد تراخي الوقت أي أنه لم ينفذ الأمر مباشرة ، فتكون الروح حديثة عهد بالجسد ، فيقول قائل إن الروح مازالت به ، أي أن الطيور بعد ذبحها تركت بعض الوقت ليمر وقت على موتها . وقوله (أَجْعَلْ) يعنى أن يفرّق الأجزاء بيده على الجبال ، والغالب أن الجبال أربعة لأن الجزء هو ما لا يستقيم الجسم بدونه أي الربع ، وهذا لا يتم إلا بتقسيم الطائر الواحد إلى أربعة أجزاء هي : الرأس والذيل ، والجناح الأيمن والجناح الأيسر ، ويضع على كل جبل من الجبال الأربعة جزءاً أي ربعاً ، وبذلك يكون على كل جبل ربعاً من كل طائر ، فيكون على كل جبل ربعاً من كل طائر ، أي أربعة أجزاء ، من كل طائر جزء واحد .

ثم قال (ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) أي بعد أن ينتهي من وضع الأجزاء على رأس الجبال عليه أن يعود إلى مكانه في مواجهة الجبال ، ويدعو تلك الجزاء المنتوفة الريش ، فتأتيها سعياً إلى مشياً على رجليها ، ولو جاءت الطيور طائراً لاشتبه بعضهم وقال : لم يتم إحيائها ، بل أرسل الله له طيوراً غيرها . لأن إرسال غيرها أمر في مقدور الإنسان نفسه ، أما إحياء المذبوح فلا يقدر عليه إلا الله .

• لماذا اختار العدد أربعة؟ : لأنه سيقسم الطائر الواحد إلى أربعة أقسام .. يضع على كل جبل من الجبال الأربعة قسماً ، فهي أربعة جبال .

وبذلك نرى أن اختيار لفظة أربعة لأنه سيقسم الطائر الواحد إلى أربعة أجزاء ، وسيحتاج بذلك إلى أربعة جبال . ليضع على جبل من الجبال الأربعة قسماً ، فهو سينقل حتماً بين أربعة جبال ، فلو كانت الطيور من نوع واحد ، فسيتحرك إلى الجبال ذاتها ، فلو كانت من أنواع متعددة ، فالحركة ذاتها ، والرحلة ذاتها ، لكن التجربة أصبحت مكررة أربعاً بنفس جهد الواحد ، فالأقوى في المثل أن تكون مكررة ، وبذلك كانت تجربة واحدة لكنها مساوية لأربعة تجارب معاً ، وخاصة لتعدد الألوان . فجاء العدد أربعة لتكرار التجربة بدون مجهود زائد .

- لماذا جاء العدد منوناً؟ : العدد يأتي منوناً للدلالة على حذف التمييز . فكلمة (مَنْ الطَّيْرُ) ليست هي التمييز ، ولو كانت تمييزاً لجاءت كلمة (أَرْبَعَةً) بدون تنوين ، كما جاءت في قوله تعالى: (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) . والتقدير : فخذ أربعة أزواج من الطير .



المثال الثاني | سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر)

يمتن الله ﷻ على رسوله الكريم بما آتاه من الكتاب ، فقال (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ) وهي جواب لقسم محذوف ، أما قوله (سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي) وهي آيات فاتحة الكتاب ، والمثنان من التثنية وهي التكرير ، وذلك لأن الفاتحة تتكرر في الصلاة . ولأن الشيء لا يعطف على نفسه ، فالعطف هنا يعني أن فاتحة الكتاب تسبق الكتاب ، وأن القرآن الكريم يبدأ بسورة البقرة .

وقد استخدم العدد بطريقته الفرعية ، فلم يستخدم على وضع بنائه (سبعة) ، بل جاء بالفرع ، وهذا يعني أن المعدود أيضاً فرع ، وهو المؤنث . وإذن التمييز آيات مكررة . أو سبع تننيات .

وجاء العدد منوناً ليقطعه عن التمييز ، وهذا يعني أن الكلمة ليس لها تمييز ، لكنها نعت لمنعوت محذوف هو آيات ، ولقد آتيناك آيات سبعاً من المثنان . وبذلك يكتسب المعنى قيمة إضافية إلى جوار قصد التكرار ، هو أن العدد مقتصر على العدد سبعة ، لا يمكن أن يزداد ، فالفاتحة سبع آيات لا تنقص ولا تزيد ، وهذا يقطع أن البسملة آية . وقوله من المثنان دلالة أن كل آية تختلف عن الأخرى .

• لماذا اختار العدد سبعاً ؟ : لأن عدد آيات فاتحة الكتاب سبع ، والبسملة آية منها .

فجاء العدد مطابقاً لعدد الآيات المعبر عنها . وسميت بالمثنان لأنها تتكرر في كل صلاة ، فممن مسلم يقيم الصلاة إلا ويكرر الفاتحة في اليوم مرات عديدة ، فهي تتكرر أكثر من أي سورة أخرى . ولذلك اختص الفاتحة بوصف المثنان ، وعطف عليها القرآن لأنه لا يكرر تكرارها . وقد وصف القرآن الكريم في سورة الحجر بالمثنان :

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٣٣) ﴿(الحجر)﴾

وقد وصف القرآن كله بعد ذلك بالمثاني لأنه فوائده تتجدد حالا بعد حال ، أو لأنه يثنى عليه . وفي هذا يشترك كل القرآن بما فيه الفاتحة .

• لماذا اختار العدد منوناً؟ : العدد يأتي منوناً للدلالة على حذف التمييز . فكلمة (مَنْ) المَثَانِي (ليست هي التمييز ، ولو كانت تمييزاً لجاءت كلمة (سَبْعاً) بدون تنوين ، كما جاءت في قوله تعالى: (سَبْعَ سَنَابِلَ) . والتقدير : ولقد آتيناك سبع آيات من المثاني .

• دلالة حذف التمييز : حذف التمييز يعني أن العدد نعت لمنعوت محذوف ، والعدد إذ جاء بعد معدوده دل هذا على اقتصار المعدود على هذا العدد لا يزيد ولا ينقص .

دقائق قرآنية:

●● الدقيقة الأولى : مثاني جمع مثنى ، ومثنى ليست عدداً ، بل فئة ذات أفراد ، فقولنا مثنى أي من الفئة ذات الاثنين ، فقوله تعالى :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمَنِ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ (٣) ﴿(النساء)﴾

فالرجل من حقه أن يكون زوجاً لواحدة (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) ، أو يكون من الفئة التي تتزوج اثنتين (مَثْنٍ) ، أو من الفئة التي تتزوج ثلاثاً (وَتُلَاثَ) ، أو من الفئة التي تتزوج أربعاً (وَرُبْعٍ) . والأمر نفسه في قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَٰئِكَ أَجْنَحٌ مَّثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ﴿(فاطر)﴾

فالملائكة أنواع ، ثمة فئة منها تمتلك جناحين (مثنى) ، وفئة أخرى تمتلك ثلاثة أجنحة (وثلث) وفئة أخرى تمتلك أربعة أجنحة (وربع) .

وعند القيام لله ، فالقيام يكون فردياً ، أو زوجياً .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًى ﴾ (سبا) .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك : إنما أعظكم بخصلة واحدة هي أن تناقشوا قولي بدون تعصب ، فشمروا في التفكير في أمري مثنى أي اثنين اثنين ، وفردى أي كل واحد على حده ، وعلل الزمخشري للبعد عن التفكير الجماعي : بأن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب . ولا يسمع إلا نصرة المذهب .

فإن تفكر الاثنان بإنصاف دون هوى ولا عصبية ، وكذلك إن فكر الواحد دون تأثير من غيره عليه فإنهم لابد أن يصلوا إلى الحقيقة وهي أنه نبي من عند الله جاءهم ينجيهم من عذاب شديد .

● ● الدقيقة الثانية : إن كانت كلمة مثنى تعنى الفئة ذات الاثنين ، فكلمة مثنى تعنى تكرار

تلك الفئة ذات الاثنين . ويظل سؤال : لماذا يأتي بها مفردة ، ثم يأتي بها جمعاً ؟ إنه إن كان يقن للأفراد أنهم فئات ، ومن هذه الفئات أن ينقسموا إلى فئة ذات اثنين فهنا يأتي بالمفرد لأنه لا يعدد الجماعات ، بل يصنف الفئات . فهنا تتضامن كل المجموعات الثنائية التي تضم اثنين اثنين إلى فرع واحد هو مثنى مهما تعددت المجموعات ، لأنها بصدد مقارنة مع فئات أخرى . فإذا كان يتحدث عن فئة واحدة هي المثنى ، ثم وجدها تتكرر دون مقارنة مع فئات أخرى فهنا يأتي الجمع . فلو أردت أن تصنف الناس المتزوجين إلى مجموعات : مجموعة تتزوج زوجة واحدة ، ومجموعة تتزوج زوجتين ومجموعة تتزوج ثلاثاً ورابعة تتزوج أربعاً ، فهنا عند الحديث عن المجموعة الثانية التي يجمع كل رجل فيها زوجتين لا نستعمل الجمع ، بل نستعمل المفرد فنقول : مثنى . أي لكل منهم اثنين . أما إذا ذهبنا لمدينة كل رجل فيها يتزوج بزوجتين : ولا يوجد سوى تلك الفئة

فهنا نتحدث عن تكرار أفراد الفئة فهنا يحدث الجمع ونقول : مثنى .

● ● **الدقيقة الثالثة :** أثبت ألف الجمع (مَّثَانِيَّ) التي تفيد التوحد والتساوى ، لأن كل تكرارة تشبه التكرارة الأخرى تماماً .

● ● **الدقيقة الرابعة :** الفرق بين مثنى وأزواج ، مثنى هي مجموعات ثنائية كل منها اثنان اثنان . أما الأزواج : فهي جمع لكل متماثلين ، كل منهما زوج . فهو جمع لأفراد كل فرد يشبه الآخر . والفرق بين مثنى وزوجان : أن مثنى فئة ذات اثنين في مقابلة فئات أخرى وتضم تحتها أي عدد من المثنى ، أما زوجان : فاثنان كل منهما زوج ، ولا تزيد عن اثنين . أما زوج : فواحد له شبيهه .



المثال الثالث | أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦) (الأنفال).

أمر الله ﷻ المسلمين أن يحاربوا الكفار مهما كان عدد الكفار أكثر ، ففى البدء جعل المائة من المسلمين في مواجهة ألف من الكفار . أي الواحد يستوجب عليه مواجهة عشرة ، وبعد التخفيف جعل المائة من المسلمين يواجهون مائتين . أي الواحد يواجه اثنين .

وثبت عدد المسلمين (مائة) لأنه الرقم القياسي للتمثيل به ، فقبل التخفيف أوضح أن هذا العدد يمكنه أن يهزم ألفاً ، ثم بعد التخفيف أوضح أنه يغلب مائتين . وقد وصف المائة بصفة جمعية ، فلم يقل مائة صابرون ، ليكون الوصف منصباً على كل فرد ، بل أراد التماسك بين المجموعة فوصف المجموعة . فقوله صابرة ليس تمييزاً حتى نقول إنه لا بد أن تكون الكلمة مفردة ، فلا تمييز هنا بسبب تنوين العدد ، وعند تنوين العدد ينقطع التمييز ، وما بعد العدد المنون يكون صفة .

وسبب التخفيف كما يقول ابن عباس : أن الله عندما فرض على المسلمين أن لا يفر واحد من عشرة ، شق ذلك عليهم فجاء التخفيف ، وفرض عليهم الصبر :

• مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا

• مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

فاعلمك تلاحظ أنه مع التخفيف أضاف لفظة (صَابِرَةٌ) وصفا لكلمة (مِائَةٌ) ولذلك

يضيف ابن عباس في البخاري : فلما خَفَّفَ اللَّهُ عنهم من العدة نَقَصَ من الصبر بقدر ما خَفَّفَ عنهم.

ونلاحظ تفريق القرآن بين القلة والكثرة ، فكلما زاد المسلمين لم تكن الزيادة المضاعفة للكافرين مؤثرة ، لذلك :

• عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

• أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ

قبل التخفيف ، استوجب أن يستحضر الأقلون من المسلمين الصبر (عَشْرُونَ صَكْرُونَ) فلما زاد عدد المسلمين إلى ألف فلو كان فيهم البعض غير صابر ، فهذا لا يمنع أن يغلبوا ألفين . لكن مع العدد القليل لابد أن يكون كل واحد من العشرين يتسم بالصبر ليمكنهم من غلب المائتين .

إن واجبكم أيها المؤمنون ان تصبروا على ملاقات أعدائكم ولو كانوا عشرة أمثالكم ، وقد روي الطبري عن ابن عباس : كان لكل رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفروا منهم ، لكن الله قد خفف عنكم الآن :

﴿ اَلَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال) .

فجعل عليكم أن تصبروا أمام مثليكم فقط ، لعلمه أن فيكم ضعفاً يقتضي التيسير عليكم والترخيص لكم ، فإن يكن منكم مئة مجاهد صابر يغلبوا مئتين من الكفار ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإرادة الله ومعاونته ، والله مع الصابرين .



المثال الرابع

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ :

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال) .

في غزوة بدر ، أنزل الله ألفاً من الملائكة لأن الكفار كانوا ألفاً فنزل ما يوازئهم من الملائكة عدداً ، ويزيد المسلمون بعددهم .

إِذْ يحكى قصة قد حدثت ، وإن كانت قريبة إلا أنها ماضية ، لهذا استخدم ظرف الزمان الخاص بالماضي ، ولو كان الحدث مستقبلياً لقال (إذا) .

تَسْتَغِيثُونَ استعمل السين ليجعل الفعل متجهاً بعيداً عن صنع الاستغاثة ، بل طلبها . واستعمل المضارع ليجسد الحالة الماضية كأن السامع يشاهدها .

رَبِّكُمْ استعمل الرب بدلاً من الله للإيحاء بال العناية والاهتمام . وأضاف الرب إليهم لأن هناك فريقين أحدهما يرفضه إلهاً ، والآخر يقاتل من أجله ، فبرغم أنه رب الفريقين ، لكن عند الصراع انحاز لأحدهما دون الآخر .

فَاسْتَجَابَ الفاء لسرعة الاستجابة . والسين لاتصال الإجابة بالسؤال ، فلا فاصل بين الاستغاثة والاستجابة .

لَكُمْ للتقيد ، فالاستجابة من الله بنزول الملائكة لا تكون في كل مرة ، بل هذه المرة لوجود النبي S بينهم .

أَنِّي استخدم التوكيد لأن المتلقى في حالة قلق ، فقبل المعركة يريد الاستيثاق بالنصر .

مُمِدُّكُمْ جاء القول في صيغة اسمية لأن الصيغة الاسمية تفيد الثبات ، لأنها أولاً على لسان الله فهي محققة الحدوث ، ولأنها ثابتة بتحققها . وقد جاء الاسم

مدغماً (لأن الإمداد سيأتي دفعة واحدة) ، ولو كان على دفعات لقال (يمددكم) .

بِأَلْفٍ وضع الله ﷻ قانوناً أن يمد جنوده بملائكة بعدد عدد الكفار ، لأن الجنود بشرى للمؤمنين . لذلك في غزوة بدر أرسل ألفاً بعدد كفار قريش . والآية هنا تتحدث عن غزوة بدر ، فجاء عدد الملائكة مطابقاً لعدد أعداء الله .

مِّنَ الْمَلَائِكَةِ سميت الملائكة بذلك لأنها تحمل الرسالة ، وقد سميت الرسالة أَلُوكاً لأنها تُولَكُ في الفم ، مشتق من قول العرب: الفرس يَأْلِكُ باللجام ويعلُكه ، إذا مضغ الحديد ، قال عدي: أَبْلَغَ النُّعْمَانُ عَنِّي مَأْلُكاً أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وانتظاري ، وقول العرب: «أَلْكَنِي إِلَى فَلَانٍ»، المعنى تَحَمَّلْ رسالتي إليه. (١)

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج)

واختيار الملائكة يعنى النصر ، فمن يقدر عليها ؟ أما سبب وضع (من) قبلها فلأنها ستكون ملائكة متعددة لكل منها مهام مختلفة .

مُرْدِفِينَ خاصة ببدر لأن الملائكة كانت متقدمة للعسكر يلقون في قلوب العدو الرعب . جاء في مفردات الراغب أن المرادف هو المتقدم الذي أردف غيره . فكأنهم كان في الأمام ، والجيش وراءهم . لأن مهمتهم لم تكن القتال ، بل بث الرعب في قلوب الأعداء فلا بد أن يتقدموا الجيش .

• لماذا اختار العدد ألف؟ لأن الغزوة هي غزوة بدر ، وكان عدد الكفار فيها ألفاً ، لذلك أرسل الله ﷻ جنوداً عددها ألف بعدد جنود الكفار .

• لماذا جاء العدد منوناً؟ العدد يأتي منوناً للدلالة على حذف التمييز . فكلمة (مِّنَ الْمَلَائِكَةِ) ليست هي التمييز ، ولو كانت تمييزاً لجاءت كلمة (بِأَلْفٍ) بدون تنوين ، كما جاءت في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ أَحْذِهِمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (البقرة)

(١) ابن فارس ، المقاييس ، مادة ألك .

فكلمة ألف في الآية السابقة لم تتون ، وجاء بعدها مفرد . ولذلك فكلمة (سَنَة) تمييز مجرور بالإضافة ، بينما لفظة الملائكة ليست تمييزاً لسبيين :

١- تتوين ألف مما ينفي وجود تمييز مجرور بالإضافة بعده .

٢- الملائكة جمع ويجب أن تكون مفردة .

ولذلك نرى أن التقدير : أني ممدكم بألف جندي من الملائكة . فالتمييز هو كلمة جندي . وجاءت كلمة (مِّنَ الْمَلَائِكَةِ) لتمييز كلمة جندي المحذوفة .

• **دلالة حذف التمييز :** حذف التمييز يعني أن العدد نعت لمنعوت محذوف ، والعدد إذ جاء بعد معدوده دل هذا على اقتصار المعدود على هذا العدد لا يزيد ولا ينقص .



المثال الخامس | بِثَلَاثَةِ ءَالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ (آل عمران) .

السياق عن غزوة أحد . والله يخبر عما قاله النبي S لجنوده ، لبث الطمئنة في قلوبهم بعد أن تركهم عبد الله بن أبي بن سلول بأكثر من نصف الجيش . وقد جاءت على لسان النبي S للمسلمين في غزوة أحد . يعدهم بنزول الملائكة بشرط أن يصبروا ويتقوا . وقد ذكر العدد ثلاثة آلاف قياساً على ما حدث في بدر ، فقد أنزل الله ملائكة بعدد جيش الكفار ، لذلك قال لهم في أحد ثلاثة آلاف لأن عدد جيش الكافرين في أحد ثلاثة آلاف .

إِذْ ظرف زمان للماضي لأنه يحكى قصة ماضية .

تَقُولُ جاء مضارعاً لاستحضار صورة القصة الماضية للمتلقى .

لِلْمُؤْمِنِينَ لم يقل (الذين آمنوا) لأن الرسول S ليس مقيداً بالجنود الذين حضروا في أحد ، فوسع الدائرة ليشمل من كان خارج المكان .

أَلَنْ استخدم الهمزة التي تتحدث عما هو قادم ، ولم يستخدم هل التي تسأل عما هو مضى .

يَكْفِيكُمْ استخدم الاكتفاء لأنه ينتظر من الإمداد : النصر ، والنصر يكفى .

أَنْ يُمِدَّكُمْ جاءت في صيغة فعلية لأنها على لسان الرسول S ، ومحتملة الحدوث ، فقد لا يلتزمون بالشرط فلا تحدث ، وهذا ما حدث . وبذلك في الاحتمالية استخدم الفعلية . وفي المحققة استخدم الاسمية .

لم يفك التضعيف لأن الإمداد سيأتى دفعة واحدة .

رَبُّكُمْ

استخدم لفظة الرب لأنه يريد الحذب والرعاية والاعتناء ، فالرسول S يذكر رجاله بأن الله لن يتخلى عنهم ، فهم بمثابة المربوب الذي يجب على الرب أن يتعهده بالعناية .

بِثَلَاثَةِ

ذكر العدد ثلاثة آلاف قياساً على ما حدث في بدر ، فقد أنزل الله ملائكة بعدد جيش الكفار ، لذلك قال لهم في أحد ثلاثة آلاف لأن عدد جيش الكافرين في أحد ثلاثة آلاف .

ءَالْفِ

استخدم وزن أفعال (القلة) لأنه يتحدث عن عدد دون العشرة . والغرض هنا ليس التقليل ، لكن الله Y سنّ منهجاً أن يمد المؤمنين عند صبرهم في الجهاد بعدد من الملائكة يماثل جيش العدو ، ويصبح المسلمون زيادة في العدد ، حدث هذا في بدر : فقد أمدهم بألف من الملائكة لأن مشركي قريش كانوا ألفاً وأصبح المسلمون زيادة على جيش الكفار ، وفي أحد وعدهم الرسول S بأن يمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة هم عدد جيش الكفار ، ثم زاد الوعد تأكيداً ، بل عند الصبر سيكون العدد أكثر من عدد الكفار ، فضلاً عن عدد المسلمين ^(١) .

آلاف وزن أفعال لعدد دون العشرة

ألوف فعول جمع كثرة فوق العشرة

مِّنَ الْمَلَائِكَةِ هم رسل الله تعالى ، واختيارهم يعني يقين العدو بالهزيمة . أما سبب وضع (من) قبلها فلأنها ستكون ملائكة متعددة لكل منها مهام مختلفة .

(١) يفرق القرآن بين لفظتي آلاف ، ألوف : فعند إرادة جمع القلة دون العشرة : ثلاثة ، خمسة يستخدم جمع القلة (آلاف)،

﴿ إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلَيْنِ ﴾ (١٦٢) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا بُمُدِّكُمْ رَبُّكُمْ

بِمُخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٥﴾

وعند إرادة الكثرة عدل عن وزن أفعال إلى وزن فعول الذي يعطى انطلاقة غير محدودة فقال : ألوف .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (البقرة) .

انظر عندما أراد الكثرة عدل عن جمع القلة (أفعال) إلى جمع الكثرة (فعول) فاستخدم جمع الكثرة (ألوف) التي تعنى أنها أعداد تفوق عشرات الآلاف ، وجاء بها نكرة غير مسبوقة بعدد لإفادة الكثرة ، وعلى وزن فعول الذي يفيد الكثرة ويحمل معنى التدفق والانسايابية : فهو وزن انسيابي مرسل وتركه دون أعداد لينطلق الذهن رمع انطلاسته ، فالعدد مطلق قابل لتخيل الزيادة .

مُنزَلِينَ

أي منزلين بالنصر . فهو يقول لهم أَلن يكفيكم ؟ فهم لا يكفيهم إلا الحد الأقصى ، وهو النصر ، فكأنه يقول لهم أَلن يكفيكم أن ينزلوا بالنصر ؟ فلأنه يريد ما يكفيهم ذكر النصر لأنه الذي يكفيهم .

• اختيار العدد ثلاث آلاف : لأن الغزوة هي غزوة أحد ، وكان عدد الكفار فيها ثلاثة آلاف جندي ، لذلك أرسل الله ﷻ جنوداً عددها ثلاثة آلاف بعدد جنود الكفار .

• تنوين آلاف : العدد يأتي منوناً للدلالة على حذف التمييز . فكلمة (مَنْ أَلْمَلَتْكِكَةِ) ليست هي التمييز ، ولو كانت تمييزاً لجاءت كلمة (بِأَلْفٍ) بدون تنوين . ولجاء بعدها مفرد ، لذلك فقلوله من الملائكة ليست تمييزاً للعدد ، لكنها تمييز للتمييز المحذوف ، والتقدير : ثلاثة آلاف جندي من الملائكة .



المثال السادس | بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ :

﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُّسَوِّمِينَ ﴾ (١٢٥) ﴿ آل عمران ﴾ .

سياق الكلام يصلح أن يكون استكمال النبي S السابق ، أو يكون تدخل من الله Y تعقيباً على كلام نبيه S ، وأنا أميل إلى الثانية ، وأن هذا الكلام كلام الله Y ، يقوي ذلك عندي : الإضراب الذي حدث في الكلام (بَلَىٰ) واختلاف ما قبله عما بعده يرجح أن ليس القائل واحداً ، بالإضافة إلى استخدام حرف الاستبعاد (إِنْ) الذي يناسب علم الله بطبيعة الناس ، ولا يناسب أمل الرسول S في النصر .

وبذلك يقول لهم رب العزة ، هو كما قال لكم رسولكم الكريم ، وأزيد عليه : لن يكون العدد هذه المرة كما فعلت في بدر بعدد جيش الكفار ، بل أزيد عليه فيكون العدد خمسة آلاف ، لكن لن يشاركوا في المعركة إلا إذا التزمت بشرطي وهو أن تصبروا وتتقوا ، وهذا بعيد ، فالملائكة ستنزل الميدان ، لكنها لن تشارك إلا إذا كنتم مطيعين لأوامر قائدكم .

وقد تسأل : إن المسلمين إذا فعلوا ذلك مهما كان عددهم قليلاً حققوا النصر ، فما الحاجة إلى الملائكة إذن ؟ سواء كان عددهم قليلاً أو كثيراً ، مادام المسلمين بتقواهم وصبرهم قد حققوا النصر ؟ والإجابة سيكون تدخل الملائكة لاستئصال شأفة العدو ، فلا يرجع منهم واحد . وهنا تقذف تلك المعركة الرعب في قلوب كل الإعداء ، فلا تسول لأحد منهم نفسه بالتجرؤ على مقاتلة المسلمين بعد ذلك .

وقد جاء الواقع مصداقاً لأداة الشرط المستخدمة ، فلم يصبروا ، وهرع الرماة مخالفين كلام القائد لجمع الغنائم ، وهناك لم تتدخل الملائكة برغم انقلاب المعركة ضد جيش المسلمين ، وذلك لأن معركة أحد ستكون هزيمة للمسلمين لينتصر الإسلام ، ليتعلم المسلمون أنه لا نصر وإن كان بين ظهرانيهم حبيب الله محمد S إلا إذا كانوا مطيعين له ، لأنهم لو انتصروا وقد خالفوا أمره ، لكان النصر تشجيعاً على عصيان النبي S ، فجاءت

الهزيمة درساً قاسياً يردعهم بعد ذلك عن مخالفة الرسول S .

وهكذا تحققت (إن) الاستيعادية ولم يشترك الملائكة في تلك الغزوة ليتعلم المسلمون أن الله لا ينصر جنوده بعصيانه ، وأن النصر في طاعة الله ورسوله .

يُمَدِّدُكُمْ جاءت في صيغة فعلية لأنها على لسان الرسول S ، ومحتملة الحدوث ، فقد لا يلتزمون بالشرط فلا تحدث ، وهذا ما حدث . وبذلك في الاحتمالية استخدم الفعلية . وفي المحققة استخدم الاسمية .

وقد اختار صيغة مضارعة ينفك معها التضعيف لأن الإمداد سيتم على دفعتين : ثلاث آلاف على قدر جيش العدو ، فإذا استمر الصبر أمدهم بألفين آخرين . ولو كان الإمداد على دفعة لأتى بالفعل بعيداً عن حالة الجزم التي تفك التضعيف .

رَبُّكُمْ استخدم لفظة الرب وقت القتال يعني أن الله Y يؤكد لهم أنهم في أعينه ، وسيفعل ما فيه صالحهم ، ولن يتخلى عنهم لأنهم مربوبوه الذي يتغمده بالغناية .

خَمْسَةَ ذكر العدد خمسة آلاف زيادة في طمئنة المؤمنين .

أَلْفٍ استخدم وزن أفعال (القلة) لأنه يتحدث عن عدد دون العشرة . والغرض هنا ليس التقليل ، لكن الله Y استن منهجاً أن يمد المؤمنين عند صبرهم في الجهاد بعدد من الملائكة يماثل جيش العدو ، ويصبح المسلمون زيادة في العدد ، حدث هذا في بدر : فقد أمدهم بألف من الملائكة لأن مشركي قريش كانوا ألفاً وأصبح المسلمون زيادة على جيش الكفار ، وفي أحد وعدهم الرسول S بأن يمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة هم عدد جيش الكفار ، ثم زاد الوعد تأكيداً ، بل عند الصبر سيكون العدد أكثر من عدد الكفار ، فضلاً عن عدد المسلمين ^(١) .

(١) يفرق القرآن بين لفظتي آلاف ، ألاف : فعند إرادة جمع القلة دون العشرة : ثلاثة ، خمسة يستخدم جمع القلة (آلاف) ،

﴿ إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَ ثَمَّ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴾ (١٢٤) بَلَى إِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُّوا وَأَنُتُوا مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا يُدْعَ ثَمَّ رَبُّكُمْ

خَمْسَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١٢٥)

(آل عمران) .

مِّنَ الْمَلَائِكَةِ هم رسل الله تعالى ، واختيارهم يعني يقين العدو بالهزيمة . أما سبب وضع (من) قبلها فلأنها ستكون ملائكة متعددة لكل منها مهام مختلفة .

مُسَوِّمِينَ أي معلمين . وقد ربطهم بالصبر والتقوى ، لأن الصبر والتقوى من عزم الأمور .

• **اختيار العدد خمسة آلاف :** لأن جيش الملائكة في أحد لن يشارك من أول المعركة كما فعل جيش الملائكة في بدر ، لذلك زاد الله ﷻ جيش الملائكة في أحد عن عدد أفراد جيش العدو بألفين ، لأنه اشترط لاشتراك الجيش بعد نزول ثبات وصبر المسلمين في المعركة ، أي أن يستأسدوا في المعركة ، ولا يكون شاغلهم سوى نصرة الله وليس كسب المغانم ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد انتصروا على العدو دون حاجة إلى عون ، فلماذا العون ، لأن جيش الملائكة إذا صبر واتقى جيش المسلمين سيشتبك في المعركة لاستئصال جيش العدو . لتحسم معركة الكفر مع الإسلام بشكل حاسم .

• **تنوين العدد آلاف :** العدد يأتي منوناً للدلالة على حذف التمييز . فكلمة (مِّنَ الْمَلَائِكَةِ) ليست هي التمييز ، ولو كانت تمييزاً لجاءت كلمة (ءَالْفِ) بدون تنوين . ولجاء بعدها مفرد ، لذلك فقوله من الملائكة ليست تمييزاً للعدد ، لكنها تمييز للتمييز المحذوف ، والتقدير : خمسة آلاف جندي من الملائكة .

• **حذف التمييز العدد آلاف :** حذف التمييز يعني أن العدد نعت لمنعوت محذوف ، والعدد إذ جاء بعد معدوده دل هذا على اقتصار المعدود على هذا العدد لا يزيد ولا ينقص .



وعند إرادة الكثرة عدل عن وزن أفعال إلى وزن فِعُول الذي يعطى انطلاقة غير محدودة فقال : أَلُوفٌ .

• ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (البقرة ٢١٣)

انظر عندما أراد الكثرة عدل عن جمع القلة (أفعال) إلى جمع الكثرة (فِعُول) فاستخدم جمع الكثرة (أُلُوفٌ) التي تعنى أنها أعداد تفوق عشرات الآلاف ، وجاء بها نكرة غير مسبوقة بعدد لإفادة الكثرة ، وعلى وزن فِعُول الذي يفيد الكثرة ويحمل معنى التدفق والانسياابية : فهو وزن انسيابي مرسل وتركه دون أعداد لينطلق الذهن رمع انطلاسته ، فالعدد مطلق قابل لتخيل الزيادة .

بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ :

[الأنفال]	{ ٩ }	مُرْدِفِينَ	مِّنَ الْمَلَائِكَةِ	بِأَلْفٍ	أَنِّي مُمِدِّكُمْ	{ ① }
[آل عمران]	{ ١٢٤ }	مُنْزِلِينَ	مِّنَ الْمَلَائِكَةِ	بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ	أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ	{ ② }
[آل عمران]	{ ١٢٥ }	مُسَوِّمِينَ	مِّنَ الْمَلَائِكَةِ	بِخَمْسَةِ أَلْفٍ	يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ	{ ③ }

موضع المغايرة :

١. ■ اختلاف صيغة التعبير بين الاسمية في الصورة الأولى (أَنِّي مُمِدِّكُمْ) ، وفعلية في الثانية والثالثة (يُمِدَّكُمْ) .
٢. اختلاف الصيغة : المتكلم في الصورة الأولى فحسب .
٣. اختلاف العدد (بِأَلْفٍ) في الصورة الأولى ، و(بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ) في الصورة الثانية ، و(بِخَمْسَةِ أَلْفٍ) في الصورة الثالثة .
٤. اختلاف الوصف (مُرْدِفِينَ) في الصورة الأولى ، و(مُنْزِلِينَ) في الصورة الثانية ، و(مُسَوِّمِينَ) في الصورة الثالثة .

مفتاح المغايرة :

- اختلاف المعركة ، والقائل ، فالنص الأول المعركة بدر ، والقائل الله y ، والنص الثاني والثالث الموقعة أحد والقائل النبي S .

مخايرة قرآنية | اختلاف الصيغة :

الصورة الأول 1-ى : { مُمِدُّكُمْ }^(١) : جاءت الأولى في صيغة اسمية لأن الصيغة الاسمية تفيد الثبات ، لأنها أولاً على لسان الله فهي محققة الحدوث ، ولأنها ثابتة بتحققها . ولم يذكر لفظة ربكم لأن القائل هو الله .

الصورة الثاني 2-ة : { يُمِدُّكُمْ }^(٢) : جاءت في صيغة فعلية لأنها على لسان الرسول S ، ومحتملة الحدوث ، فقد لا يلتزمون بالشرط فلا تحدث ، وهذا ما حدث . وبذلك في الاحتمالية استخدم الفعلية . وفي المحققة استخدم الاسمية . وذكر لفظة ربكم لأن القائل هو الرسول S وليس الله .

وجاء الفعل (يُمِدُّكُمْ) بدون فك إدغام الدال لأن الفعل منصوب ، أى أن المثلث الثاني متحرك ، وعند سكون المثلث الأول وتحرك الثاني يحدث الإدغام .

الصورة الثالث 3-ة : { يُمِدِّدُكُمْ }^(٣) : جاءت في صيغة فعلية لأنها على لسان الرسول S ، ومحتملة الحدوث ، فقد لا يلتزمون بالشرط فلا تحدث ، وهذا ما حدث . وبذلك في الاحتمالية استخدم الفعلية . وفي المحققة استخدم الاسمية . وذكر لفظة ربكم لأن القائل هو الرسول S وليس الله .

وجاء الفعل (يُمِدِّدُكُمْ) بفك إدغام الدال لأن الفعل مجزوم ، أى أن المثلث الثاني ساكن ، وبذلك التقى ساكنان ، فحرك المثلث الأول بالكسر فانفك الإدغام .

(١) سورة الأنفال : { وَمَنْ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَتَى مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَكَةِ مُرْدِفٍ } (٩) .

(٢) سورة آل عمران . { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَكَةِ مُنَزَّلِينَ } (١١٤) .

(٣) سورة آل عمران { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَكَةِ مُسَوِّمِينَ } (١١٥) .

مخايرة قرآنية | اختلاف الحدود :

الصورة الأولى ①: { يَأْلِفُ }^(١) : في غزوة بدر ، أنزل الله ألفاً من الملائكة لأن الكفار كانوا ألفاً فنزل ما يوازيهم من الملائكة عدداً ، ويزيد المسلمون بعددهم .

الصورة الثانية ②: { ثَلَاثَةَ أَلْفٍ }^(٢) : النبي S يعد المسلمين في غزوة أحد بنزول الملائكة بشرط أن يصبروا ويتقوا . وقد ذكر العدد ثلاثة آلاف قياساً على ما فعله الله Y في بدر عندما أنزل ملائكة بعدد جيش الكفار ، فحدد العدد مماثلاً لعدد الكفار في أحد ، كما نزلت ملائكة بدر مماثل لعدد الكفار في بدر .

الصورة الثالثة ③: { بِخَمْسَةِ أَلْفٍ }^(٣) : هو استمرار حديث النبي S في النص السابق ، يقول للمسلمين مؤكداً على كلامه السابق ، لو التزمت بشرطي لا ينزل هذا العدد فحسب بل أزيد منه ، ولهذا زاد العدد إلى خمسة آلاف . وقد زاد النبي S العدد لأنه في النص السابق قال لهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ؟ فزاد العدد ليحقق لهم الكفاية . ولم تنزل الملائكة في أحد ، لأنه اشترط أن يصبروا ويتقوا ، وهم في تلك الحرب لم يلتزموا بشرطه ، فلم يصبروا على الغنائم ، ولو التزموا بالشروط الذي اشترطه عليهم لنزلت الملائكة في أحد كما نزلت في بدر .

(١) سورة الأنفال { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ } ٩ .

(٢) سورة آل عمران ، { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ } ١٧٤ .

(٣) سورة آل عمران { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } ١٧٥ .

مخاطبة قرآنية | اختلاف الحال :

الصورة الأولى ١-ي : {مُرْدِفِيكَ} ^(١) : خاصة ببدر لأن الملائكة كانت متقدمة للعسكر يلقون في قلوب العدو الرعب . جاء في مفردات الراغب أن المرادف هو المتقدم الذي أردف غيره . فكأنهم كان في الأمام ، والجيش وراءهم . لأن مهمتهم لم تكن القتال ، بل بث الرعب في قلوب الأعداء فلا بد أن يتقدموا الجيش .

الصورة الثانية ٢-ة : {مُنْزِلِينَ} ^(٢) : أي منزلين بالنصر . فهو يقول لهم ألن يكفيكم ؟ فهم لا يكفيهم إلا الحد الأقصى ، وهو النصر ، فكأنه يقول لهم ألن يكفيكم أن ينزلوا بالنصر؟ فلأنه يريد ما يكفيهم ذكر النصر لأنه الذي يكفيهم .

الصورة الثالثة ٣-ة : {مُسَوِّمِينَ} ^(٣) : أي معلمين . وقد ربطهم بالصبر والتقوى ، لأن الصبر والتقوى من عزم الأمور :

• ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦) ﴿آل عمران﴾ .



(١) سورة الأنفال {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} ٩ .

(٢) سورة آل عمران . { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ } ١٢٤ .

(٣) سورة آل عمران { بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } ١٢٥ .

المبحث الثالث : انعدام التمييز:

هي أعداد شاء الله γ أن يحجز عنها تمييزها .. وسوف تعرفها بما يأتي : أن يصبح التمييز موصوفاً والعدد وصفاً مثل قوله تعالى (وَالْفَجْرِ ١) وَلَيْلٍ عَشْرِ ٢) ، أو أن يكون التمييز مجروراً بالإضافة وهو كل عدد قبل وبعد الأعداد (١١-٩٩) ثم ينون العدد ، هنا يكون التنوين مانعاً للتمييز ، لأن العدد مضاف ، والمضاف من لوازمه إسقاط التنوين . أو يأتي بعد العدد (١١-٩٩) جمعاً .. فالمعلوم أن تمييزه مفرد ، هنا لا يكون الجمع ليس تمييزاً ، ويكون من موضوعات هذا المبحث ألا وهي : الأعداد الفاقدة للتمييز .

والقانون العددي :

- العدد قبل المعدود : ينصب الحديث عن بعض من كل ، أي نتحدث عن العدد المحدد من بين أعداد أكبر منه .
- العدد بعد المعدود : هذا يعني اقتصار المعدود على هذا العدد دون زيادة أو نقصان.

وسوف نقف في هذا المبحث على استعمالات القرآنية التي جاء فيها المعدود بعد العدد ، وهي أمثلة ليست قليلة وإن بدت كذلك ، ذلك لأنني أرى أن تنوين العدد يمنع المعدود المجرور إليه بالإضافة ، ومن ثم فإنزاحة المعدود من مكانه لوجود مانع بالإضافة يعني أن هذا المعدود الموجود حتماً ، والممنوع من أن يوجد بعد العدد ، لهو موجود قبل العدد ، فهو موصوف محذوف والعدد صفته ، لذلك سنجد أن العدد يأتي بعد المعدود في صورتين :

✽ والمبحث الثالث : يتناول احتجاب التمييز ، ويقع في ..

١- وليالٍ عشر . ٢- وكنتم أزواجاً ثلاثة .

٣- في ظلمات ثلاث . ٤- يأكلهن سبع عجاف .

٥- سبع شداد . ٦- تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ

٧- سيقولون ثلاثة.

- ٨- وازدادوا تسعاً .
- ٩- منها أربعة حرم .
- ١٠- سبعاً شداداً .
- ١١- ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .
- ١٢- إن لبثتم إلاّ عشراً
- ١٣- من يمشي على أربع .
- ١٤- وأتممناها بعشر
- ١٥- عليها تسعة عشر .
- ١٦- فإن أتممت عشرا
- ١٧- وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً
- ١٨- وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون .
- وبذلك تقع مباحث هذا الفصل في ٣٤ مثلاً .

المثال الأول

وَلَيَالٍ عَشْرٍ :

❖ ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر) .

يقسم الله ﷻ بالزمن المقدس المبارك .. الفجر ، وهو ضوء الصباح بعد زوال الليل .
وقيل إن اللام جنسية يقصد كل فجر . بينما رأى ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء ، أن هذا
الفجر هو فجر عيد النحر .

وأنا أميل إلى الرأي الآخر . وخاصة أن ما بعدها يقصد به ليالى ذي الحجة ، مما يقوى
أن الفجر هو فجر أول يوم بعد الليالي العشر .

إن الشهر يبدأ بالليلة ، فتحن نصلى تراويح رمضان في آخر يوم شعبان ، مما يدل أن
رمضان بدأ بالليلة . وبذلك نرى أننا عندما نصل إلى اليوم التاسع من ذي الحجة يكون
قد انقضى عشر ليال من ذي الحجة ، وهي ليلة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠)
فالمجموع عشر ليال .

فإن الله ﷻ يقسم والله يقسم بمخلوقاته تعظيماً لها . وقد أقسم هنا بفجر يوم النحر
، وليالى ذي الحجة العشرة التى سبقتها . أما فجر يوم النحر فهو أروع أيام الدنيا كلها
 . وليالى ذي الحجة العشر لبركتها ، وكما قال ابن عاشور لا يوجد في ليالى السنة عشر
ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذي الحجة . لأنها وقت مناسك الحج ، ففيها يكون الإحرام
ودخول مكة وأعمال الطواف ، وفي ثامنتها ليلة التروية ، وتاسعتها ليلة عرفة ، وعاشرتها
ليلة النحر .

وجاء العدد (عَشْرٍ) لأن الليالى التى تسبق فجر عيد الأضحى هي بالتمام عشر ليال ،
ليلة الأول من ذي الحجة ، حتى ليلة العاشر من ذي حجة . فالشهر يبدأ بالليل . مثلاً يبدأ
رمضان بالليل ، فيصلى الناس التراويح قبل الصيام ، ولا يصومون إلا في اليوم التالى .
وهذا العدد كل عام لا يزيد ولا ينقص .

وجاءت كلمة (وَلَيَالٍ) نكرة ، لأنها تتكرر كل عام بشكل يختلف عن ليالي العام الآخر ، ووصفت بكلمة (عَشْرٍ) لتطابق عدد ليالي الشهر قبل فجر يوم النحر .

وجاءت متأخرة عن معدودها ؛ ليقرر أنها مقتصرة على هذا العدد ، فلا تزيد أو تنقص عن هذا العدد في أي عام .

عشر ليالٍ : أي عشر ليالي من ليالٍ أكثر .

ليالٍ عشر : أي عشر ليالٍ لا تزيد ولا تنقص .

ولأن تلك الليالي عشر لا تزيد ولا تقل كل سنة ، لذلك لم يأت العدد قبل المعدود ، إنما جاء بعد المعدود ليغلق هذا العدد ويقتصر عليه .

والفكرة تتلخص في أن ذكر العدد أولاً يفيد أنك تحدد عدداً ما ، كان يمكن أن يكون غيره ، أي أن تحديده يحتمل أن يكون في موقف آخر غيره ، أما جعل العدد بعد المعدود فهذا يعنى أنه يجعل العدد صفة المعدود ، ومن ثم لا يفارقها ، فهما كالكلمة الواحدة .



المثال الثاني

أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً :

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ (الواقعة) .

استخدم النص السابق القانون نفسه ، وجاء بالعدد بعد المعدود ، ليدل على أن الأزواج ثلاثة فحسب ، لا يمكنها أن تكون زيادة عن ذلك أبداً .

يقول الله **Y** (أَزْوَاجًا) والزوج هو الفرد الذي يقترن بغيره ، فالزوج هو الواحد الذي معه غيره ، وهي تختلف عن كلمة القرين ، فالقرين هو المثل المستقل بذاته عن قرينه ، والزوج هو الملازم المكمل للآخر ، أو الصنف والنوع المقترن معه غيره .

ثَلَاثَةً وضع العدد بعد الوصف وليس قبله يعنى أن العدد أحد مقومات الموصوف فهم لا يخرجون عن ثلاثة أزواج ، لا يزيدون ولا يقلون .

يتحدث الله في هذه السورة (الواقعة) عن ثلاثة أقسام : وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾

١- أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ

٢- أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

٣- السَّيِّئُونَ

اثنان في الجنة وواحد في النار فأما الخاص بالنار فقد أسماه أصحاب المشأمة ، وأما قسما الجنة فهما : (السابقون السابقون ، أصحاب الميمنة) ، فالسابقون الذين يقفون في بين يدي الله **Y** ، وأهل الميمنة الذين يقفون على يمين العرش ويأخذون كتابهم بيمينهم ، ويتجهون إلى اليمين حيث الجنة ، وأهل المشأمة الذين يقفون على يسار العرش ويؤتون كتابهم بشمالهم ، وينتهون إلى ذات الشمال حيث النار .

والنص الأول من نصيب السابقين ، والثاني من نصيب أصحاب اليمين . فالسابقون يتكونون من (كثير من الأولين ، وقليل من المتأخرين) . أما أصحاب الميمنة فيكونون من

(كثير من الأولين ، وكثير من المتأخرين) . والسورة (سورة الواقعة) تقرر ذلك بوضوح فتذكر في كل قسم عدد أتباعه من الأولين ومن المتأخرين :

وَالصِّدِّيقُونَ الصِّدِّيقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾
عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

ونرى أن الفاصل بين الأولين والمتأخرين هو محمد S وصحبه ، وبموت آخر أصحابه يبدأ زمن المتأخرين . فمن آمن به عن رؤية من صحابته هو من الأولين ، ومن آمن به عن ظهر الغيب دون أن يراه هو من المتأخرين . وبذلك يكون محمد وصحبه من أهل الزمن الأول ، ومن صحابته : السابقون ومنهم من أصحاب اليمين . ويكون كل من آمن بمحمد غيباً دون أن يراه أصحاب الزمن الثاني (المتأخرون) ، وهذا النوع سيكون منه قليل مؤهل للمرتبة الأولى (عمل الأنبياء والصديقين) وسيكون منه كثير للمرتبة الثانية (الميمنة) .

وعلى هذا يمكن أن نقول : إن السابقين في الزمن الأول كثيرون ، وهم الأنبياء والرسل وأصحاب محمد ، فهم كثيرون . أما الزمن الثاني وهو بعد وفاة آخر صحابي فعدد الذين يقتدون بالأنبياء والصحابة قليل . لهذا قال : إن عدد السابقين من الأولين (ومحمد وصحبه : هم خاتمة الأولين) كثير بالقياس لمن يكون على شاكلتهم ممن جاء بعدهم . وبذلك جاء الخبر عنهم : ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ . والرسول S وأصحابه من الزمن الأول ، ولهذا كثر السابقون في الزمن الأول ، لكن لم يفلق الباب أمام أهل الزمن الثاني ليلحقوا بهم ، لكنهم لن يكونوا كثيرين مثلهم ، فقد أكثرهم محمد وصحبه .

أما أصحاب اليمين فهم المؤمنون الذين يخلصون بالإيمان ، لكنهم لم يصلوا إلى درجة الأنبياء والرسل والشهداء والحواريين والصحابة ، وهؤلاء كثيرون في الزمن الأول ، وكثيرون في الزمن الثاني . وبذلك جاء الخبر عنهم : ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ . فعدد أهل الجنة مرتبة أصحاب اليمين (المرتبة الثانية بعد السابقين) لو افترضنا أن عددهم ١٠٠٪ : فإن خمسون في المائة منهم من المسلمين بعد الصحابة (من أمة محمد) ، وخمسون في المائة منهم ممن سبقهم . وقد يدخل منهم مسلمون من أصحاب النبي S ممن تأخرت به مرتبته عن مرتبة السابقين ، فدخل في أصحاب اليمين ، ولهذا يصبح للمسلمين الأغلبية

في الجنة ، من آمن بمحمد بالغيب دون أن يراه يحتلون خمسين في المائة ، ومن آمن به وقد رآه فهو إما من السابقين أو من أصحاب اليمين . وبذلك نرى أن المسلمين بظهر الغيب يمثلون شطر الجنة : وسائر الأمم قبل بعثة محمد شطرها الآخر ويشاركهم فيها أصحاب النبي S الذين صاحبوه لكنهم لم يكونوا من السابقين . ولعل هذا يصدق قول رسول الله S : « بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني » ورواه الإمام أحمد عن أسود بن عامر عن شريك عن محمد بن عمار عن أبي هريرة فذكره.

إن المسلمين بعد الصحابة (مسلمو ظهر الغيب) الموجودون في أصحاب الميمنة يساوون في عددهم كل من سبقهم بدءاً من صحابة النبي S الذين سيكونون في الميمنة انتهاء إلى عهد آدم . فإن أضفنا إليهم المسلمين من الصحابة دانت لهم الغالبية . ولهذا أخبر النبي S أن الملائكة ستقول : « لما جاء مع محمد S أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام ».

وإذا كان المسلمون أكثر من نصف الميمنة ، فإنهم في السابقين : أيضاً أكثر ، لأن القليل كله منهم . أما الكثير فيضم الأنبياء ومن أخلص لهم الاتباع كأبي بكر لمحمد S ، ولم يتبع الأنبياء إلا قليل ، فهذا نوح في أكثر الروايات تجاوزاً يقرر أنه لم يتبعه سوى ثمانين بعد ألف عام إلا خمسين ، وهذا لوط لم يخرج من قريته سوى بأهله إلا امرأته . وهذا عيسى لم يتبعه سوى الحواريين . وهم كما يقرر الإنجيل عددهم اثنا عشر ، وإبراهيم عليه السلام لم يخرج معه سوى زوجته وابن أخيه لوط النبي ، فالأنبياء لم يتبعهم بإخلاص يؤهل لمرتبة السابقين سوى الآحاد أو المئات ، ومحمد قد صحبه الآلاف قبل وفاته ، وأكثرهم من السابقين ، وقليل منهم من أهل الميمنة .

فإذا أضيف إليهم سابقو الزمن الثاني (قليل من المتأخرين وكلهم من المسلمين) أصبح محمد S وأتباعه أيضاً أغلبية هذه المرتبة الأولى . كل هذا على قلة عدد المسلمين بالقياس للأمم السابقة فما هم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود كما وصفهم نبيهم S .

أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش. وهم الذين

خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين وقال السدي: وهم جمهور أهل الجنة آخرون عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار. عياداً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه Y وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين

: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»

الصورة الثانية 1: { إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } : يتحدث عن المتقين ، فيرجع حسن الثواب الذي أخذوه من ربهم إلى حسن أعمالهم في الدنيا .

□ يتحدث عن المتقين : إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾

□ فيرجع حسن ثوابهم : فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ ﴿١٦﴾

□ إلى حسن أعمالهم في الدنيا : إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

□ ويفسر أعمالهم الدنيوية : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

أَصْحَابُ الشَّامِلِ	الْمُتَّقِينَ	
فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْتُمُونَ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾	فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ	المصير
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾	إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾	السبب (فعلهم في الدنيا)
وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ءَأَنَّا لَمَبْعُونُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾	كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾	توضيح أفعالهم الدنيوية



المثال الثالث

ظُلِمَتْ ثَلَاثٌ :

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (النمر)

استخدم النص السابق القانون نفسه ، وجاء بالعدد بعد المعدود ، ليدل على أن الأزواج ثلاثة فحسب ، لا يمكنها أن تكون زيادة عن ذلك أبداً .

النص يتحدث عن خلق الإنسان وهو جنين في بطن أمه ، وقد جاء النص يستخدم الفعل المضارع (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) بالرغم أنه استخدم الماضي في الآية نفسها ، فقال Y :

١- خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ

٢- يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ

فالأولى يتحدث عن فكرة الخلق وتحقيقها عن طريق التزاوج بين آدم وحواء ، وهذا تم قبلاً ، فالمناسب له الماضي . والثانية يتحدث عن تجدد خلق كل إنسان ، فالإنسان يُخْلَقُ اليوم ويُخْلَقُ غيره غداً ، أي تجدد وانقطاع ثم معاودة ، فلا يناسب ذلك سوى المضارع .

أما قوله تعالى (خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ) فيعني أن كل مرحلة من مراحل الإنسان هي خلق ، فالعلقة خلق ، والمضغة خلق ، والعظام خلق . أما قوله تعالى : (فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) : فنجد أن لفظة ثلاثة خالفت بناءها الأصلي فجاءت خلواً من التاء أي هي فرع الكلمة ، وهذا يعني أنها لا تتحدث عن أصل الأنواع وهو المذكر ، بل فرعه المؤنث .

وجاء التعبير العددي مخالفاً طريقة ذكر الأعداد ، فقد جاء العدد بعد المعدود ، وهذا قانون يقننه القرآن الكريم في الاستعمال اللغوي للغة العربية :

إذا جاء العدد قبل معدوده ، فالمعدود لا يقتصر على العدد ، وما العدد إلا بعضه .

وإذا جاء العدد بعد معدوده ، فالمعدود مغلق على هذا العدد ولا يزيد عنه .

طُلُمَتِ ١- الظلمة الأولى : تجويف أنبوب الرحم . (ظلمة مرحلة التلقيح) .

٢- الظلمة الثانية : ظلمة تجويف الرحم (ظلمة طور العلقه) .

٣- الظلمة الثالثة : ظلمة الأغشية والسائل الأمينوسي .^(١)

استخدم (ثَلَاثِ) لأن تلك عدد الظلمات ، وجاء بها بعد الموصوف ولم يأت بها قبلاً ، لأن مجيئها قبلاً يعنى احتمالية التزايد ، وأنها ثلاثة لكن هناك حالات أخرى فيها أربعة ، أو أكثر ، فقولنا ثلاث ظلمات يعنى احتمالية أن يكون الأمر ثلاث ظلمات أو أربع ظلمات ، لكن القول (فِي طُلُمَتِ ثَلَاثِ) يعنى أن العدد أحد مقومات الموصوف ، وأن تلك الظلمات لا تكون إلا ثلاثاً .



(١) عدنان الشريف ، من علم الطب القرآني ، ص ٨٢ .

المثال الرابع

سَبْعُ عِجَافٍ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ ﴾ (يوسف) .

يبدأ النص بحلم الملك :

وَقَالَ الْمَلِكُ
ال العهدية أى ملك هذه البلاد (مصر) ، ولم يقل فرعون لأن نظام الحكم الذي يحكم في عهد يوسف يختلف عن نظام الحكم في عهد موسى ، فجاء الاستعمال في عصر يوسف (الملك) وفي عصر موسى (فرعون) وفي ذلك إشارة إلى أن مصر كانت محكومة بالهكوس في عهد يوسف ، بينما رجع الفراعنة للحكم في عهد موسى.

إِنِّي
جاء التوكيد ؛ لأنه يدري أن حلمه غير معقول ، ولن يصدق ، وسيقال له : أضغات أحلام . لذلك بدأ كلامه بالتأكيد لتوقعه أن يقابل بالتشكيك.

أَرَى
استخدم الفعل المضارع لأن الرؤيا تكررت عدة مرات ، وهذا الإلحاح هو ما أقلقه منها ، ولعلها لو كانت مرة واحدة ما أعارها اهتماماً ، ولقال هو نفسه : أضغات أحلام .

مخايرة قرآنية | اختلاف صيغة الفعل :

- صيغ المنام بالفعل المضارع مع ملك مصر في عهد يوسف عليه السلام ، وبالفعل الماضي في منام إبراهيم عليه السلام ، وهذه المغايرة تكشف عن السر وراء الاستعمالين :

{ وَقَالَ الْمَلِكُ } ① { إِنِّي أَرَى } ④٣ { يوسف }

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ } ② { إِنِّي رَأَيْتُ } ④ { يوسف }

الصورة الأول ①ى: { إِنِّي أَرَى } : استخدم الملك لفظة المضارع لرؤيته لأنه يحلم بتلك الرؤية بشكل متعدد . إي تكررت رؤياه بحذافيرها أكثر من مرة ، فأزعجه تكرارها .

الصورة الثاني ②ة { إِنِّي رَأَيْتُ } : استخدم يوسف لفظة الماضي في رؤياه لأنه لم يحلم بهذا الحلم إلا مرة واحدة .

سَبْعَ هذا العدد هو ما رآه في الحلم فعلاً ، رأى أولاً سبع بقرات سمان خرجن من البحر ، في آثارهن سبع بقرات عجاف ، فأقبلت العجاف على السمان ، فأخذن بأذناهن إلى القرنين ، وبعد ابتلاع العجاف للسمان ظلت كما هي عجافاً لم تسمن مما أكلنه شيئاً . ثم خرج بعدها سبع بقرات عجاف فابتلعت السمان ، ثم ظلت كما هي عجاف لا يبدو عليها شيء مما أكلن من السمان . رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر ، في آثارهن سبع عجاف ، فأقبلت العجاف على السمان ، فأخذن بأذناهن فأكلنهن إلى القرنين ، ولم يزد في العجاف شيء . ولأن تلك الرؤيا رمز للواقع ، فسيكون هذا العدد هو نفسه عدد السنين التي ترمز لها كل صنف من البقرات .

بَقَرَاتٍ وقال بقرات ولم يقل (بقر) لأن البقر يدل على جنس البقر ، والبقرات جمع سالم يفيد القلة ، والسبع من القلة . وحجب ألف جمع المؤنث السالم لأن أفراد هذا الجمع وإن تشابهت تلك المجموعة فإنها تختلف عن أفراد المجموعة الأخرى . ولم يقل (بقرات سبعة) ؛ لأنه لم يكن ثمة حصر لهذا العدد تحديداً ، فالأمر في بدايته يحتمل أي عدد . ولم يقل (سبعة من البقر) لأن هذا يعني تفاوت في أنواعها أو أحجامها ، وهو يريد تساوي أفراد كل نوع فيما بينها .

سِمَانٍ هي المقابل لعجاف . ولذلك استخدمها في التحول إلى الضد ، ليؤكد أن العجف هو التخلص من الشحم . في حين جاءت كلمة خضر مقابلاً ليابسات دلالة على أن الخضر هي ما احتوت على الماء ، واليبس ما خلا من الماء .

كتبت ألف المساواة في الكتابة الخطية (سِمَانٍ) لأن البقرة السمينة هي سنة

الرخاء ، وكل سنة لا تقل رخاء عن الأخرى ، وقد جسد الحلم السنة شديدة الرخاء بالبقرة ، وجاءت الأبقار في الحلم متماثلة تعبيراً عن أن سنوات الرخاء متماثلة .

استخدم المضارع (يَأْكُلُهُنَّ) لاستحضار الصورة تعجباً . وتلاحظ أنه ذكر المفعول أولاً (البقر المأكولة) دلالة على أن البقرات السمان (سنين الرخاء) تأتي أولاً . فلم يقل (سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان) مراعاة للترتيب ، فالسبع السمان إشارة إلى سبع سنين رخاء ، وتلك تأتي أولاً قبل سنين الجفاف التي رمز إليها بقوله (سبع سنين عجاف) فلما كان سنين الرخاء قبل سنين الجفاف جاء بما يرمز للرخاء أولاً .

يقصد البقرات الآكلة ، وقد جاء التعبير عنها بتتوين العدد (سَبْعٌ) والتتوين يقطع الإضافة ، وقد دأبنا على التأكيد أن العدد المنون يكون بلا تمييز ، ويكون نعتاً لمعدود محذوف ، والتقدير يأكلهن بقرات سبعٌ ، وبوجود العدد بعد معدوده يفيد الاختصار على هذا العدد . وبذلك ترى أن الحلم بدأ بسبع بقرات ، أي لم يكن معلوماً ما عدد البقرات ، ويمكن أن تكون أكثر من سبع ، لأن البقر المأكول ممكن أن يكون قابلاً للزيادة أو النقصان ، أما العدد الآكل فمرتبط بالعدد الذي يؤكل ، لن يزيد ، لذلك جاء في المأكولة القابلة للزيادة والنقصان بتمييزها بعدها ، وجاء في الآكلة محذوفاً تمييزها لأنه مادام مرتبط بالمأكولة فالعدد مقتصر على عددها وهو سبع ، وليس قابلاً للزيادة لأن العدد الأول تم تحديده .

وصف البقرات الآكلة بالعجاف ، وهي جمع عجفاء التي تعنى الهزلى التي لا لحم عليها ولا شحم . وقد ثبت ألف الجمع (عَجَافٌ) لأن كل البقرات التي رآها الملك في الحلم كانت متساوية في الهزال .

يستخدم القرآن في موضع الذبول لفظة عجفاء : للكائن الحي الذي لم تفارقه الروح ، ويستخدم للنبات لفظة يابسة . فاليبس هو الخلو من الماء . لأن يابسة تعنى أنها خلت من الماء . وبذلك يكون التفرقة بين الجمعيين على أساس : المسحوب من هذا الشيء . فإذا كان

يَأْكُلُهُنَّ

سَبْعٌ

عَجَافٌ

المسحوب ماء المسحوب منه ذلك الماء : : يابس ، لأن اليابس ضد الماء ، وإن كان المسحوب منها لحماً وشحماً سمى المسحوب منه عجاف .

جمع يعبر عن عدم وجود اللحم والشحم
جمع يعبر عن الجفاف وعدم وجود الماء.

عجاف
يابسات

فالسّر إذن في حذف التمييز في البقرات الآكلة أنها محددة بعدد البقرات المأكولة ، ومادام محددة فيجب أن يتم الاختصار عليه ، والاختصار بختم العدد على المعدود ، ومن ثم إزاحة المعدود قبل العدد ، ويكون العدد صفته ، وهنا حذف الموصوف ، والدليل أن بقرات المحذوفة حذفت على هيئتها كموصوف وليس على هيئتها لتمييز هو الحكم الإعرابي للنعت عجاف ، فقد جاءت مرفوعة ، أي هي نعت للفاعل (يأكلهن بقرات سبع عجاف) أما لو كانت وصفاً للتمييز المحذوف : لجاءت عجاف مجرورة لتطابق التمييز المجرور . (يأكلهن سبع بقرات عجاف) وهذا ما حدث في غير هذا الموضع ، إذا أبقى التمييز وأتى بالنعت جاء النعت يطابق التمييز :

- (وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ) فخضر هنا نعت للتمييز الذي لم يحذف .
- وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ : جاءت خضر أيضاً مجرورة لأنها تطابق سنبلات .

وهكذا لم يكن المحذوف هنا التمييز ، بل الموصوف والتقدير : يأكلهن بقرات سبع عجاف . وبهذه الوضعية يكون العدد قصراً لهذه البقرات ، فلا ينبغي لها أن تكون إلا كذلك .



المثال الخامس

سَبْعُ شِدَادٌ :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ (يوسف) .

هذا كلام يوسف عليه السلام في تفسير المنام قال أولاً : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ) .

ذكر يوسف عليه السلام التمييز بعد العدد : (سبع سنين) لأن البداهة تتطلب وضع التمييز ، وهو يفسر غامضاً عليهم ، فلا يعرفون ما المقصود بالسبع ، فجاء التمييز لأن العدد يتطلب احتمالات عديدة . كما أن يوسف يتمنى أن تتم مواصلة الزراعة حتى بعد سنين الرخاء ، فلو تمكنوا من أن يزرعوا في سنين الشدة فيها ونعمت ، فهو لا يريد الحصر ، لذلك جاء بالتمييز بعد العدد .

وقد استخدم نفس العدد (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا) لأن المنام استخدم البقرة والسنبلة للتعبير عن السنة ، وهذا يعنى أن الجفاف يصيب الحيوان والنبات ، وفي إصابتهما هلاك للإنسان . واستخدم لفظة (سِنِينَ) ولم يقل سنوات ، لأن السنوات لا تدل على اتصال السنين ببعضها ، بخلاف سنين فهي تدل على أنه زمن متصل .

وقد أمرهم أن يتركوا الحنطة في السنبلة ، لا تخرج منها ، فلا يسرع الفساد إليها . لأن بقاءه خارج سنبله يعرضه لأن يتسلل السوس إليه لو بقى عامين كما هي الحال في مصر . واستثنى من الحنطة المتروكة في سنبلة قليلاً منها لتكون أكلهم في سنين الخصب فلا يفرهم كثرة الرخاء على الإسراف ، فعليهم أن يجعلوا أكلهم قليلاً ، لأن خير هذه السنوات ليس لها ، ولكن لها ولسنوات العجاف بعدها ، فعليهم أن يجعلوا خير سنوات الرخاء رصيماً ينتفعون به في سنوات القحط . وبذلك يحفظون الكثير ، ويأكلون القليل الذى يكفى حاجتهم . ثم قال :

• ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ ﴾ (يوسف) .

وحذف سنين ، وجاء بشداد مرفوعة دلالة على أنها نعت لسبع ، وليست نعتاً للتمييز لأنه مجرور ، أي أن كلمة سنين هنا ، لا مكان لها بين سبع وشداد ، فهي محذوفة لتكوين سبع ، وليست مقدرة لرفع شداد ، فهي إذن موصوف مقدم محذوف ، والتقدير : ثم يأتي من بعد ذلك سنون سبعٌ شدادٌ . مثل المبحث السابق (يأكلهن بقراتٌ سبعٌ سمان) . وبذلك يختم العدد على الموصوف قبله ويسجنه داخله ، فهي سبع فحسب ، فهي مماثلة للحلم الذي تطابق فيه سنون الجفاف سابقتها سنين الرخاء في العدد مثلما طابقت البقرات العجاف سابقتها البقرات السمان .

وبذلك يكرر القرآن أسلوب الحلم نفسه في تفسيره ، فالحلم في سنوات الرخاء لا يدري ما هي قبل بدايتها ، لكن سنوات الشدة مرتبط بنفس عدد سنوات الجفاف ، لذلك يأتي بسنوات الجفاف غير مقيدة ، ومحتملة أن تزداد ، وتأتي سنوات القحط مقيدة ، لا تقبل الزيادة لأنها مرتبط بالعدد السابق المحدد .

وقد وصفت سنين القحط بالشداد ، . وقد وردت كلمة شداد في القرآن الكريم إلى جوار وصفها لسنين الجذب لتصف ملائكة العذاب ، وهم شداد البدن ، تبلغ قوة الواحد أن ضربته بالمقمع تدفع سبعين ألف في قعر جهنم كما قال ابن عباس . وكذلك وردت لوصف السموات وقوة بنيانها وشدة تماسكها وهو تماسك مادي . فهي خاصة بالقوة المادية المجردة التي لا تعرف الرحمة . ولا يختلف جزء منها عن الآخر ، فإن وصف بها مكان ، فالشدة تغطي المساحة كلها ، وإن وصف بها زمان فالشدة تشمل المدة كلها ، أي أن كل يوم من هذه السنين سيكون النسيج نفسه . ولذلك جاءت الكلمة تحمل ألف المساواة (شِدَادٌ) للدلالة على أن كل مفرداتها متساوية .

وأيضاً هكذا لم يكن المحذوف هنا التمييز ، بل الموصوف والتقدير : يأكلهن بقراتٌ سبعٌ عجافٌ . وبهذه الوضعية يكون العدد قصراً لهذه البقرات ، فلا ينبغي لها أن تكون إلا كذلك .



المثال السادس

تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (البقرة).

أوجب الله ﷻ هدياً على المتمتع في الحج (الذي يجمع بين العمرة والحج أي يتمم العمرة ، ثم يتحلل ويؤم للحج) ، فمن لم يجد الهدى ، فعليه كفارة صيام عشرة أيام تقسم على مرحلتين :

١- في الحج : يصوم ثلاثة أيام .

٢- بعد رجوعه إلى موطنه : يصوم سبعة أيام .

وقد سبق أن تناولنا تلك الآية في الفصل الأول ، وهنا نقف فحسب على التمييز ، وقد وجدنا ثلاثة أعداد :

١- فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ

٢- وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ

٣- تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ

فأما العدد الأول (ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) ذكر العدد أولاً ؛ لأن المتلقى لا يعرف العدد ، ولأنه يحدد ثلاثة أيام من أيام كثيرة ، لذلك فقد جاء تمييزه .

أما العدد الثاني فقد جاء منوناً (وَسَبْعَةٍ) والتنوين هنا يمنع الإضافة ، ومن ثم يلقي العدد بالمعدود خلفه ليكون العدد نعتاً له ، ومغلقاً عليه ، وذلك لأن المجموع عشرة ، فالباقى

بعد صيام الثلاثة لا يمكن أن يكون إلا ثلاثة ، فوجب القصر .

أما العدد الثالث والأخير في هذه الآية وهو موضع البحث هنا : (تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ) فلقد حذف المعدود لتتوین العدد ، وجاءت كاملة مرفوعة لتقرر أنها صفة للعدد ، ومن ثم فلا مكان للمعدود بينهما ، وكالعادة فهو إلى مكانه قبل العدد ، ليكون العدد نعتاً وخاتماً له ، ولعلك تدري التعليل : وهو أن العشرة مجموع العددين ، والعددان (ثلاثة وسبعة) لا يكونان إلا كذلك ، فهنا وجب القصر ، والقصر في وضع العدد بعد معدوده .

منون ، والتقدير تلك أيام عشرة كاملة . وبتقدم المعدود على العدد يتحقق الاختصار ، وذلك لأن صيامك في الحج هو اقتطاع ثلاثة أيام من أيام كثيرة ، وصيامك لما ترجع هي اقتطاع سبعة أيام من أيام كثيرة أيضاً ، ولهذا كان التقدير (ومثلها) . أما مجموع العددين معاً فلا يكون سوى عشرة . ولهذا صح تقدير المعدود قبل العدد ، بعد أن طرده تنوين العدد .



المثال السابع

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾
 وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴿٢٢﴾ (الكهف).

جاءت لفظة (ثَلَاثَةٌ) على بنائها الأصلي بالتاء مما يعنى أنها مصاحبة لأصل مثلها وهو المذكر .وجاءت الكلمة منونة ، فهي بذلك بلا تمييز لأن التمييز يشترط أن يكون العدد مضافاً ، والإضافة تستوجب عدم التنوين ، فتنوينه هو حجب للتمييز .

مما يعنى أنها موصوف للمعدود ، والتقدير رجال ثلاثة . فالقائل بذلك قاطع بأن العدد لا يكون إلا كذلك .

والأمر نفسه في العدد الثاني (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) ، فقد جاء العدد بدوره منوناً ليقيد المعدود بهذا العدد عندما يلقي به وراءه موصوفاً ، وهو حابس له . والتقدير أيضاً رجال خمسة ، ولا يكونون إلا كذلك .

أما العدد الثالث : (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) فقد جاء العدد أيضاً منوناً ليكون نعتاً للمعدود المحذوف ، ومقيداً له .

وكما يبدو كل قائل يقطع بأن رأيه هو الصائب ، ولا يمكن أن تكون الآراء الثلاثة صحيحة ، والأقوى هو الرأى الأخير لما يأتي :

١- أن الرأيين الأولين ختما بقوله تعالى : (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) فمن ثم حكم عليهما ، وأبعد هذا الحكم عن الرأى الثالث لأنه أتى قبله حتى لا ينسحب عليه .

٢- إن قولهم (ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) ، (خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) : يفيد أن جملة (رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) نعت للثلاثة ، وجملة (سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) نعت للخمسة ، ولا يجوز أن يكون النعت من سماتهم المميزة . بخلاف القول الثالث : (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) أى قالوا سبعة ،

وقالوا: وثامنهم كلبهم . فهما خبران ، فلا يكون الكلب من سماتهم .

٣- عندما أخبر الله ﷻ بأنه لا يعلمهم إلا قليل قال ابن عباس عن نفسه أنا من القليل كانوا سبعة .

٤- عن ابن عباس رضى الله عنهما : الصحيح أنهم سبعة ، لأن الله جل وعلا قال فى أول الآية: ﴿ قال قائل ﴾ فهذا واحد ، وقال فى جواب قول هذا القائل : ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ وقالوا قول جمع أول وأقله ثلاثة ، ثم قال : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ وهذا قول جمع آخر خاطب الجمع الأول فالمجيبون ستة ، والسائل واحد ، فذلك سبعة .

٥. استخدم واو التحقق : وأمىل إلى القول القائل بأنها واو التحقق ^(١) ، وأن الكلام تم عند قوله : (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ) ثم حقق الله هذا القول بقوله (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) وتكون هذه الجملة مستأنفة من الله ﷻ وليس معطوفة على كلام القائلين . وقال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدة أى لم تبق لأحد عدة يلتفت إليها . ولا صحة لمن يقول إنها واو الثمانية فلم تأت الواو مع الوصف الثامن في قوله تعالى :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣) ﴿ (الحشر) .

وكذلك لم تأت مع قوله تعالى :

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّاتٍ عَدِيدَاتٍ سَيِّحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (٥) ﴿ (التحريم) .

فقد وصف الزوجات بست أوصاف هي (مُسْلِمَاتٍ ، مُؤْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَيَبَّاتٍ ، عَدِيدَاتٍ ، سَيِّحَاتٍ) ثم في الصفة السابعة ذكر صفتين لا يتحققان معاً في واحدة ، أي سيتم اختيار واحدة منهما فقط ، ومن ثم نرى أن الواو عندما ذكرت لم تكن تذكر بعد السابعة ؛ لتكون واو الثمانية ، بل ذكرت بين اختياري الصفة السابعة .

وما يعيننا هنا هو حذف التمييز لتتوين العدد ، ومن ثم فلا مكان له بعد العدد ، ومكانه قبل العدد مما يدل على تحقق القصر في قول كل منهم في نظر نفسه على الأقل .

(١) انظر: فاضل السامرائي، معاني النحو، المجلد الأول، دار الفكر، - عمان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩، ص



المثال الثامن | ثَلَاث مِائَةٍ سِنِينَ :

﴿ وَلِئْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف).

سبق تناول تلك الآية بالتحليل في الفصل الأول ^(١) وقد جاءت (تِسْعًا) منونة دلالة على أن التمييز غير موجود بعد العدد ، ومن ثم فهو قبل العدد .

والمعروف أن تسعة موضوعة بالتاء ، فحذف التاء دلالة على أنها فرع الكلمة ومن ثم فهي مصاحبة للفرع أي المؤنث . وبذلك نرى هذه اللغة العاقلة لا تضع المذكر مع المؤنث كما يشاع ، ولكنها تضع الأصل مع الأصل ، والأصل هو المذكر والمؤنث فرعه ، فلذلك مال العرب إلى استخدام العدد حسب أصل وضعه مهما كان بتاء أو بغير تاء مع الأصل المذكر ، واستخدام فرع العدد مع الفرع المؤنث . فلما كان العددان (واحد ، واثنان) هكذا وضعهما بالمذكر فهما للأصل المذكر ، فاتفق المذكر مع المذكر ، ولما كانت باقي الأعداد موضوعة في أصل بنائها بالتاء ذهبت بصفتهما أصلاً إلى المذكر الأصل ، وأصبح تجريدها من التاء فرعاً يذهب للفرع المؤنث .

فالعدد (تِسْعًا) هو فرع نفسه لأن الأصل بالتاء ، فهو من نصيب الفرع وهو المؤنث سنين ، وكما قلنا لا مجال لسنين تمييزاً ، لتكوين (تِسْعًا) فمكانها قبل العدد ، ليكون العدد نعتاً لها وحاسباً لها .

والمعلوم أن هذا العدد لا يمكن أن يكون إلا تسعة لأنه حاصل طرح رقمين ، وحاصل الطرح لا يتغير . فالتسع سنوات هجرية تساوي بالأيام : $9 \div 19 \times 6733 = 3189,315789473684$.

فلو حسبت المدة (٣٠٠) بالتقويم الحسابي لوجدتها $(365 \times 300) = 109500$ يوم . ولو حسبت المدة نفسها (٣٠٠) بالتقويم القمري لجاءت على النحو الآتي = ٣٠٠

$\div 19 \times 6733 = 1,06310,526$ يوم . فلو طرحنا الفارق بين الحسبتين : $109500 -$
 $1,06310,526 = 4736842105,3189$ يوم .

فهذا الفارق بين التقويم هو نفسه قيمة الأيام للتسع سنوات ، فهي مدة ثابتة .



المثال التاسع

مِائَةِ أَلْفٍ :

﴿ ١٤٧ ﴾ (الصفات) . وَارْسَلْنَهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ

المرسل هو يونس بن متى المشهور عند العبرانيين باسم يونان ، وقد تم إرساله مرتين ، الأولى إلى قومه الذين تركهم ومضى .

﴿ ٨٧ ﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ٨٨ ﴾ (الأنبياء) .

أما قومه فقد آمنوا ، عندما غادرهم يونس ، فلما رأوا أسباب الهلاك ورأوا الدخان يغشى مدينتهم ، فلبسوا المسوح ، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الذواب وأولادها ، فحن بعضها على بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا ، وترادوا المظالم ، ودعوا كما قال الفضيل بن عياض : «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» .

فرحمهم الله وكشف عنهم . ولذلك قال الله ﷻ : فهلا فعلت القرى التى كتبنا عليها الهلاك مثل قرية يونس التى تابت عن الكفر قبل أن ينزل بها الهلاك .

﴿ ٩٨ ﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿ ٩٩ ﴾ (يونس) .

أي أن قرية يونس لم تعد بحاجة إلى يونس ، لأنها آمنت وهو في بطن الحوت ، ثم في فترة نقاهته من المرض الذي أصابه من جراء السوائل التى أفرزها الحوت عليه وهو في بطنه . لذلك كان الإرسال لقوم آخرين ، بعد أن أبق من قومه إلى الفلك المشحون ، والتقطه الحوت ، ثم نبذه الحوت لأنه كان من المسيحين :

﴿ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ۝ ١٤٦ ﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝ ١٤٧ ﴾ (الصفات) .

ما سبق يدل أن القوم الذين أرسل يونس إليهم هم غير أمته التي أبق منها ، وأمنت في فترة غيابه ، فبعد أن عولج من سقمه بشجرة اليقطين أرسله الله ﷻ إلى (مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) .

قال المشككون : إن (أَوْ) شكية ، ولا يصلح مع الله الشك ، لأنه هو الذى يعلم كل شيء ، لكن الله يستخدم (أَوْ) إذا كان يقرب الصورة كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ١ ﴾ (النجم) .

فالقائل لا يقرر ما يعلمه ، لكنه يقرب الصورة للمستمع الذى لا يعرف الصورة ، فيقربها بأقرب الأشياء إلى تصويره ، ثم بعد ذلك يقول له وهو أقرب من أقرب شيء تعرفه .

فهى مثل قول رجل يريد أن يخبر الناس بمدى قوته ، ولنفترض أنه يمكنه أن يهزم مائة رجل ، فإذا ذهب إلى بلد وأراد أن يخبرهم بقوته : يسألهم من أقوى رجل في ظنكم ؟ قالوا الذى يستطيع أن يهزم عشرة ، قال لهم أنا أستطيع أن أهزم عشرة وأكثر من ذلك .

تتركز الاعتراضات على الجملة الخبرية الصادرة من الله (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ، ونحن نرى أن ثمة فارقاً بين التقرير والتشبيه ، فعند التقرير : لا تجوز (أَوْ) . وعند التشبيه : فلا ضرر من (أَوْ) ، لأنه من البداية لا يخبرك بالحقيقة التى تقبل التقرير ، لكنه يقربها إليك بما تعرفه ، ثم يأتى ب(أَوْ) ليقرر لك أن هذا للتقريب وليس للحقيقة . ولننظر للأمثلة :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۝ ٧٤ ﴾ (البقرة) .

النص القرآني يشبه قلوب اليهود فيأتى لك بأشد شيء تعرفه وهي الحجارة ، وهذا يكفى لتعلم أن قلوبهم متجلدة ، ثم يأتى لك ب(أَوْ) ليقرر أن جمود قلوبهم يفوق أكثر صورة تعرفها أنت . أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۝ ١٤٤ ﴾ (آل عمران) .

فهو افتراض يفترضه يهدف منه أن يعلمهم أنه لا ينبغي لهم أن ينقلبوا على أعقابهم في

أى حالة من حالات الافتراض .

مثال آخر :

﴿كَانَهُمْ يَوْمَ بُرْؤُهَا لَا يَرْجُونَ لَهَا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦) (النازعات) .

لاحظ (كأن) فعند وجود كأن فهو يقرب لك الصورة ، ولا يقرر لك الحقيقة . وهو يخبرنا عن إحساس الكافرين عندما يرون قيام الساعة ، لم يلبثوا في الحياة الدنيا سوى نصف يوم من شدة هول القيامة . وأى النصفين يصلح .

أما قوله :

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) (سبا) .

فالعبارة سيقولها النبي S للكفار : ولهذا عدل الله عن استخدام (أو) حتى لا يجمعهم معه في أمر واحد .. فلو استعمل الواو ، فهذا يعني أن الفريقين كليهما سيكونان معاً في ناحية من الناحيتين : لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أما (أو) فتعني أن كل واحد منهما في جهة ، فأحدهما سيكون في جهة والآخر لابد في الجهة الأخرى :

استعمال الواو : الفريقان في ناحية الهدى أو ناحية الضلال المبين . وهذا غير ممكن .

استعمال أو : كل واحد منهما في جهة ، الفريق الأول يكون جهة الهدى فيكون الثاني في

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) (الصافات) .

النص لا يقرر العدد ، بل يقربه ، والتقريب يصلح معه أو .



المثال العاشر

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (التوبة) .

قَسَمَ اللَّهُ ﷻ السنة إلى اثني عشر شهراً منذ خلق السموات والأرض ، لأن الزمن يرتبط بدورة القمر ، والقمر له اثنتا عشرة دورة ، وكل دورة منها تُسمى شهراً . والشهر : أصله في اللغة كما في المقاييس : يدل على وضوح الأمر وإضاءة ، وهو في كلام العرب : الهلال ، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ ثَلَاثِينَ يَوْماً بِاسْمِ الْهَلَالِ ، فقيل شهر . قد اتَّفَقَ فِيهِ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ ؛ فَإِنَّ الْعَجَمَ يَسْمُونُ ثَلَاثِينَ يَوْماً بِاسْمِ الْهَلَالِ فِي لُغَتِهِمْ . ومنه : الشهرة أى وضوح الأمر ، وشهر سيفه إذا انتضاه ، وقد شهر فلان في الناس بكذا ، فهو مشهور .

ومن هنا جاء ارتباط الشهر بالقمر ، والقمر يرتبط بالجمال ، فأصبح هناك من يقول إن معناها : ذات الجمال الزائد ، أو الوجه الجميل كالقمر .

فالشهور المقصودة هي الشهور القمرية (الهجرية) ذكرها الشيخ علم الدين السَّخَاوي وعَلَّلَ للتسمية :

- | | |
|-------------------|---|
| المحرم | سمي بذلك لأنه أول الأشهر الحرم . |
| صفر: | سمي بذلك لخلو بيوتهم منه ، حين يخرجون للقتال والأسفار . |
| ربيع أول وآخر: | سميا بذلك لارتباعهم فيهما . والارتباع الإقامة في عمارة الربع . |
| جمادى أولى وآخرة: | سمي بذلك لجمود الماء فيه . لأن أول ما سمي عند جمود الماء في البرد . |
| رجب: | من الترجيب ، وهو التعظيم ، ويجمع على أرجاب ، وِرْجَاب ، وَرَجَبَات . |
| شعبان: | من تشعب القبائل وتفرقها للغارة . |
| رمضان: | من شدة الرمضاء ، وهو الحر ، يقال : «رمضت الفصال» : إذا عطشت ، ويجمع على رَمَضَانَات وَرَمَاضِينَ وَأَرْمَضَةً . |
| شوال: | من شالت الإبل بأذنانها للطراق . |
| القعدة: | بفتح القاف -قلت: وكسرهما -لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ويجمع على |

ذوات القعدة.

الحجة: بكسر الحاء - وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه.

الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ، وقد سماه الرسول S جمادى مضر لأن مضر تحرم شهر رجب بين جمادى وشعبان ، أما ربيعة فكانت تُحرّم شهر رمضان وتسميه رجب . فبذلك حدد الرسول S أن الشهر المحرم هو رجب مضر لا رجب ربيعة .

لأن رجب ربيعة هو شهر رمضان ، فأكد النبي S على أنه رجب مضر أي الذى يسبق شعبان . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرّد وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

أما قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (التوبة . ٣٦)

يفارق القرآن الكريم بين كلمة أشهر التى استعملت في القرآن (ست مرات) قاصداً بها أعداد قلة : ما بين ثلاثة أو أربعة أشهر . وبين كلمة شهور التى تفيد جمع الكثرة ، ولذلك عبر بها عن مطلق الشهور ، فالشهور لا تزيد أبداً عن اثني عشر شهراً ، ثم تكرر ثانية . وقد جاءت كلمة الشهور في الآية الكريمة في حدها الأقصى (اثنا عشر شهراً) . خلاف ذلك لا يتم التعبير عن الأعداد دون العاشرة إلا بتمييز (أشهر) لأنه جمع قلة .

﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (التوبة . ٣٦)

أما سر المغايرة بين غير العاقل (منها) ، والعاقل (فيهن) فيرجع إلى قانون استعارة قانون الآخرة ، ففي الآخرة كل شيء عاقل . والأشهر الحرم في الدنيا هي استعارة الأمان الموجود

في الآخرة دوماً في تلك الأشهر تحديداً ، فلما استعارت قانون الآخرة عوملت بالعاقل مثل كائنات الآخرة التي قالت عن نفسها (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) .

هذا عن العاقل وغير العاقل ، ويبقى : التعبير عن الشهور بالمفرد في قوله (مِنْهَا) ، والجمع في قوله (فِيهِنَّ) . فيجب أن نتذكر أن التمييز يكون جمعاً حتى تصل إلى الرقم عشرة ، فإذا تجاوزت العدد عشرة فالتمييز يلزم المفرد حتى لو وصلت إلى ما لا نهاية من الأعداد.

(مِنْهَا) تعود على الشهور كلها، والشهور كلها (أَشْأَ عَشَرَ) وتمييز العدد مادام تجاوز العشرة يكون مفرداً (شَهْرًا) لهذا جاء الضمير مفرداً (مِنْهَا) لأنه يعبر عن عدد فوق العشرة.

(فِيهِنَّ) تعود على أربعة أشهر فقط ، وتمييز العدد من العشرة فيما دونها جمع ، لهذا جاء الضمير جمعاً (فِيهِنَّ) لأنه يعبر عن عدد يقل عن عشرة (أربعة) .

وتتوین أربعة يمنع أن يأتي التمييز بعدها . لأن التمييز مجرور بالإضافة ، والإضافة لا تجتمع مع التوین . والوصف بكلمة (حُرْمٌ) يعني أن كلمة أشهر لا يمكن أن تأتي بعد أربعة . فهذا يعني أن لفظة أشهر لا مكان لها بعد العدد ، ومن ثم مكانها قبله ، والتقدير منها أشهر أربعة حرم . وذلك لأن الأشهر الحرم في كل عام لا تكون أقل ولا أزيد من أربعة أشهر . هي الأشهر نفسها في كل عام .



المثال الحادي عشر | سَبْعًا شِدَادًا ٣ :

✽ ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ ﴾ (النبا) .

لاشك أن الخالق عند الخلق يمكنه كما يشاء أن يحدد تكرار الشيء المخلوق ، فيجعله كما يشاء ثلاثة ، أربعة ، سبعة ، لكنه بعد أن يفرغ من الخلق ، يلتزم الشيء المخلوق العدد كما أراحه .

وهذا يعني أن الحديث عن السماوات وقت خلقها هو حديث عن شيء كان يمكن أن يكون له أي عدد كما يشاء الخالق ، وهو إن اختار لها العدد سبعا ، فإنه كان يمكن أن يجعلها غير ذلك ، فالعدد ليس حصرياً لأنه اختياري ، أما بعد تمام الخلق ، فقد أصبح الاختيار واقعاً واقتصر العدد على واقعيته .

عند الحديث عن بداية الخلق ، فهو يخبرنا بعدد ما خلق من سموات ، فيقول (فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) ، (فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) ، (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) ، (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا) . فهنا يتحدث عن سموات يتم خلقها من قبل رب الكون ، فهو كما يشاء ، يمكنه أن يجعلها العدد الذي يريده ، مما يعني أنه عند الخلق لا يمكن أن نقول أنها يجب أن تقتصر على سبعة ، فالزيادة والنقصان يرجع إلى تقدير القدير Y .

✽ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ٢١ ﴾ (البقرة) .

✽ ﴿ فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ١٢ ﴾ (فصلت) .

✽ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ١٢ ﴾ (الطلاق) .

✽ ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ٣ ﴾ (الملك) .

✽ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ١٥ ﴾ (نوح) .

أما قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ (١٧) ﴿ (المؤمنون) .

وقد قال الزمخشري أنها : السموات ، لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل ، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة . وقيل : الأفلاك ؛ لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها . أي أنه في وقت الخلق ، وهذا يعني أن العدد جاء لإزالة الإبهام ، لا للحصر .

لكنه عندما يتحدث عن وجودها الآن بعد خلقها ، فهي تقتصر على هذا العدد ، لذلك يأتي العدد بعد المعدود (السَّمَوَاتِ السَّبْعِ) دلالة للمغايرة بين الموقفين ، وقت الخلق ، فالعدد قابل للتغيير ، وبعد الخلق ثبت العدد كما أراده رب العزة .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) ﴿ (الإسراء) .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) ﴿ (المؤمنون) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (١٢) ﴿ (النبا) .

ف نجد أنه قد نوّن العدد ، وتنوين العدد لا يكون إلا باستبعاد المعدود تماماً من بعده بصفته تمييزاً مجروراً بالإضافة ، والإضافة لا تجتمع مع التنوين . وعدم صلاحية وجود المعدود بعد العدد يعني أن لا مكان له سوى قبل العدد . والتقدير : وبنيينا فوقكم سماوات سبعة شداداً . والبناء بعد الخلق ، أي أن العدد صار ثابتاً لا يتغير . وهنا نرى وجوب تقديم السماوات لتقرير أن السماوات بعد خلقها تقتصر على هذا العدد ، لا تزيد ولا تنقص .



المثال الثاني عشر

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۖ

* ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ (١٧) (الحاقة).

ثمانية من الملائكة يحملون عرش الله Y ، فقلوه (وَالْمَلَكُ) مفرد الملائكة ، ولكنه لا يقصد هنا بالإفراد العدد واحد ، بل يقصد الجنس ، أى جميع الملائكة لأن استغراق المفرد كما قال ابن عاشور أصرح في الدلالة على الشمول ، وأكد ذلك بقول ابن عباس : الْكِتَابُ أَكْثَرُ مِنَ الْكُتُبِ (١) . فالجميع في نواحي السماء ينفذون أوامر ربهم بإنزال أهل الجنة إلى الجنة ، وسوق أهل النار إلى النار .

وقوله (عَلَى أَرْجَائِهَا) أي أطراف السماء . وقد صيغ التعبير (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) على شكل جملة اسمية لأن هذا الوضع دائم ثابت . أما قوله (يَوْمَئِذٍ) لأن هذا حدث مرتبط بظرف زمني هو يوم القيامة . والضمير في قوله تعالى (فَوْقَهُمْ) يرجع إلى الملائكة المنتشرين في أطراف السماء .

من الملائكة الأشداء الأقوياء . وفي الحديث : « يَحْمِلُهُ الْيَوْمَ أَرْبَعَةٌ ، وَيَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَّةٌ » قال ابن زيد : وبلغنا أن رسول الله S قال : « لَمَّا خَلَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ : تَدْرُونَ لِمَ خَلَقْتُمْ؟ قَالُوا : خَلَقْنَا رَبَّنَا لِمَا شَاءَ ، قَالَ لَهُمْ : تَحْمِلُونَ عَرْشِي ، ثُمَّ قَالَ : سَلُونِي مِنْ الْقُوَّةِ مَا شِئْتُمْ أَجْعَلُهَا فِيكُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : قَدْ كَانَ عَرْشُ رَبَّنَا عَلَى الْمَاءِ فَاجْعَلْنِي فِي قُوَّةِ الْمَاءِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الْمَاءِ ، وَقَالَ آخَرُ : اجْعَلْ فِي قُوَّةِ السَّمَوَاتِ ، (قُلْ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ السَّمَوَاتِ . وَقَالَ الْآخَرُ : اجْعَلْ فِي قُوَّةِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ . وَقَالَ آخَرُ : فِي قُوَّةِ الرِّيحِ) ، قَالَ : قَدْ جَعَلْتُ فِيكَ قُوَّةَ الرِّيحِ (٢) .

ويوم القيامة العدد لن يزيد ولن ينقص .. لذلك عبر عنه بالعدد المنون الذي يفيد امتناع المعدود بعد العدد .

والعدد يأتي قبل المعدود للتحديد . ويأتي بعد المعدود للحصر ، فالتقدير ويحمل عرش

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء ٢٩، ص ١٢٧ .

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان، الجزء ٢٣، ص ٥٨٣ .

ربك فوقهم يومئذ ملائكة ثمانية ، يقتصر عددهم على ذلك .

لقد كانوا أربعة ، لكن يوم القيامة يؤيدهم الله بأربعة آخرين ، فهؤلاء الملائك الذين بلغوا الكمال في القوة حتى اختصهم ربهم بحمل عرشه ، يقتصرون على ثمانية ، فإن أردت أن تتحدث عنهم في الدنيا فقل : يحمل عرش ربك أربعة ملائك ، وذلك لأن هناك ملائك أخرى موجودة لحمل المهمة ، فإن تم الحصر ، وقام بالمهمة كل الملائكة المخلوقة لذلك وجب تقديم المعدود على العدد ، ليقصر المعدود على هذا العدد ، فلا تقول إلا : ويحمل عرش ربك .. ملائك ثمانية ، ثم يحذف الموصوف لأنه مفهوم .

أما قوم عاد ، فقد أرسل الله عليهم الرياح ثمانية أيام وسبع ليال ، وهذا يعني أنها بدأت نهاراً ، وهم بخارج بيوتهم ، لتفعل بهم الأفاعيل ، فهي تدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم كاسحة كل أحشاءهم ، وتتركهم كأعجاز نخل خاوية ، وبعد ذلك ترفعهم عالياً إلى السماء ثم تهبط بهم تدك بهم الأرض حتى دخلت رؤسهم في أعناقهم ، وأصبحوا كأعجاز نخل منقعر . ويقال إن العذاب بدأ يوم الأربعاء وانتهى يوم الأربعاء ، وما زالت العرب تستاء من أي فترة يجتمع فيها أربعاوان .

فقوله (وَتَمْنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) أي متتابعة . أما سر استمرارها ثمانية أيام ، أن عاداً لما هددت بالعذاب ، فعلت ما قاله أبوجهل بعد ذلك عندما أنذرهم النبي S بأن خزنة جهنم تسعة عشر ، قال هازئاً مشيراً أن هناك من يمكنه التصدي لهم .

كذلك كان في قوم عاد ثمانية رجال هم أشدهم خلقاً ، فلما جاءهم العذاب ، قرروا أن يقوموا ليردوا العذاب عن قومهم ، فصفوا في الوادي ، فأوحى الله Y إلى ملك الرياح أن يقلع كل يوم واحداً ، فما كانت الرياح تقلع من أولئك الثمانية كل يوم إلا واحداً .

أما السياق الثالث : فهو حملة العرش يوم القيامة ، وقوله يومئذ أي أنه قبل يوم القيامة ليس كذلك ، وقد قيل إن حملة العرش الآن أربعة ، لكن يوم القيامة يصد بالعدد ثمانية .



المثال الثالث عشر

وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ :

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴿١٤٢﴾ (الأعراف).

سبق الحديث عن هذه الآية في الفصل الأول ، لكن نضعها هنا لأن فيها أحد العددين تم تنوينه ، والتنوين في الأحاد يعني القطع عن الإضافة ، ومن ثم يستحيل التمييز ، لأنه مضاف إليه ، والمضاف إليه يسقط التنوين ، وهنا يكون المعدود قبل العدد ويصبح موصوفاً خُتِمَ بالعدد ومن ثم يقتصر هذا المعدود على العدد دون زيادة ولا نقصان.

ولعلك تلاحظ أن العدد هنا (عشر) هو الفارق بين طرح العدد ثلاثين من العدد أربعين ، والنتائج لا يكون أبداً في كل مرة تجرى فيه هذه العملية الحسابية إلا عشراً . ولما كان العدد ثابتاً في كل الحالات ، جاء المعدود قبل العدد وليس قبله لأنه يقتصر عليه .



المثال الرابع عشر

مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور) ٤٥

النص يتحدث عن أصل واحد خلق الله منه كائنات متنوعة الأشكال دلالة على كمال صنعته . والأصل الذى خلق الله منها الكائنات هو : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ^(١)) والدابة : هى كل ذي روح ذاتية الحركة ، فهى تشمل كل المخلوقات ، سواء تحبو ، أو تمشى على قدمين أو تمشى على أربع. ويكون المعنى : (واللَّهُ خلق كل ذي روح من ماء) . والتاء هنا للنقل إلى الاسمىة لا للتأنيث . ثبتت الألف في الكلمة (دَابَّةٍ) لأن كل الدواب متساوية في وجود الروح فيها .

فالدابة هى كل ما يدب على أرض مذكراً كان أو مؤنثاً . بشراً أو حيواناً .

أصل جميع المخلوقات من الماء ، وصدق رسول الله صلى الله وسلم عندما سئل أثناء غزوة بدر ممن أنتم ؟ ، وأراد التمويه وهو لا ينطق إلا صدقاً : فقال : نحن من ماء .

خلق من الماء ريحاً ؛ فخلق منها الملائكة ، وخلق منه نار فخلق منها الجن ، وخلق منها طين فخلق منه الإنسان قيل « أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ، ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور » . وفي خلق كل شيء من الماء بيان للقدرة لأن لا أحد يستطيع أن يشكل من الماء شيئاً ، فلا يمكن أن تبني عليه ، أو تبني به ، أما الله γ فتتجلى قدرته في أنه يبني منه كل خلقه ، ويشق منه أشكالاً متعددة ، كل واحد منها يختلف عن الآخر اختلافاً بيناً .

وجاء الماء نكرة لأنه يقصد الفردية . فكل نوع من الدواب يخلق من ماء خاص بها يختلف

(١) سورة النور ، الآية (٦) .

عن الماء الذى خلقت منه دابة أخرى ، والتتكير : تكراره يعنى أن هذا ليس ذاك . والكلمة مكررة بتكرار المخلوق منها . بينما جاء الماء معرفة في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء .)

وذلك لأنه يقصد جنس الماء ، أي الماء الذى هو أصل كل ماء . فهو واحد مهما تكرر ، فجاء معرفة ليقرر أنه واحد وإن تكرر .

ومن هذه الكائنات الحية والحيتان والديدان وهي كائنات تمشى على بطنها ، وقد بدأ بهذه الأنواع لأنه أعجبها وأدلها على قدرة الله لأنه يمشى بدون آلة . ثم تدرج في بيان القدرة من من الأعرق وهو المشي على البطن إلى ما يليه وهو المشي على قدمين كالإنسان والطير ، ثم انتهى إلى النوع الأخير وهو سائر الحيوانات كالنعام والسباع التى تمشى على أربع أرجل .

واختيار العدد (أربع) لأنه يحاكي الواقع في التعبير عن الكائنات ذات الأربع . وحذف التمييز أرجل لأنه كان يتحدث عنه قبلاً : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ (التور .) .
أما تنوين (أَرْبَع) فللإشارة إلى انقطاع الإضافة ومن ثم استحالة وجود المعدود بعدها .

وهذا يقتضى أن يكون المعدود قبلها ، فيكون التقدير : على أرجل أربع .

وذلك لأن من يمشى على أربع ، لا يمكن أن يكون أكثر ولا أقل من ذلك .



المثال الخامس عشر

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ :

❁ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٣٠) ❁ (المدثر) .

في هذا التعبير (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) نرى أن الضمير في قوله (عَلَيْهَا) يرجع إلى سقر تحديداً ، فخزنة سقر الذين يتولون أمرها تسعة عشر ملاكاً ، وقد جاءت تسعة مؤنثة لتقطع بأن التمييز مذكر ، فالملاك مذكر ، وليس كما زعم الكفار بأن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك .

وقد سخرت قريش عندما سمعت العدد ، فقال أبو جهل : يتوعدنا ابن أبي كبشة بتسعة عشر ، وأنتم الدهم ، أفيعجز عشرة منا على رجل منهم ؟؟ وقال أبو الأشدى الجمحي : أنا أجهضهم على النار .

وهم يقولون ذلك على مجازاة محمد ، فهم لا يسلمون بالعبث ، ولا يسلمون بوجود النار ، لكنه لما أخبرهم بأن العدد قليل ، تجاوزوا اعتراضهم على مبدأ النار ، وكأنهم قالوا لو صدقت يا محمد ودخلنا إلى النار فتحن نقدر على خزنتها . فتحن نقدر عليك في الدنيا ، وسوف نقدر على جنود ربك في الآخرة .

وفي رأينا أن التعبير وإن لم يظهر منه أن المعدود يستحيل أن يكون بعد العدد ، لعدم وجود تنوين يقطع بتلك الاستحالة ، إلا أننا نقرر أن المعدود المحجوب لا يعني إلا أنه مقدر قبلاً ، وأن هذا العدد مقتصر عليه ، وأن الملائكة في الآخرة لا مجال لزيادة أو نقصان عليهم .

ويكون التقدير عليها ملائكة تسعة عشر .



المثال السادس عشر

فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ (٢٧) (القصص) .

الكلام على لسان شيخ مدين ويقولون : هو شعيب ، وجاء نص القول مؤكداً لأنه يخاطب غريباً لا يطمع سوى في الطعام والإيواء ، ويعرض عليه أن يكون سيدياً وزوجاً لابنته . فقد يظن به الغريب أنه يسخر منه ، فبدأ بالتوكيد لينفي له أي ظن بالسخرية منه . والفعل نكح أي تزوج ، والشيخ لا يتزوج ، لكنه يقوم بتزويج ابنته لذلك استخدم الفعل المتعدي (أنكح) ، وقد قال (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) لأن قوله ابنتي : قد يوهم أن لديه ابنة واحدة وهذا غير صحيح ، أو أنه لديه اثنتان ، لكن غير مسموح لموسى أن يختار بينهما ، لذلك قال له (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) ليبين أنه يريد صهرأ ، لكنه في الوقت نفسه يترك له حرية الاختيار أي البننتين يريد . وقوله (هَاتَيْنِ) لأنهما كانتا واقفتين .

وكان المهر أن يعمل موسى أجيراً عنده (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي) ، ولم يكن هذا غريباً في بني إسرائيل ، فقد عمل يعقوب قبلاً عند خاله لابان سبع سنين ليتزوج ابنته راحيل . ولا يدخل الزوج على عروسه إلا بعد أن يدفع المهر الذي عليه .

استخدم القرآن لفظة (ثَمَنِي) بدون التاء ، أي أن الكلمة لم تأت على أصل بنائها (ثمانية) فهي تعبر عن الفرع المؤنث وهو الحجة . وقد جاء التمييز (حِجَجٍ) لأن شيخ مدين عربي لا يعمل بالزراعة مثل مصر حتى يتعامل بتقويم شمسي ، وهو يحج إلى بيت الله الحرام في شهر ذي الحجة ، فمن المعلوم أن الحج موجود قبل الإسلام ، بدليل تسمية الشهر بذي الحجة نسبة إلى قيامهم بالحج فيه .

وبذلك يخطب شيخ مدين موسى لابنته بأجرته عنده ثماني حجج ، فإن أتم عشرأ فهذا من عند موسى ، وقد قضى موسى أوفى الأجلين كما أخبر محمد S . وقد استخدم الشيخ لفظة (فَإِنْ) وهي لفظة استيعادية ليقرر أن الشيخ لا يريد أن يثقل عليه ، ويمكن للشاب أن

لا يقبل الزيادة فلا يثقل على نفسه السنتين . وقد آثر لفظة (أَتَمَمْتَ) لأن الإتمام ليس من أساس الشيء ، بل هو إضافة كالزخرفة للبيت . كأنه يشير له أن أي البنيتين تصلح له ، فإذا آثر هوى نفسه فهي زيادة إن لم تحدث فلا ضير .

وقد جاء العدد (عَشْرًا) بدون التاء أي ليس على أصل البناء ، ليدل أن الكلمة متجهة للفرع أي للمؤنث ، وهو الحجة .

وتلاحظ تغييراً في استعمال العددين :

● ثَمَنِي حِجَجَ . ● عَشْرًا .

فالأولى استعمال العدد مضافاً للتمييز ، لأن العدد يحتمل النقص والزيادة ، فكل إنسان حر في تحديد مهر ابنته ، أما العدد الثاني (عَشْرًا) فجاء منوناً ، والتنوين يحيلنا إلى استحالة وجود المعدود بعدها ، ومن ثم فقد طرح العدد المنون المعدود قبله ليكون العدد نعتاً وخاتماً للمعدود ، ويصبح العدد من أساليب القصر أي لا زيادة عن هذا العدد ، وذلك لأن الوصول بالمهر إلى عشر هو تطوع من موسى بدليل قوله (فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ) وعند التطوع من قبل موسى فإن الرجل لا يقبل أن يصبح التطوع أكثر من عشر حجج . فلو أراد التطوع فهي عشر لا مزيد . فالعشر لا تقبل الزيادة فهي سقف الحجج التي يعمل فيها أجيراً عنده . وقد جمع القرآن بين الفعلين أريد في حالتها الإثبات والنفي فقال :

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ .

فشيخ مدين يرغب في عرض الابنة عليه للزواج ، لكنه لا يرغب في مشقته . وقد شهد رسول الله S بأن موسى قضى أوفى الأجلين أي عشر حجج .



المثال السابع عشر

وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

* ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف) .

إن بني إسرائيل ظلوا كلهم أبناء يعقوب في عهد يوسف عليه السلام ، ولم يصبحوا أقساماً إلا عند الخروج في عهد موسى عليه السلام .

والتعبير (وَقَطَّعْنَهُمْ) يفيد أن الله ﷻ هو الذي فعل ذلك . وأسند الفعل إلى نون العظمة كعادة التعبير عن أفعال الله ، فأفعال الله دوما تأتي معظمة ، بينما يقتصر الحديث عن ذاته عز وجل بلفظة المفرد حتى لا يتوهم أحد أنه متعدد ، أو أنه ثالث ثلاثة .

والفعل (قَطَّعَ) يقتضى أن نقول: أي قطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، أي قطعناهم قطعاً يصل عددها إلى اثنتي عشرة . ولأن فعل الله لا يجوز عليه التعديل ، فتقطيعه الله لهم إلى هذا العدد لا يجوز لهم أن يعدلوه .

وهذا يعنى أنه لم يكن تقسيماً وراثياً بعدد أبناء يعقوب ، فلو كان ذلك ما قال ﷻ (وَقَطَّعْنَهُمْ) لأن هذا هو حالهم قبل التقطيع . فقوله قطعناهم يعنى أن لأحدهم أكثر من قسم .

وقد أثبتنا قبلاً أن يوسف قد مات دون إنجاب ، ومن ثم فهو ليس له نصيب ، لأنه بلا نسل ، أما أخوه لاوي (من نسله موسى ، هارون) فقد انقسم قسمين أحدهما يقوم بالكهنة وهو فرع هارون . والقسم الثاني سائر أبناء لاوي .

ولسنا في هذا مغالين ، فالتوراة عندما تجعل نقباء بني إسرائيل ، تجعل ليوسف اثنين ، ولا تجعل للاوي أحداً ، في إشارة إلى أنهم أحد عشر سبطاً ، أحدهم كان له نصيبان .

وهذا ما أشار إليه القرآن بالقصر ، في تقديم المعداد على العدد ، ليمنعهم من العبث بهذا العدد . ولذلك لما عجزوا أن يغيروا في العدد لأن تلك مشيئة الله ، في الاقتصار على

هذا العدد ، أخذوا يغيرون مع حفاظهم على العدد .

وبذلك يستريح أهل اللغة من وجود لفظة (أَسْبَاطاً) جمعاً بعد العدد (اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ) وهي لا تصلح لسببين :

١. جاءت جمعاً ، والتمييز بعد اثنتي عشرة مفرداً .

٢. جاءت مذكرة ، والتمييز بعد اثنتي عشرة يطابق تمييزه ، فمادامت اثنتي عشرة مؤنثة فالتمييز يجب أن يؤنث أو يتم تذكير جزئي العدد .

فالمعدود لا يمكن أن يكون أسباطاً لأن تقديره أن يكون قبل العدد ، لإحداث الاختصار اللازم ، في أن الله قطعهم إلى هذا العدد فلا يمكن لقوة في الأرض أن تغير ما فعله الله .

والتقدير : قطعناها قطعاً اثنتي عشرة أسباطاً أمماً . فأما العدد فقد حل محل المفعول الثاني . أما أسباطاً فبدل من العدد ، وأمماً نعت للأسباط .

فلماذا لم يقل اثني عشر سبطاً ؟

لأن هذا يعني أن كل منهم له سبطه الخاص ، وهذا غير صحيح ، فهناك من أبناء يعقوب من هلك دون أن يترك نسلأ ، وهناك من أصبح له قسمان .



المثال الثامن عشر

إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ (طه) .

ذكر الله ﷻ يوم القيامة في قوله (وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا) ^(١) ثم قال ﷻ (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) ^(٢) فلفظة (يَوْمَ) بدل من يوم القيامة ، وفي هذا اليوم ينفخ إسرافيل في الصور ، ولم يذكره لأنه الوحيد الذي يصنع هذا ، فلم تكن حاجة إلى ذكره . والصور : قرن عظيم ، يستعمل في الدنيا لاجتماعات الحروب ، وفي الآخرة هو قرن ينفخ فيه صاحب الصور (إسرافيل) نفخة أولى : فتغادر كل روح جسدها ، ثم ينفخ ثانية فتعود كل روح إلى جسدها وتلك هي النفخة الثانية . والمقصود بالنفخة في تلك الآية : هذه النفخة الثانية ، لأن النفخة الأولى يموت فيها كل من على الأرض ، أما الثانية فيبعث فيها كل الموتى ويحشرون للحساب . ويتحول لون المجرمين إلى الزرقة كلون الرماد من شدة العطش . مما يجعلهم قبيحي المنتظر ، وقيل بل عيونهم زرق ، لأن العرب تكره العيون الزرق لأنها عين أشد أعدائهم عليهم وهم الروم ، أو لأن العمى يجعل حدقة العين زرقاء . وأرى أن ليس هناك ما يمنع أن يكون لون الجلد أزرق ، ولون العين أزرق .

ويتكلم المجرمون في همس شديد كأنه العدم بالنسبة للمستمع البعيد فأصل الخفت في اللغة (السكون) ، وسبب التخافت هو الرعب من شدة ما يعاينونه من أهوال القيامة .

ويحكي القرآن نص ما قالوه في همسهم فيما بينهم : (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) :

• • استخدام أداة النفي (إِنْ) : : إن المجرمين يقررون بشكل قاطع حاسم ، وحرف

النفي (إِنْ) أكثر حدة من حرف النفي (ما) يكتسب تلك الحدة من التوقف الحاد بالنون المسكونة ، خلاف نطق ألف (ما) المطلقة التي تفيد الإطلاق لتناسب مع غموضها وعدم

(١) سورة (طه) الآية (١٠١) .

(٢) سورة (طه) الآية (١٠٢) .

تحديدها . لذل قال المجرمون عبارتهم بشكل حاسم من خلال استخدام أداة النفي الحادة (إن) .وجملة: «إِنْ لِّئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا» في محلّ نصب مقول القول لحال محذوفة ، أي قائلين : إِنْ لِّئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا .

• **سر استخدام الفعل لبث :** إن لفظة اللبث تعبر عن بقاء غير موجود ، أي بقاء كان موجوداً ، ولم يعد موجوداً الآن ، بخلاف مكث التى تفيد البقاء الآنى المستمر لحظة الكلام . فموسى عليه السلام عندما قال لأهله (أَمْكُثُوا إِنِّي ءَاسِسْتُ نَارًا) ^(١) ، لأنه بقاء لم ينته ، ولن ينتهى إلا برجوعه إليهم ، وكذلك قوله تعالى (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) ^(٢) مخبراً عن الهدهد ، فقد كان الهدهد وقتها مازال في مكثه لم يغادره ، ينتظر استدعاء سليمان عليه السلام له .

لبث : بقاء لم يعد موجوداً ، كان موجوداً قبلاً .

مكث : بقاء مازال موجوداً .

ولأنهم الآن في الآخرة ، ويتحدثون عن البقاء الدنيوي الذى انتهى فعلاً ؛ فلا يصلح للتعبير عن ذلك سوى لفظة (لَبِثْتُمْ) . ثم تأتي لإلتحدد القصر وإن اللبث المنصرم في الدنيا لم يكن سوى عشر .

• **سر تنوين (عشرا) :** إن تنوين العدد يقطع بعدم وجود التمييز (المعدود) بعد العدد ، ومن ثم وجوب أن يكون المعدود قبله ، وهذه البعدية للعدد أي وجوده بعد معدوده لا يعنى في القانون القرآني سوى اقتصار المعدود على هذا العدد الذى أغلق معدوده . وتنوين العدد يقتضى عدم وجود المعدود بعده ، مما يعنى أن التقدير لابد أن يكون قبله : إن لبثتم إلا ليالٍ عشرًا . أي أنهم يقطعون أن الدنيا لم تزد عن عشرة أيام . والعدد يأتي قبل المعدود للتوضيح . ويأتي بعد المعدود للحصر ، فالتقدير ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ملائكة ثمانية ، يقتصر عددهم على ذلك .

(١) سورة (طه) الآية (١٠) .

(٢) سورة (النمل) الآية (٢٢) .

• سبب استقصارهم المدة ؟ في البداية ما المدة التي يستقصرونها ؟ أهى :

١. اللبث في الدنيا ، فلم يلبثوا سوى مدة قصيرة فيها .
 ٢. المقصود : اللبث في القبور ، لإنكارهم البعث ويعدونه مستحيلاً وعجباً ، فعندما يرونه متجسداً ، يكتشفون سرعة تحققه . فلما لم تكن مدة بقائهم في القبر سرمدية كما كانوا يزعمون فوجئوا بذلك ؛ فقالوا لم تكن كما ظننا ، لقد كانت قصيرة جداً .
 ٣. اللبث بين النفختين ، حيث يُرْفَع عنهم العذاب فيها ، ويقدر العلماء مدتها بأربعين سنة ، فاستقصروا مدة لبثهم بعيداً عن العذاب في فترة ما بين النفختين .
- قد كنت أميل إلى الرأى الثاني ، لأن التمييز مخالف للعدد المذكر ، فهو حتماً مؤنث ، أي عشر ليال . والليال تناسب القبر أكثر من مناسبتها للدنيا . لكن بالوقوف على على آية أخرى في السياق نفسه كشفت أن المقصود الدنيا ،

● ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (١٠٤) (طه) .

فالله أعلم بمدة لبثهم التي يتحدثون عنها ، لكن أعدلهم رأياً وعملاً يقول لهم (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) فذكر اليوم ينفى أن يكون الحديث عن القبور ، ومن ثم فحديثهم عن الدنيا ، وإن ما رأوه من هول يعنى أن شدة الهول قرّمت في نظرهم حياتهم الدنيوية . لكنه يعدل عن لفظة ليلة إلى لفظة يوم ، ليبين أنهم عاشوا تلك المدة ، وأنها لم تكن لبثة قبور لا يحاسبون عليها . فهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا ، فيرونها قصيرة جداً ، حتى وصل بهم التأكيد إلى أنها عشر لا تزيد ولا تنقص . والتقدير قبل عشر يكون سنين ، وهذا يتنافى مع مبالغتهم في التقصير ، فمن ثم فالتقدير الأقرب للصواب هو (ليال) . فهي إذن قصيرة جداً ، قد جعلهم هول الآخرة

يستشعرون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا قليلاً . ولذلك جاء التعبير بحذف
المعدود ومن ثم يتم تقديره قبل العد ، ويكتسب خاصية القصر ، فتكون
المدة في نظرهم لا تزيد عن هذا العدد .

وسبب استقصار مدة الحياة هو :

١- هول ما يعاينونه يوم القيامة .

٢- انتهاء الحياة في الدنيا ، وكما قال ابن المعتز كفى بالانتهاء قصراً .

٣- إيهام أنفسهم بأنهم ليس عليهم ذنب ، فلم يستمتعوا في الدنيا لأنهم
لم يعيشوا فيها إلا قليلاً ، فلم يكن لديهم وقت للتفكير في أمرهم والإيمان
بربهم ، أو أنهم بعثوا لأنهم لم يلبثوا في القبور وقتاً طويلاً تقنى فيه
الأجساد ، ولو لبثوا طويلاً ، وأصبحت أجسادهم رماداً ما حدث البعث ،
فهم لم يخطئوا عندما أنكروا البعث ، فهم أنكروا البعث بعد الموت الطويل
، وما هم فيه بعث بعد موت قصير .





الفصل الثالث



العدد السماوي

الفصل الثالث

العدد السماوي

تمهيد :

الصيغة العددية من العدد الواحد متعددة ، فمثلاً العدد : اثنان ، نجد تلك الصيغ : اثنان ، مثنى ، ثاني ، وربما يعبر عن اثنين بكلمة (آخران) ، وقد يستعمل وكذلك العدد ثلاثة : نجد : ثلاثة ، ثلاث ، ثالث ، وقد تجد ثالث ثلاثة ، ورابع ثلاثة ، وربما يعبر عنها بكناية عددية مثل : كلمة معدودة أو معدودات .. وقد يستعمل الكسر فيقول : الثلثان ، أو يقول الثلثان مما ..

يتناول هذا الفصل :

- ١- العدد واحد ٢- الفرق بين أحد ، واحد .
- ٣- الفروق بين الصيغ : ويتناول (اثنان وحدها / اثنان الوصفية / ثاني / مثنى)
- ٤- الفرق بين ثاني اثنين ، ثالث اثنين .
- ٥- الثنائيات . ويتناول : مرتين ، ضعفين ، كرتين ، اثنتين .
- ٦- التجمعات الثنائية ويتناول : (الجمعان ، الفريقان ، الحزبان ، الفئتان ، الطائفتان ، الخصمان) .
- ٧- الكل والمتبقي .

٨- العدول عن العدد ويتناول الكناية التي يستعاض بها عن العدد : آخر، أخرى / قرناً، قروناً / معدودة ، معدودات / اثنان ، آخران ، بضع .

المبحث الأول : العدد واحد :

أصل كلمة (واحد) كما يقدمها ابن فارس هو الانفراد ، من ذلك الوَحْدَة . وهو واحدٌ قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله، قال:

يا واحدَ العُربِ الذي ما في الأنام له نظير
وقولهم : نَسِجُ وَحْدِهِ ، أي لا يُنْسَجُ غيره لنفسه^(١) .

وفي مفردات الراغب : يرى أن معاني واحد تدور حول الانفراد ؛ لأن الواحد هو الشيء الذي لا جزء له البتة . ويجعل له خمسة استعمالات :

- ١- واحد الجنس أو النوع (الإنسان والفرس واحد في الجنس ، وزيد وعمرو واحد في النوع .
 - ٢- الواحد بالاتصال : شخص واحد ، حرفة واحدة .
 - ٣- الواحد لعدم نظيره : في الخلقة مثل : الشمس واحدة ، أو في دعوى الفضيلة : مثل : فلان واحد دهره ، نسيج وحده .
 - ٤- الواحد لامتناع التجزي فيه لصغره كالهباء ، أو لصلابته كالألماس .
 - ٥- للمبدأ (مبدأ العدد كقولك واحد ، اثنان)^(٢) .
- وقد جاءت لفظة (واحد) وردت في القرآن إحدى وستين مرة ..

(١) مقاييس اللغة ، مادة وحد .

(٢) الراغب الأصفهاني ، مفردات القرآن ، مادة وحد .

١- إِلَهٌ وَحِدٌ: جاء هذا التعبير خمس عشرة مرة^(١) :

يقول الزمخشري أن سر وضع لفظة واحد بعد المفرد (إِلَه) هو أن خلو اللفظة من العدد قد يعني الجنسية لا الوجدانية ، فقولك : إنما هو إله وتسكت يعني إثبات الألوهية له ، إما إذا قلت (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَحِدٌ) : فهذا يعني إثبات الإلهية والوجدانية ، أو أفراد الوجدانية له . لهذا وجب الوصف لأن المقصود ليس إثبات الجنس ، بل إثبات العدد .

وهو رأي يمتنعنا من الموافقة عليه قوله تعالى :

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ﴾ (٧٣) (المائدة) .

فالإله لا يمكن أن يكون إلا إله واحد ، ومن ثم فهو يحمل الوجدانية بدون الوصف . وقبل أن

- ١) ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٣) (البقرة) .
- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٧١) (النساء) .
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ﴾ (٧٣) (البقرة) .
- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٦) (النحل) .
- ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٤) (الأبصار) .
- ﴿إِلَهُمَّ إِلَهُ وَحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) (النحل) .
- ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ﴾ (٥١) (التحليل) .
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهُ وَحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) (التكليف) .
- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) (الأنبياء) .
- ﴿فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحِدٌ فَاهُ أَسْلِمُوا وَيُشِرِ الْمُخِيتِينَ﴾ (٣٢) (الحج) .
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) (فصلت) .
- ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) (العتيقون) .
- ﴿اتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًُا وَحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١) (التوبة) .
- ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) (البقرة) .
- ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (٤) (الصافات) .

نجيب عن سبب الوصف بكلمة واحد ، فنخرج في عجلة عن سر وضع الأعداد نعوتاً :

لقد جرت عادة العرب على عدم وصف الأعداد إلا إذا كانت جمعاً : فتقول : عندي رجال ثلاثة..، وسبب ذكر العدد أن الجمع يحتمل التعدد ، فقد يكونون ثلاثة أو خمسة . فتذكر العدد لمنع اللبس . أما العدد واحد فلا حاجة لذكره ، وكذلك العدد اثنان . فالمفرد يعني واحد فلا لبس لو لم يذكر العدد ، وكذلك المثني يدل على اثنين ، فلا لبس لو لم يُذكر العدد .

إذن فالمعول في حذف العدد بعد الرقم (١، ٢) هو أمن اللبس ، وكذلك لم تذكر بعد سائر الأعداد إلا لمنع اللبس .

مما سبق يمكن أن نؤكد أن لا حاجة لوضع عدد للجمع إلا بسبب وجود اللبس ، وكذلك هنا ، فلا إله إلا إله واحد ، بدون وصف ، لكن أمام خلط الناس وإصرارهم على تعدد الالهة وتعجبهم من فكرة الوحدانية ، وجب الوصف في مواجهة الفكر المغلوط الذي يسمح بأن يكون الواحد غير محدد ، هنا أصبح الواحد المفرد مثل الجمع قابل للتعدد ، الله يراه واحداً ، وهم يرونه أكثر من ذلك ، هنا أصبح مثل الجمع في حالة إلى تحديد لمنع اللبس الذي خلقه خلط الناس .

فهي حالة خاصة أن نصف المفرد بالعدد واحد ، وهي أن يحدث خلط ، وتفقد الكلمة جوهرها الذي يحمل الوحدانية وتصبح مطاطة أشبه بالجمع ، هنا يسري عليها قانون الجمع في وجوب تحديد العدد .

والأمر نفسه فعله الكفار عندما جاء محمد S بفكرة وحدانية الإله ، لم يستوعبوها ، لأنهم قد مطوا الكلمة حتى أصبحت أكثر اتساعاً من أن يحصرها المفرد ، فتعجبت قريش جداً من مطالبة النبي S لهم بأن يقتصروا في عبادتهم على إله واحد وقالوا :

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ (ص) .

انظر ، لقد وضعوا في كلامهم وصف لفظة واحد ، وذلك لأن الإله عندهم ليس إلهاً ، بل آلهة فتعجبوا أن يكون الوصف الخاص بالآلهة الجمع هو العدد واحد ، إن الله لم يكن مرفوضاً عند قريش ، هم يرفضون فكرة أن الإله مفرد ، فهو عندهم جمع ، وقد وضعوا له جمعاً (الآلهة) أي وضعوا لفظة معبرة عن وهم ، مثلما وضعوا لفظة الغول وهي غير موجودة ، كذلك فمادام لا يوجد سوى إله واحد ، فلا يحق أن يكون هناك كلمة تدل على الجمع وليس هناك ماصدقات لها .

وهذا يجرنا إلى الميل بأن لفظة الله هي ذاتها لفظة (الإله) حذفت الهمزة تخفيفاً لتصبح على وزن العال . وقد سمي الله بجنس الإله لأنه لا يوجد سواه فيه . لكن أمام هذا الخلط أصبحت الكلمة المفردة (إله) مشدودة بعيداً عن جوهرها المفرد، فأصبح لها منظوران :

منظور صحيح عند الله : مفرد بلا ثان .

منظور خاطئ عند الكفار : جمع لا يجوز أن يكون مفرداً .

هنا أصبحت الكلمة لا تحمل جوهر الأفراد الذي لا يحتاج إلى الوصف بكلمة واحد ، فكان لزاماً من الوصف ، لاتحادها مع الكلمات الجمع في قبولها التعدد الوهمي . ولهذا لم تأت في القرآن إلا موصوفة بالعدد واحد ليقر أنه يريد الإله بمنظور الله ، وليس بمنظور الكفار ، ومنظور الله : هو أن الإله لا يكون إلهاً إن تعدد . (إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ) ، (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدُ) ، (إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ) ، (إِلَهُكُمْ إِلَهُ الْوَاحِدُ) ، (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) . والأمر نفسه في قوله (إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ ﴾ (التحل) .

فقد اتفقنا أن هذه الكلمة اكتسبت مفهوم الجمع في دلالتها على التعدد في نظر المخاطبين من الكفار ، فوجب التحديد ، وهنا لم يختلف الأمر أنه يصر أن يفرض نظريته الصحيحة بأنه لا إله إلا إله واحد ، فينفي لهم كل عدد يمكن أن تتصف بها الكلمة :

(وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ) ، (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) .

وهكذا نرى أن سبب وصف كلمة إله هو منع اللبس مثلها مثل وصف كل الكلمات الجمع .

٢-الْوَحْدُ: جاء كلمة واحد معرفة بأل ست مرات ^(١) : وكلها تعبر عن اسم الله Y

، فالكلمة معرفة بأل تعني أنه لا ثان له مطلقاً ، وهو بذلك يختلف عن مخلوقاته ، فما من مخلوق على وجه الأرض إلا ومن جنسه على الأقل اثنان

﴿ يَصْدَحِي السَّجْنَءَ أَبَابٌ مُتَفَرِّقَتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف) .

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (البعد) .

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَتَرَى لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص) .

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الزمر) .

﴿ يَوْمَ هُمْ كَبِيرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر) .

: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) (الذاريات) .

٣- أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ : جاء تعبير (أمة واحدة) تسع مرات ^(١) : كان الناس أمة واحدة واحدة ، فقبل الانقسام لم يكن هناك سوى أمة واحدة ليس لها ثان ، لأنها بالانقسام ستكون كذلك . ولو شاء الله لجعلهم بعد الانقسام في وضعهم الأول أمة واحدة لا ثاني لها .

٤- نَفْسٍ وَاحِدَةٍ : جاء تعبير (نفس واحدة) خمس مرات ^(٢) : فالنفس الواحدة التي خُلق منها الناس ، هي نفس واحدة لا تتعدد ، وهذه النفس الواحدة هي آدم عليه السلام لا غيره ، وهو وحده من خلقت منه باقي النفوس ، ففي وقت من الأوقات كان آدم وحده بلا ثان . وجاءت مرة واحدة للتأكيد على أن خلق

(٢) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا

اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٣١) (البقرة) .
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقِيمُوا الصِّرَاطَ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨) (المائدة) .
﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩) (يونس) .
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخْتَلِفِينَ﴾ (١٨٨) (هود) .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٩٣) (الحج) .
﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) (الأنبياء) .

﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) (المؤمنون) .
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (٨) (الشورى) .

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُئْسَ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) (الزخرف) .
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (١) (النساء) .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨) (الأنعام) .
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (١٨٨) (الأعراف) .

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨) (لقمان) .
﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٦) (الزمر) .

البشر جميعاً كخلق نفس واحدة . أي أن خلقهم لا يزيد عن خلق أبيهم آدم فهي أيضاً يقصد بها خلق آدم لكن على التشبيه به .

٤- صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ: تكرر هذا التعبير خمس مرات ^(١) : الصيحة فلا ثاني لها أيضاً فبرغم أن الصيحة متكررة إلا أن الواحدة منها كافية لأداء المهمة ، والأخرى لتكرار نفس المهمة في زمن آخر ، فالمقضي عليهم بالصيحة لا يحتاجون صيحة ثانية ، وما الثانية إلا للقضاء على غيرهم . وكذلك النفخة ^(٢) .

٥- زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ: جاء مرتين ^(٣) : فالزجرة لم يكن لها ثانية ، وكذلك عندك الأرض ^(٤) والجبال لم يكن لهما دكة ثانية.

٦- وَاحِدَةٌ: جاء ت وحدها ست مرات ^(٥) : جاءت للقصر ، فقوله (وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةٌ) أي هي الوريثة الوحيدة . وقوله (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) يعني لن يثنىها ، وقوله (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ) أي الاختصار عليها ، وقوله (إِنَّمَا أَعْطَكُم بَوَاحِدَةٍ) هي عظة وحيدة لا ثاني لها ، أما (أَبَشْرًا مَتًّا وَاحِدًا نَنْبَعُهُ) فيعبر عن

- (١) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ خَائِدُونَ﴾ (١٩) (يس)
- ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) (يس)
- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) (يس)
- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥) (ص)
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْلِ﴾ (٣١) (القمر)
- (٢) ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) (الحاقة)
- (٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) (الصافات)
- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) (الصافات)
- (٤) ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (١٤) (النزعات)
- (٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَكُم بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُحْرِ وَفَرَدَى﴾ (٤٦) (سبا)
- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ (٣) (النساء)
- ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ (١١) (النساء)
- ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٢٤) (القمر)
- ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠) (القمر)
- ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥) (ص)

رفضهم التام لهذا الاختصار - ومثلها تعجبهم أن يكون هناك إله واحد فحسب . .

٧- **بِمَاءٍ وَاحِدٍ** : جاء مرة واحدة ^(١) : للتعبير عن الماء الذي تروى به النبات المختلفة فهو

الماء نفسه . تسقي به الزروع فتخرج مختلفة برغم وحدة الماء .

٨- **طَعَامٍ وَاحِدٍ** : جاء مرة واحدة ^(٢) : للتعبير عن طعام بني إسرائيل في تيههم الذي لا يقدر

على الخروج عنه ، فلم يكن أمامهم سوى الطعام الذي يمنحه الله لهم ، وهو لا

يتغير في يوم عنه في اليوم الآخر على مدى أربعين سنة .

٩- **نَجَّةٍ وَاحِدَةٍ** ، **جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ** ، **بَابٍ وَاحِدٍ** ، **ثُبُورًا وَاحِدًا** ، **مَيْلَةً وَاحِدَةً**

جاءت كل من التعبيرات السابقة مرة واحدة : أما صاحب النجعة ، فقد كان

يملك واحدة فحسب ^(٣) وبأخذ أخيه لها أصبح لا يملكها هي نفسها ، فلا أمل أمامه

لأن تكون الواحدة اثنتين ؛ لأن الواقع أنه يقاتل أن يبقوها واحدة ولا تكون صفراً

. أما قول الذين كفروا (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) ^(٤) ، فهم يريدون نزول

القرآن كاملاً عليه ، وإن نزل كاملاً ، فلن يبقى منه شيء لينزل مرة أخرى بعد تلك

المرة ، فهذه الجملة لن يكون لها ما بعدها . لماذا يقول يعقوب عليه السلام لبنيه

(لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) ^(٥) ، إن النفي هنا يعني رغبة

يعقوب على عدم الاختصار على الباب الواحد ، نعم للباب ثانٍ ، لكنهم سيلتزمون

هذا الباب ، فالعين الواحدة تراهم جميعاً ، وهو ما لا يريده يعقوب عليه السلام .

والأمر نفسه تم في النهي الآخر (لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) ^(٦) ، لأن المقصود عدم

الاختصار على الشيء الواحد . أما تحذير الله للذين آمنوا وقت الصلاة ، فذلك

لأن ما يوده الذين كفروا أن يميلوا عليهم ، وقطعاً ما يوده الذين كفروا أن تكون هي

(١) ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَعَلْتُ مِنْ أَعْتَابٍ وَرَزَعٌ وَيَحْيَلٌ صَنَوَانٌ وَغَيْرُ صَنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(الرعد).

(٢) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴿١١﴾

(البقرة).

(٣) : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣٣﴾

(٤) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٣﴾

(الفرقان).

(٥) : يوسف ، الآية ٦٧ .

(٦) ﴿ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

(الفرقان).

الميلة القاطعة التي لا يكون لها أخرى.^(١)

٥- **كُلِّ وَحِدٍ**: جاء هذا التعبير أربع مرات^(٢) : أما قوله (فَاجْلِدُوا كُلَّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا) فقد جاءت لفظة (كل) حتى لا يظن أن الجلد (مائة جلدة) للاثنتين معاً . فلو قال فاجلدوهما مائة جلدة ، لكان العقاب متصلاً ، أما التعبير القرآن فجعل العقاب مستقلاً ، لكل واحد عقابه . أما قول امرأة العزيز (وَأَتَتْ كُلَّ وَحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِينًا) فلفظة (كُلِّ) تمنع الظن أنها سكين واحدة ، فلو قال (وَأَتَتْهُنَّ سَكِينًا) لفُهم أنها سكين واحدة ، فجاء تعبير (كُلِّ وَحِدَةٍ) ليفيد أن كل واحدة معها سكينها الخاص . وفي الميراث (لِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ) فلفظة (كُلِّ) تمنع الظن بأن السدس للاثنتين معاً ، فلو قال (فلهما الثلث) لفُهم أن للرجل مثل حظ الأنثيين ، ولأخذ ضعفها وليس مثلها .

والقرآن يفرق بين التعبيرين :

﴿وَلَا بُيُوتَ لِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء)
 ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُّورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ^٤﴾ (النساء) .

فقوله : (وَلَا بُيُوتَ لِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ) لا يصلح التعبير عنه بقوله : ولأبويه الثلث . لأن هذا يعنى أن يأخذ الأبوان الثلث لو كانا على قيد الحياة معاً ، وكذلك أن يأخذ الواحد منهما الثلث حتى لو مات الآخر .

- (١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء)
 (٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور)
 • ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُكْكًا وَآتَتْ كُلَّ وَحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِينًا﴾ (يوسف)
 • ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُّورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ^٤﴾ (النساء)
 • ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ^٥ وَلَا بُيُوتَ لِكُلِّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء)

الفرق بين تعبيرى (لهما الثلث) ، (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ) :

دلالات استخدام الثلث :	دلالات استخدامات (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ)
الثلث	السدس + السدس
الثلث	السدس
الثلث	السدس
الأبوان معا	
الأب وحده (والأم ماتت)	
الأم وحدها (والأب مات)	

كما ترى من الجدول أن كلمة (لهما الثلث) لا تصلح لتسد عن قوله (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ) .

والأمر نفسه في الرجل الذي يورث كلاله (له زوجة وليس له أبناء) : فقوله تعالى (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ) لإخوته : لو قال : فلهما الثلث : لأخذ الاثنان الثلث ، وكذلك لو لم يكن إلا واحد منهما لأخذ الثلث أيضاً . أما قوله لكل واحد منهما السدس فيفيد أن يأخذ كل منهما السدس ، فإن لم يكن موجوداً سوى أخ واحد أو أخت واحدة أخذ الموجود السدس فحسب ، ولم يأخذ الثلث .

دلالات استخدام الثلث :	دلالات استخدامات (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ)
الثلث	السدس + السدس
الثلث	السدس
الأخوان معا	
أخ وحده	

وهكذا يختلف الوضع بين التعبيرين . مما يجعل للتعبير (لكل واحد منهما) خصوصيته .

والخلاصة .. إن لفظة (وَاحِدٌ) تعنى وجوب الاختصار على الموصوف ، فالواحد لا ثان له . لهذا لم تأت لفظة إله في القرآن إلا مؤصدة بالنعت (وَاحِدٌ) ليفيد الاختصار على إله واحد .

وضع لفظة واحد بعد المفردة التي تحمل في ذاتها هذا العدد (واحد) يعني الاختصار عليه ، فقولنا : تفاحة .. هي واحدة لكن هناك غيرها في مكان آخر . أما قولنا تفاحة واحدة ، فهذا يعني الاختصار عليها ، سواء في الوجود بمعنى أنه لا يوجد إلا هي في حالة انقراضها مثلاً ، أو في الحصول أي يوجد غيرها ، لكنك لن تحصل إلا على هذه . وفي كل الأمثلة القرآنية التي بلغت إحدي وستين استعمالاً جاءت كلمة (واحدة) وصفاً لعدد من الكلمات مثل : • (مَيْلَةً) ، (نَفْسٍ) ، (نَفْخَةً) ، (صَيْحَةً) ، (زَجْرَةً) ، (دَكَّةً) ، (نَجْمَةً) ، (أُمَّةً) ، (جُمْلَةً) . وجاءت كلمة واحد وصفاً لعدد كلمات آخر مثل : (إِلَهٌ) ، (بِمَاءٍ) ، (طَعَامٍ) ، (بَابٍ) ، (ثُبُورًا) .. وقد أضاف الوصف بلفظة واحد لهذه الكلمات ملمح القصر ، أي هي نفسها لا غيرها ، وأنها في هذه اللحظة ، أو هذا الوضع مقتصر عليها .

ولعل الوقوف على عدد من المغايرات لتعبيرات قرآنية جاءت فيها الكلمة موصوفة بكلمة واحد مرة ، ومرة أخرى بدون أن توصف به يجعل ما نقطع به أكثر سطوعاً :

١- مغايرة قرآنية | ماء واحد :

1	{ يُسْقَى }	{ بِمَاءٍ وَاحِدٍ }	{ [الرعد] }
2	{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ }	{ مِنْ مَّاءٍ }	{ [النور] }

الصورة الأولى 1- : { بِمَاءٍ وَاحِدٍ } ^(١) : الماء نفسه ينبت كل الأنواع ، مع تغير طعومها .

الصورة الثانية 2- : { مِنْ مَّاءٍ } ^(٢) : لو قال من ماء واحد ، لكان خلق كل دابة من نفس الماء .

(١) سورة الرعد {وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنُونًا وَعَيْرٌ صُنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ} {٤} .

(٢) سورة النور {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ} {٤٥} .

٢- مغايرة قرآنية | طعام واحد :

1	{ لَنْ نَّصْبِرَ }	طَعَامٍ وَاحِدٍ { ٦١ }	[البقرة]
2	{ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ }	طَعَامٍ { ٥٣ }	[الأحزاب]

الصورة الأولى 1-ي: {طَعَامٍ وَاحِدٍ} ^(١): الوصف بكلمة واحد أفاد الاختصار عليه وأنه لا يوجد غيره .

الصورة الثانية 2-ة: {طَعَامٍ} ^(٢): لم يصف طعام بكلمة واحد ، لأن الدعوة إلى طعام في بيت النبي S لن تكون لطعام ثابت ، بل متغير ، فوضع كلمة واحد يعنى الثبات على نوع محدد من الطعام ، وعدم وضعها هنا دلالة على أن الطعام متغير ، لا يقتصر على نوع ثابت لا ثان له .

٣- مغايرة قرآنية | ثبور واحد :

1	{ فَسَوْفَ يَدْعُوا }	ثُبُورًا { ١١ }	[الانشقاق]
2	{ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ }	ثُبُورًا وَاحِدًا { ١٤ }	[الفرقان]

الصورة الأولى 1-ي: {ثُبُورًا} ^(٣): الثبور هو الهلاك . ويدعوه ، أي يقول : يا ثبوره . ولم يغلق بلفظة واحدة مما يعنى أنه سيدعو ثانية وثالثة .

الصورة الثانية 2-ة: {ثُبُورًا وَاحِدًا} ^(٤): عندما أراد أن يؤكد كثرة دعوات الهلاك ، وضع

(١) سورة البقرة {وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ} {٦١}.

(٢) سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْرِينَ إِنَّهُ {٥٣}.

(٣) سورة الانشقاق {فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا} {١١}.

(٤) سورة الفرقان {لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا} {١٤}.

لفظة (وَحِيدًا) بعد نفي دعوة الثبور ، ليؤكد أن الدعوة لا تقتصر على دعوة هلاك واحد ، بل أكثر ، وجاء توضيح ذلك في العطف (وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا).

٤- مخايرة قرآنية | باب واحد :

- | | | | | |
|---|---|---------------|--------|----------|
| 1 | { وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي } | بَابٍ وَحِيدٍ | { ٦٧ } | [يوسف] |
| 2 | { فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ } | بَابٌ | { ١٣ } | [الحديد] |

الصورة الأولى 1-ي: { بَابٍ وَحِيدٍ }^(١): يطلب يعقوب عليه السلام من بنيه الذاهبين إلى مصر ألا يدخلوها من باب واحد .

الصورة الثانية 2-ة: { بَابٌ }^(٢): لم يضع كلمة واحد ، دلالة على أن السور له أكثر من باب . ولو قال باب واحد ، لدل على أنه لا يوجد له ثان .

٥- مخايرة قرآنية | نفس واحدة :

- | | | | | |
|---|-----------------------------------|------------------|---------|-----------|
| 1 | { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ } | نَفْسٍ وَاحِدَةٍ | { ١٨٩ } | [الأعراف] |
| 2 | { وَقُلْتُ } | نَفْسًا | { ٤٠ } | [طه] |

الصورة الأولى 1-ي: { نَفْسٍ وَاحِدَةٍ }^(٣): يقصد آدم ، حيث لم يكن له ثان ، ومنه خلق الله سائر النفوس . وهكذا كل تعبير قرآني (نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) لا يقصد إلا آدم ، لأن وجود كلمة واحدة يفيد أنه لا ثان له ، وهذا لم يتوفر لأحد إلا في آدم حيث

(١) سورة يوسف { وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَحِيدٍ وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا }.

(٢) سورة الحديد { فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }.

(٣) سورة الأعراف { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ }.

كان في وقت من الأوقات لا ثانى له .

الصورة الثاني 2ة : {نَفْسًا} ^(١) : أي أن هناك غيرها من النفوس . وقد قتل موسى نفساً واحدة ، لكنه لو وضع كلمة واحدة فهذا يعنى أنه لا يوجد إلا هي ، لأن كلمة واحدة تستبعد وجود ثان . بينما الواقع أنه قتل نفساً ، وهناك ملايين من النفوس تعيش . ومثلها قوله تعالى في سورة الكهف : (أَفَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْفَكْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً) ^(٢) فالخضر قتل نفساً ، لكن غيرها مما لم يقتل يعد بالملايين .



(١) سورة طه {وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ} .

(٢) سورة الكهف ، الآية (٧٤) .

المبحث الثاني : الفرق بين واحد ، وأحد :

ينبثق من المادة (وحد) : لفظان يلتبسان هما : الواحد ، الأحد . وكثر الكلام عن اتفاقهما ، واختلافهما ، ولا شك أن مذهبنا يتجه إلى عدم تساوي لفظتين ، لاستحالة إحلال أحدهما مكان الآخر في كتاب الله ، وإلا يكون ثمة تحريف للكلم عن مواضعه ، فما الحال وقد حمل الله ﷻ كلتا الصيغتين ليكون كلاهما اسماً من أسمائه الحسنى ؟

وهل نحن بحاجة للوصف بكلمة واحد ، أليس في كونه مفرداً دلالة على عدده ، فلماذا إذن الوصف بهذا العدد ؟ ألا يعني عنه اتصاف الشيء به ، أنت في حاجة للعدد لتحديد بعضاً من كل ، تقول ثلاث أشجار ، وأربع أشجار ، وخمسة أشجار للدلالة على هذا العدد من بين كل الأشجار ، لكن ماذا عن المفرد والمثنى ، لست بحاجة للعدد ، إذ نقول : شجرة للمفرد ، وشجرتان للمثنى . وهكذا لست بحاجة للوصف بالعدد واحد ، لأن الموصوف المفرد يحمل هذا العدد في ذاته بدون حاجة لذكره ، فإن يذكر فلا يعني إلا شيئاً واحداً هو عدم حاجتنا لذكر العدد .. فأنت تذكر العدد لتقرر بعضية المذكور ، كذلك عندما تذكره وأنت لست في حاجة لذكره ، فأنت في الجهة المقابلة أي تقرر كلية المذكور . وأنه في هذه الحالة لا تتوافر فيها صفة البعضية .

فأنت لا تستعمل العدد واحد لتخبرنا أن المفرد واحد ، لكنه تستعمله لتضيفاً ملمحاً جديداً هو اقتصار المعدود عند الوصف بكلمة واحد على تلك الوحدة ، وفي كل الاستعمالات كان المقصود بكلمة واحد : هي نفسها لا غيرها ، وأنها عند الوصف بها تحمل معنى الاقتصار عليها ، وامتناع أن يكون لها ثان .

٢- الْوَحْدُ : جاء كلمة واحد معرفة بأل ست مرات ^(١) : وكلها تعبر عن اسم الله ﷻ

- (١) ﴿يَصْدَحِي السَّجْنَءَ أَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣١) (يوسف) .
- ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦) .
- ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) (الزمر) .
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٥) (ص) .
- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤) (الزمر) .
- ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) (غافر) .

، فالكلمة معرفة بأل تعني أنه لا ثان له مطلقاً ، وهو بذلك يختلف عن مخلوقاته ، فما من مخلوق على وجه الأرض إلا وله من جنسه على الأقل اثنان : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات) .

• حجب الألف في كلمة (الْوَحْدُ) لأن الكلمة يشترك فيها الله والناس ، وعند اجتماع الله مع غيره يحجب الألف ليثبت عدم التساوي بينه وبينهم . وهكذا في كل كلمة تطلق على الله وعلى الناس ، يحجب القرآن ألفها للإشارة إلى التفاوت بين الخالق سبحانه وبين العبد المخلوق . فإن سألت فلماذا وضع الألف في لفظة (أَلْفَهَارُ) المصاحبة معها؟ والإجابة لأنه يتحدث عن أفعال الله ذاتها ، ولا يوجد فعل لله يختلف عن آخر فوجب إثبات الألف . لأنها أفعال لا تتفاوت فيما بينها .

إن أن الواحد في مواجهة غيره (يحجب الألف لوجود التفاوت) والقهار للتعبير عن أفعاله ، وكلها متساوية في تحقيق القهر بطريقة ثابتة (يثبت الألف لتساوي الأفعال مع بعضها البعض) .

• لم يستخدم لفظة الأحد ، لأن الأحد هي الصفة المختصة بالكيفية ، فالأحد أي الكل الذي لا يتكون من أجزاء ، وتلك كيفيته Y ، وهي بذلك تختلف عن كل كيفية لمخلوقاته ، فما من مخلوق إلا ويتركب من أجزاء ، فأصبحت كلمة الأحد مصداقاً لقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) . ولأنه في هذا الصدد يعقد مقارنة بين الأرباب الباطلة ، والله الحق ، من حيث العدد ، لذلك وجب استخدام اللفظة المعبر عن العدد وهي الواحد ، وهي لفظة تنفي عنه العدد لأنها تحمل معنى الاقتصار على الواحد .

وبذلك تتكامل الصفتان (الأحد ، الواحد) ، فالواحد تقطع باقتصاره على الواحد ، والأحد تنفي اقتسام هذا الواحد إلى أجزاء . لكن عند التعبير عن العدد فلا يصلح إلا لفظة (الْوَحْدُ) .

• الواحد أي من لا ثان له ، وقد حجب ألف المساواة فيها ليبين أن ثمة

اختلافاً بين وصف الله بالواحد ووصف غيره بذلك .

. ولم تأت الواحد وحدها ، فهي ملازمة للقهار ، ولا قهر إلا بغلبة وعلو ، بحيث يصبح المغلوب كاللحم المطبوخ الذي يسيل ماؤه . وإن كانت الواحد تأتي لمقابلة الجمع في الأرباب المعبودة من دون الله ، فالتقهار تأتي في مقابلة وصف الأرباب بأنهم (مُتَفَرِّقُونَ) ، فالمتفرقون عاجزون ، أما القهار فغالb ومعتل ، وغريمه لا حول له ولا قوة ، قد فقد ذاته . وجاءت القهار مثبتة الألف عند الحديث عن أفعال الله ذاته ، فعند المقارنة بين أفعال الله لن تجد اختلافاً فيما بينها ، ولم تحذف إلا في موضع واحد في سورة الرعد (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَرُ ١٦) لأنه لا يتحدث عن أفعال لله في مقابلة أفعال أخرى لله ، بل يتحدث عن الله في مقابلة آلهة أخرى تزعم لنفسها القهر ، فعند التقابل بين فاعلين للقهر ، حجب الله الألف ليبين الهوة بينه وبينهم . وأنهم لا يتساوون معه أبداً في القهر ، لأنهم عباده ، وهو القاهر فوق عباده ، فهم لا يتساوون معه في القهر أبداً لأنهم مقهورون منه .

هـ- مناصرة قرآنية | أَحَدٌ ، وَاحِدٌ :

1	{ قُلْ هُوَ اللَّهُ	أَحَدٌ	{ ١ } [الإخلاص]
2	{ وَلِلَّهِ كُفْرُ إِلَهٌ	وَاحِدٌ	{ ١٣٣ } [البقرة]

الصورة الأولى 1-ى : { أَحَدٌ }^(١) : لم تأت أحد لوصف الله y إلا مرة واحدة في سورة الإخلاص . والله أحد أي ليس كمثله شيء ، فما مخلوقاته إلا كل يتكون من أجزاء ، وتنزه سبحانه وتعالى عن ذلك .

الصورة الثانية 2-ة : { وَاحِدٌ }^(٢) : الواحد لم يأت وصفاً لله y ، بل جاء وصفاً لإلهيته ،

(١) سورة الإخلاص { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ } .

(٢) سورة البقرة { وَلِلَّهِ كُفْرُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ١٣٣ } .

ليعنى نفي الثاني . فالإله واحد أى لا ثان له . وبذلك نرى أن الواحد هي وصف له من حيث العدد فلا ثاني له ، والأحد وصف له من حيث الكيفية فلا أجزاء له .

والخلاصة التي أخلص لها إن ثمة فرق بين الكلمتين واحد ، أحد : وكلاهما وصف لله **Y** .. فهو واحد أى لا ثان له فهذا وصفه من حيث العدد . وهو أحد أى لا أجزاء له .. وهذا وصفه من حيث الكيف ، أي ليس كمثله شيء ، لأن ما من شيء إلا وله أجزاء .

وهكذا نجد أن الصفة الفارقة في مسميات الله **Y** هي مفارقتها لصفات مخلوقاته ، فهي حي لا يموت ، بينما الإنسان حي يموت ، ولذلك لا يصح أن يقال للإنسان الحي ، لأن حياته ليست دائمة إذ يعقبها الموت . واللفظة الدقيقة للتعبير عن الإنسان الصائر إلى الموت هي ميّت بتشديد الياء . وقد جاء في القرآن الكريم بهذا المعنى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (١٥) (المؤمنون)

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٣٠) (الزمر) .

لفظة ميت وجمعها ميتون لا تعني إلا البشر في رحلتهم الحياتية المؤقتة ، ولا شك أن لفظة ميت بما تعني أن الموت يعيش في داخلها هي لفظة تتفق مع ما نفهمه من قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (٢) (الملك) .

فخلق الموت يعني أن الموت مخلوق ، أي الموت يحيا ، فهو بذرة يحملها المولود ، فإذا تمت مدة الحمل نزل الوليد (الموت) ليعلن انتهاء صفحة الأم التي حملته ، فالإنسان يحمل الموت داخله ، فهو ميت من اللحظة الأولى أي يعيش الموت فيه .

فالله **Y** إذن هي الحي :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (٥٨) (الفرقان) .

وكأن الله يعرف لنا لفظة الحي ، الحي هو الذي لا يموت ..

ولا يفارق الخالق مخلوقاته في تلك الصفة فحسب ، بل في كل صفاته ، لا يستقيم الأمر إلا إذا كان صفته مخالفة لنفس الصفة في مخلوقاته ، فالله واحد أى لا ثان له ، بينما ما من مخلوق إلا وله ثان ، ولا يتصف مخلوق بالوحدة إلا اتصاف مقيد بالزمان والمكان أي هو

وحده في هذا المكان ، لكن في مكان آخر يوجد ثان وثالث له .

وهو أحد أي لا أجزاء له ، وما من مخلوق إلا وله أجزاء يتكون منها ، وهو قادر ، وقد يتصف الإنسان بالقدرة النسبية ، لكنه لا يتصف أبداً بالقدرة المطلقة ، وأقصد بالقدرة المطلقة : القدرة على فعل الشيء وعكسه ، فهو قادر على الإماتة وإحياء من أماته ، وهو قادر على أن يجعل الحرق في النار وأن يسلبها تلك القدرة ، وهو قادر على أن يمد الأرض بقدرة الجاذبية لكن يعطلها مع الطير التي لا تستطيع الأرض أن تجذبه .

وتبقى نقطة ..

هل لا تختص كلمة أحد بالناس ؟ يذكر ابن منظور في لسان العرب أن أحد تصلح في موضع الجحود تقول : ما جاءني من أحد ، ولا تقول : قد جاءني من أحد . ويرى أن الفرق بين

• ما أتاني أحد : يعني لا واحد أتاني ولا اثنان .

• أتاني واحد : فيعني لم يأتني منهم اثنان .

أما الراغب في مفرداته فيرى أن أحداً لاستغراق النفي : مثل ما في الدار أحد ، يعني لا واحد ولا اثنان فصاعداً لا مجتمعين ولا مفترقين ، ولا يصح استعماله في الإثبات لأنه لا يصح إثبات المتناقضين . لكنه يستدرك فيقول إنها تأتي في الإثبات :

١. مضافة مثل : أحدهما .

٢. أو مركبة في الأعداد مثل أحد عشر

٣. أو مفردة وتكون وصف مطلق لله فحسب مثل قل هو الله أحد .

وإذا دلت على الناس فهي تدل على واحد لا يمكن أن تحدده من غيره : مما يدل أن لفظة الأحد تدل على التماسك : انظر إلى قوله تعالى (أَحْذَهُمْ) ، (أَحْذَكُمُ) فهي تدل على الواحد ، لكن الواحد غير المحدد من المجموعة المضاف إليها ، فقوله أحدهم أي : أي واحد فيهم . فهي لفظة تنطبق على كل منهم ، لكن لا تستطيع أن تحدد أيهم .

وهذه أمثلة لاستعمالات أحد المضافة :

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(١): يعني واحداً محدداً دون غيره ، بل هذا القول ينطبق على كل واحد منهم ، لكن لا يزعم أحد أنه يقتصر على واحد دون الآخر . أي واحد منهم . فالكلام على الجميع ، ولا يخلو منهم في ذلك واحد .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾^(٢) : كتب على أي واحد منهم . فهو خطاب لكل واحد من المجموع دون تحديده من بينهم . ومثلها قوله تعالى (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) ^(٣) ، (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) ^(٤) ، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) ^(٥) ، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) ^(٦) ، (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ) ^(٧) ﴿١٠﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى﴾^(٨): يخبر عن كل واحد منهم دون تمييز . فما من أحد منهم يُبَشِّرُ بالإنثى إلا (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ) . ومثلها قوله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا) ^(٩) .

﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾^(١٠): القائل يطلب أن يذهب أي واحد ، ولم يحدد واحداً منهم .

﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(١١): الكلام يُوجَّه للجميع دون تحديد لواحد منهم ، ومثلها قوله تعالى : (يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ) ^(١٢)

(١) سورة البقرة : ٩٦ .

(٢) سورة البقرة : (١٨٠) .

(٣) سورة النساء : (١٨) .

(٤) سورة المائدة : (١٠٦) .

(٥) سورة الأنعام : (٦١) .

(٦) سورة المؤمنون : (٩٩) .

(٧) سورة المنافقون : (١٠) .

(٨) سورة النحل : (٥٨) .

(٩) سورة الزخرف : (١٧) .

(١٠) سورة الكهف : (١٩) .

(١١) سورة الحجرات : (١٢) .

(١٢) سورة البقرة : (٢٦٦) .

✿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ^(١) : يطلب القائل أن يأخذ حاكم مصر أي من العشرة مكان بنيامين .

✿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا^(٢) : تصلح للتعبير عن الأب ، أو الأم دون تحديد أحدهما .

✿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكَ مِنَ الْغَائِطِ^(٣) : الكلام صالح لأي واحد من المخاطبين .

✿ لَا تَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ^(٤) : كل الأنبياء سواء ، واللفظة تصلح للتعبير عن كل منهم دون تخصيص لواحد ومثلها قوله تعالى (وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ)^(٥) .

✿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا^(٦) : يتحدث عن الذين ماتوا وهم كفار ، فالكلام ينطبق على أي واحد منهم دون تحديد .

✿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ^(٧) . أي واحد دون تحديد لأحد منهم .

✿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي^(٨) سليمان يطلب ملكاً لا يصل إليه أحد ، والكلمة تنطبق على كل واحد دون تحديد لواحد .



(١) سورة يوسف : (٧٨) .

(٢) سورة الإسراء : (٢٣) .

(٣) سورة النساء : (٤٣) .

(٤) سورة آل عمران : (٨٤) ، سورة البقرة (١٣٦) .

(٥) سورة النساء : (١٥٢) .

(٦) سورة آل عمران : (٩١) .

(٧) سورة الأحزاب : (٤٠) .

(٨) سورة ص : (٣٥) .

المبحث الثالث : الفروق بين الصيغ في الأعداد : العدد (اثنان نموذجاً) :

عائلة اثنان وأخواتها .. تحاول التفرقة بين اثنين بحالتيها : المجردة والوصفية ، والتفرق بين اثنين وثنائي ، ومثنى ..

أ. اثنان وحدها:

في المبحث السابق الخاص بالعدد واحد قلنا أن العدد واحد لا يحتاج ذكره ، لأن وجود الكلمة مفردة يغني عنه ؛ فإن ذُكر فهذا يعني الاختصار عليه ، ومن هنا جاء المفهوم الدقيق لكلمة واحد كاسم من أسماء الله : فهو الواحد الذي ليس له ثان .

كذلك كلمة (اثنان) لسنا بحاجة إليها لأن المثنى (ضم الكلمة إلى أختها) يغني عنها ، فقولك (جنتان) يغني عن ذكر كلمة اثنتين ، إذن عند ذكرها فهذا يعني أننا لا نقدم عدداً ، لأننا بغنى عن العدد بذكر المثنى ، وإنما يعني أننا نقتصر على هذا العدد .

ولذلك لن تأتى (اثنَيْنِ) وحدها إلا لتدل على الاختصار على هذا العدد بالنسبة للمقصود بها . في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (غافر) .

فليس للإنسان سوى حياتين واحدة بعد ولادته ، والأخرى بعد بعثه من موته . وليس له إلا موتتين : واحدة قبل ولادته وهو تراب ، والأخرى بعد حياته الأولى عندما يدخل القبر .

ولأنه ليس له إلا حياتان جاء التعبير عنهما بكلمة اثنتين .

ولأنه ليس له إلا موتتان : جاء التعبير عنهما بكلمة اثنتين .

ب . الوصف باثنين :

إن العدد (اثنين) يغنيك عنه ضم الواحد إلى مثيله ، فلست بحاجة لأن تقول عن تفاحة وتفاحة : اثنان ، لأنك يمكنك أن تقول عنهما : تفاحتان . وقد يقول قائل : مادام كلمة تفاحتان تغني عن اثنين فما الحاجة إلى اثنين ؟ ومتى نستخدم اثنين ولا نستخدم لفظة المثنى ذاتها ؟ ومتى نضع كلمة اثنين وصفاً للمثنى ومتى لا نضعها ؟ ما القانون الذي يحكم الحاجة إلى لفظة اثنين وحدها ، وإليها وصفاً للمثنى ؟

إجابة هذا السؤال هي الهدف من البحث التالي الذي يهتم بكلمة (اثنين) عند الوصف بها ، وليس عند استعمالها بوصفها كلمة مستقلة :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (١١٦) (المائدة) .
﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾ (٥١) (النحل) .

في النص الأول لم يضع القرآن الكريم كلمة (اثنَيْنِ) وجاء التعبير (اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ) بدون وصف . وذلك لأن وجود كلمة اثنين : يفيد أن استنكار القول ينحصر في التحديد ، بينما حجبها يفيد أن الاعتراض في وجود الموصوف ذاته ، أي أن الاعتراض هو القول بذلك بغض النظر عن العدد . فالرفض لفكرة الألوهية ، وليس لعددتها .

أما في الأولى (لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) ، فالتعبير : لا يطلب رفض فكرة الألوهية ، لأن الله يقرر وجوب وحدة الإله ، فهو يثبت فكرة الألوهية ، لكنه يثبتها مع الواحد ، فلو حجب العدد هنا ، لاتجه الكلام إلى رفض فكرة الألوهية نفسها ، والله ﷻ لا يريد ذلك ، لذلك جاء بالعدد (اثنَيْنِ) ليحصر الرفض في فكرة العدد ، وليس في فكرة الألوهية نفسها .

أَتَخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ^(١) : مرفوض فكرة ألوهيتهما . ولو وضع (اثنين) لدل المعنى أن القائل (الله عز وجل) يقبل فكرة أن يكون أحدهما إلهاً ، وأن الاعتراض ليس على أن يكون أحدهما إلهاً ، بل الاعتراض على العدد ، هو يوافق على واحد ، لكن يرفض أن يكونا اثنين ، وهذا قطعاً غير مراد ، لذلك لا يصلح إثباتها ، حتى لا تحول المعنى من رفض فكرة التأله من الأساس إلى قبولها ، لكن المفاوضة على العدد .

لَا نَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ^(٢) : مرفوض فكرة ثنائية الألوهية ، أي أن فكرة الألوهية في ذاتها مسموح بها ، وحتى لا يفهم فاهم أن الرفض مقتصر على الاثنين ، ومن ثم فالإله الواحد مقبول ، والثلاثة كذلك ، لذلك جاء أسلوب القصر بعدها (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ؛ ليؤكد أن المقصود هو رفض كل اتجاه يبعد عن وحدة الإله . وأن هذا التعبير جاء للرد على من يتبع ثنائية الإله . وقد احتاط القرآن حتى لا يستغل أصحاب التثليث فرصة رده على الأثوية برفض ثنائية الإله ، فيظنون أن المرفوض هو الثنائية فحسب ، وما بعد الثنائية صحيح سواء قل عنها أو زاد . لذلك جاء التعبير الأول (لَا نَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) ليستبعد الثنائية ، ومن ثم سيفهم أحد اتجاهين :

١- وحدة الإله .

٢- ثالوث الإله .

لذلك جاء التقييد (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) ليستبعد التثليث .

وبذلك نرى أن كلمة (اثنين) : عند الوصف بها تقييد : العددية ، وعند عدم وجودها تقييد : جوهر الكلمة .

والأمر نفسه :

(١) سورة المائدة : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } .

(٢) سورة النحل : { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ } .

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ^(١) : الزوجين هنا جاءت منعوتة باثنين ، أي أن المقصود التعدد . وأن الله
 ي جعل في الأرض زوجين اثنين فحسب ، هما الذكر والأنثى . ومنهما جاء
 النسل كله .

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ^(٢) : لم يضع الوصف (اثنين) لأن من كل شيء خلق زوجين اثنين ،
 فلو وضع اثنين لدل أن المخلوق من كل شيء هما اثنان فحسب . وهذا غير
 صحيح ، لأن الشيء الواحد خلق منه زوجان ، فلو وضعت الصفة (اثنين)
 لجعل كل الأشياء خلق منها زوجان اثنان فحسب .

وهكذا نرى أن كلمة اثنين تأتي للقصر على العدد اثنين فحسب . فزوجين
 في الأولى تتحدث عن زوجين اثنين فحسب هما أول البشر . وفي الثانية
 تتحدث عن أزواج متعددة ، من كل شيء زوجين .

أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ^(٣) : جاءت اثنين للتقيد ، حتى لا يحمل أكثر من زوجين من
 نوع واحد ، فوضع (اثْنَيْنِ) : يفيد أن يحمل من كل نوع : زوجين ذكراً وأنثى ،
 ولو حجب (اثْنَيْنِ) لكانت التحميم على أن لا يترك نوعاً لا يأخذ منه زوجين
 ، لكن لا مشكلة لو أخذ من النوع الواحد أكثر من زوجين . وتكرر ذلك في
 سورة المؤمنون^(٤) .

وقد غاير النص القرآني في سورة المؤمنين فاستعمل (فَأَسْلَفَ فِيهَا)
 بدلاً من قوله تعالى (أَحْمَلُ فِيهَا) وسر ذلك أن الأمر (أَحْمَلُ فِيهَا) قيل لنوح
 عند الأمر ببناء السفينة ففيه سعة ، أما الثاني (اسلك) فقيل بعد اكتمال
 البناء والتنفيذ الفعلي .

(١) سورة الرعد : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ
 النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٢٠) .

(٢) سورة الذاريات : { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٤٩) .

(٣) سورة هود : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } (٤٠) .

(٤) سورة المؤمنون : { فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُهُمْ
 مُمْغِرُونَ } (١٧) .

ج:۔ ثانی :

ثاني .. هو عدد وصفي ، يدل على الترتيب ، وليس على العدد ، فالثاني هو واحد ترتيبه الثاني . ومثله أي عدد ترتيبي ، فلا يحمل دلالة عدده ، فالسابع لا يدل أبداً على سبعة ، ولا علاقة له بالرقم سبعة سوى في الترتيب .

وإذا أضيفت كلمة ثانية إلى مثلها (ثاني اثنين) دل ذلك على أن كل منهما ثان .

● ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ أَشْيَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة).

فقوله تعالى (ثَاثٌ أَشْتَيْنِ) تشير إلى الرسول S ، ولا يعني ذلك أن صاحبه أبا بكر : هو أول عليه ، لأن لفظة (ثَاثٌ) لا تقيد الترتيب إلا إذا كانت بدون إضافة ، فإذا أضيفت إلى مثلها دلت على أن كل واحد منهما ثان ، فهو ثان لأبي بكر ، وأبو بكر ثان له .

ومن هنا نفهم تكفير الله γ للقائلين بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة ، لأنهم بإضافته إلى مثله يكون مثل الاثنين الآخرين تماماً ، وكأن الثلاثة مثلث متساوي الأضلاع ، كل منهم يساوي الآخر تماماً . بينما وصف رب العزة نفسه بأنه ثالث اثنين ، وكذلك وصف نفسه بأنه رابع ثلاثة ، وسادس الخمسة وهكذا:

﴿ ٧ ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ (المجادلة) .

وتختلف لفظة الثانية عن الآخرة ، “ فالآخرة تعنى الثانية التي لا يليها غيرها ، والثانية تحتمل أن يأتي بعدها غيرها ” (١) .

د . مثني :

إذا كان العدد (ثاني) هو عدد وصفي يدل على الترتيب الفردي . ولا يدل على الكم ، فكذلك كلمة مثني لا تدل على كم ، إنما هي عدد فتوي ، يدل على فئة ينتمى إليها بعض الناس . فمثلي أن تكون من فئة الاثنين ، وثلاث أن تكون من فئة الثلاثة ، ورباع أن تكون من فئة الأربعة .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمْنِ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء) .

الاستعمال التقليدي : اثنين وثلاثة وأربعة .

الاستعمال القرآني : مَثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ .

ما الفرق بين مثني واثنين ؟ وثلاث بضم الثاء وثلاث بفتحها ، ورباع وأربعة ؟

لوقال اثنين وثلاثة وأربعة ، لكان المعنى تزوج تسعة ، لكن مرة اثنين وأخرى ثلاثة وأخرى أربعة . لكن القول (مثني ، ثلاث ، رباع) يعنى : الفئات . أى ينقسم الرجال إلى أنواع : نوع يختار أن يكون من ذوى المرأتين ، ونوع من ذوى الثلاث ، ونوع من ذوى الرباع .

فلماذا قال : مثني ؟ ولم يقل اثنين ، لوقال اثنين ، فتعنى أن من حقه أن يتزوج اثنين ، لكن ليس معاً ، أما مثني فتعنى جمع الزوجة إلى الزوجة في الوقت نفسه .

أما قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبا) .

إن (وَفِرْدَى) تعنى واحداً واحداً ، وكلمة (مَثْنَى) تصنع مقابلة معها ، ومن ثم فمعناها : قوموا لله متحدين . كل اثنين معاً كأنهما واحد .

أما قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر) .

فتكشف أن التعبير (مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ) لا يعنى تعدد أجنحة الملك الواحد حتى يصل إلى تسعة ، بل تعنى أن الملائكة ينقسمون إلى فئات ، فئة ذات جناحين ، وفئة ذات ثلاثة أجنحة وفئة ذات أربعة أجنحة . فالتعبير بدل من قوله (أُولَى أَجْنَحَةٍ) والبدل تفصيل المبدل منه ، أصحاب أجنحة كالآتى : أصحاب جناحين ، وأصحاب ثلاثة ، وأصحاب أربعة . ويكون تفسير آية النساء : موجه للرجال كونوا أولى نساء مثنى وثلاث ورباع .. أى كونوا أى فئة شئتم ، من أولى الزوجتين أو أولى الثلاث أو أولى الأربع .



المبحث الرابع : الفرق بين ثاني اثنين ، ثالث اثنين :

إن العدد الترتيبي على صيغة فاعل يختلف باختلاف العدد الذي يضاف إليه ، فإذا أضيف العدد الترتيبي إلى نفسه كقولنا (ثاني اثنين) ، (ثالث ثالث) يختلف عنه إذا أضيف إلى غيره مثل (رابع ثلاثة) .. أحاول في هذا المبحث أن أقف على الفرق بين العدد الترتيبي عند إضافته إلى نفسه ، عند إضافته إلى غيره ..

المثال | ثالث ثلاثة ، رابع ثلاثة :

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَاقِبًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ (٤٠) (التوبة) .
 ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ (٧٣) (المائدة) .
 ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُوبُهُمْ ﴾ (٢٢) (الكهف) .

استخدم القرآن العدد الوصفي مرتين : ثاني اثنين ، ثالث اثنين (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) ، وكذلك ثالث ثلاثة (اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) وأيضاً رابع ثلاثة (ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُوبُهُمْ) . فما الفرق بين العدد الوصفي المساوي لعدده (ثاني اثنين) وبين العدد الوصفي المختلف عن عدده (ثالث اثنين) :

[المائدة]	{ ٧٣ }	اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ	}	1
[الكهف]	{ ٢٢ }	ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ	}	2

الصورة الأولى 1-ي : { أَثْنَانِ } : استخدم شهداء على الوصية اثنان لأنه يريد تحديد العدد.

الصورة الثاني 2-ة : { آخَرَانِ } : ثم قال بعدها (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) ^(١) ولم يقل (اثنان من غيركم) : لأن لفظة (اثنان) لا تفيد سوى تحديد العدد ، والعطف على قوله (أَثْنَانِ) يستوفى له العدد ، فأصبح ذكرها لا يضيف جديداً ، لهذا عدل عنها إلى لفظة

(١) سورة المائدة ، الآية (١٠٦) .

تعطي العدية والوصفية .

اثنان من غيركم : لوقالها لكان المقصود تحديد العدد كما في قبلها ، لكن العطف يضمن له تحديد العدد ، فلا حاجة له للقول (اثنان) .

آخران من غيركم : تعطي العدد وتضيف أمراً آخر هو : غربة الاثنين ، أو أجنبيتهما .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (٧٣) (المائدة) .

إن جوهر الألوهية : الوحدة ، فإن فقد الوحدة فقد جوهره .

● ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ (٧٣) (المائدة) .

إن الإله يتصف بالوحدانية ، فلا إله إلا إن يكون واحداً ، ومن ثم فكل تعدد ينفي عنه الإلوهية ، والمحصلة إنه لا إله إلا واحد . لأن التعدد فاسد ، لأن أحدهما يغلب الآخر فما الحاجة إلى المغلوب ، وإن كان التعدد فاسداً ، فالانقسام الذاتي أكثر فساداً . فهل يعيش جزآن بدون جزء ثالث ، وإن كانا يعيشان فما الحاجة إلى الثالث .. ؟

إذا كانوا يعيشون بدون انفصال أبداً فما الحاجة إلى الأجزاء ؟ ولماذا لا يكون هذا المتعدد الذي لا ينفصل .. واحداً ؟ فماذا يفترق مادام لا ينفصل عن الواحد ؟

وإذا كانوا ينفصلون ، فهل يستطيع من بقى من الأجزاء أن يعيش بدون الجزء المنفصل ؟ فإن كان يعيشان بدونه فما حاجتهما إلى الثالث ؟

وإن كان ثبت عدم الحاجة إلى الثالث ، فماذا عن الجزأين الباقيين ، هل لا ينفصلان أبداً ؟ إن كان كذلك فهما واحد . وإن كانا ينفصلان ، فالجزء الباقي هل يعيش بدون المنفصل ؟ إن كان لا يستطيع فليس بإله ، وإن كان يستطيع فلا حاجة له بالمنفصل عنه . وقال المسيح عليه السلام في إنجيل متى : كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت ينقسم لا يثبت ، فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم فكيف يقوم ملكه ؟

وقد قال (إِلَهُ وَحْدٌ) وضع العدد بعد الموصوف ليحصر الموصوف في العدد . فسقف الألوهية واحد ، فليس بعده عددٌ . دلالة على أن العدد من صفات الموصوف .

أما النص موضع الدراسة (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ) فقد بدأ بقوله (لَقَدْ) وهي جواب لقسم مقدر ، والتقدير ، والله ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثلاث ثلاثة . والفئة التي قالت ذلك هي : الملكانية : التي تقرر أن الإله مجموع ثلاثة أشياء : الأب ، والابن ، والروح القدس .

وقد حكى القرآن قولهم ، وقرر أنهم متعمدون ذلك لأنهم يأكدون قولهم بلفظة (إِنَّ) ، ولم تحل جلالة لفظة الله دون أن يقولوا قولتهم ، مما يعني عدم حياء القائلين من الله . أما قولهم الذي حكاه القرآن عنهم فهو (ثَلَاثُ ثَلَاثٍ) وقد قلنا قبلاً أن هذا التعبير يعني أن كل منهم ثالث ، مثلما قلنا إن (ثاني اثنين) يعني أن كل واحد منهم ثان . والله لا يصلح معه هذا التعبير لأنه يساويه بمخلوقاته ، لكن لو قلت ثالث اثنين فهذا يعني أنه معهم وليس مثل كل واحد منهم .

إننا أمام فارق كبير بين القولين : ثالث ثلاثة ، ثلاثة اثنين . فالأخيرة ليس فيها كفر لأن الله مع كل عدد . وقد يقول لقد قال الله Y نفسه إنه كذلك في قوله تعالى :

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة) .

فالآية السابقة في قولها (وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ) تعني أنه ما من اثنين إلا وهو ثالثهما . وكذلك قول النبي S لصاحبه أبي بكر «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

أما (ثالث ثالث) فهذا يعني أن الألوهية مشتركة بينه وبين اثنين آخرين ، وأن كل منهم ثالث .

ثالث اثنين : الله موجود مع الجميع ، يعلم نجواهم .

الإيمان . لأنه يفيد الوصف أي هو ثالث الاثنين ، ولو كانوا ثلاثة فهو رابع لهم ، فهي صفة ليست ثابتة عليه .

ثالث ثالث : الله يشترك معه اثنان في الألوهية .

الكفر عينه : لأنه يفيد أنه واحد من الثلاثة ، يتساوي بهم ، وليس بصفة .

فليس صفة ينقسم عن هذه الجزئية ، فصفته الثابتة أنه أحد الثلاثة .

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَافِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (٤٠) (التوبة) .

يتحدث النص عن هجرة النبي S وصاحبه أبي بكر الصديق . فوصف حالة محمد S في خروجه بأنه كان (ثَافِيًا أَثْنَيْنِ) . واختيار لفظ (أَثْنَيْنِ) لأن العدد اقتصر عليه وعلى صاحبه . فلماذا وصف محمد S بأنه (ثاني) ؟ وهل معنى ذلك أن أبا بكر أول ؟ لا ، ولكن كل منهما حالته أنه بالنسبة للآخر ثاني اثنين . وهو تعبير مبتكر من القرآن ، عندما يقسم العدد على الأفراد ، فلو كان العدد ثلاثة ، فكل واحد منهم ثالث ، ولو كان العدد أربعة فكل واحد منهم رابع . ولو كانوا خمسة فكل واحد منهم خامس ، ولو كانوا ستة فكل واحد منهم سادس ، ولو كانوا سابع فكل واحد منهم سابع .

ولذلك نرى أن الله Y ارتضى لنفسه أن يكون مع أي ثلاثة (هُوَ رَابِعُهُمْ) ^(١) ، لأن تلك معية تجعله مطلعاً عليهم لكن لا يساويهم ، فهو موجود مع كل عدد ، ولعلك تلاحظ أنه بدأ بتجمع من ثلاثة ولم يبدأ بتجمع من اثنين : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) ، وقد اختار (ثَلَاثَةٍ) دون اثنين ، لأنه لو قال نجوى اثنين لاحتاج أن يقول إلا هو ثالثهم ، وتلك دعوى كاذبة قال عنها القرآن (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ) ^(٢) ، ولا يمكن أن يحارب القرآن لتكذيب قضية ، ثم يقول قولاً يوهم الناس بها ، فابتعد عنها وضرب المثل بالحالة الثانية للنجوى أي الثلاثة ووقتها هو رابعهم ، ثم أشار للحالة الأولى بقوله (وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ) .

وهكذا ارتضى رب العزة لنفسه أن يكون مع أي ثلاثة (هُوَ رَابِعُهُمْ) ، لكنه قضي بكفر من يقول عنه إنه ثالث ثلاثة :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (٧٣) (المائدة) .

فقول الذين كفروا (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) يعنى أنهم يقولون أن الآلهة ثلاثة ، كل منهم ثالث . فيساوون الله بغيره تعالى عن ذلك علواً كبيراً . بخلاف قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) أي إن كل ثلاثة معهم الله ، لكنهم ثلاثة ، لم يصبح كل منهم رابع ، وكذلك قوله

(١) ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا حَمْسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (٧) (المائدة) .
(٢) سورة المائدة . الآية (٧٣) .

(وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) فهم خمسة الله معهم ، لكن لم يصبحوا بمعيتهم ستة كل واحد منهم سادس . وهكذا ترى البون الشاسع بين التعبيرين :

ثالث اثنين : فهو معهم ، لكنه لا يساويهم ، ومن يؤمن بذلك يؤمن بالغيب ، فهي شهادة له بالإيمان .

ثالث ثالث : كل واحد من الثلاثة ثالث للآخرين ، كمثلث متساوي الأضلاع ، ومساواة الله γ بمخلوقاته كفر .

ولو لاحظت الرسم القرآني لكلمة (ثَلَاثَةٌ) ستجده قد حجب ألفها في كل تكرارات الكلمة ، والسر في ذلك أنه عدد عدد قابل للجميع ، فكل ما يمكن عدده لا يتساوى مع بعضه البعض . فقولك ثلاثة أشهر تختلف عن ثلاثة أيام عن ثلاث قروء .. فاختلاف كل تمييز عن غيره أدى إلى حجب ألف المساواة لأن المميزات غير متساوية .

وقد وضع ألف ثالث ، لأنهم يساوون بين أضلاع المثلث ، فهو ثالث ، وكل منهم كذلك يصلح أن يكون ثالثاً . وهكذا في كل عدد ترتيبي (على وزن فاعل) إذا جاز أن يكون كل واحد منهم أن يكون هذا العدد أثبت الألف (ثَانِي) ، (ثَالِث) ، (رَبَاعِي) ، (الثَّالِثَةُ) ، (رَابِعُهُمْ) ، (سَادِسُهُمْ) ، (وَتَامِسُهُمْ) ، (رَابِعُهُمْ) ، (سَادِسُهُمْ) فكما ترى ، لقد أثبت ألف المساواة ، وذلك لأن كل عدد ترتيبي مساوٍ لنفسه ، فلا ثالث إلا بعد اثنين ، ولا رابع إلا بعد ثلاثة وهكذا ، ولم تحذف الألف من العدد الترتيبي (على وزن فاعل) إلا مرتين في العدد الترتيبي (الخامس) وذلك في آية الملاعنة ، والسر في ذلك هو اختلاف الشهادة الخامسة عن الأربعة السابقة عليها :

﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ۖ وَيَذَرُونَ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ۖ﴾ (٨) وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ (٩) (المجادلة) .

حجبت الألف في قوله : (وَالْخَمْسَةُ) في المرتين : لأنها الوحيدة التي تختلف عما قبلها . فلا يجوز أن تسد مكانها شهادة مما قبلها ، فالأربعة نوع ، والخامسة نوع .



المبحث الخامس : الثنائيات :

يفرق القرآن الكريم بين العدد في أحواله المختلفة ، أستم معي أننا قد نجد شيئين في لحظة واحدة ، وقد نجدهما متوالين ، يأتي أحدهما ثم يأتي الآخر ، وقد يجتمعان بعد حضورهما أو يخلف أحدهما الآخر ، وقد يأتيان بطريقة واحدة ، أو يأتي كل منهما بطريقة تختلف عن الآخر ..

إن الحدث المتكرر لا يتم بطريقة واحدة ، بل له سياقات مختلفة ، وقد عبر القرآن الكريم عن الحدث المتكرر بأربع كلمات هي :

- | | |
|------------|------------------------|
| ١- مرتين . | ٢- ضعفين . |
| ٣- كرتين | ٤- اثنتين (اثنتين) . |

• ما الفرق بين تلك الكلمات الدالة على الأحداث الثنائية (اثنتين ، مرتين ، ضعفين ، كرتين) ؟ ما السياق الذي يجب كل منها ألا تتعداه ؟ وما الشيء الذي لا يحدث إلا مرتين ؟ وما الشيء الذي كان يمكن أن يحدث أكثر من مرتين ، لكنه لم يحدث إلا مرتين ؟

هي مقدار الأحداث ، أو قياسات الأحداث ، فإن كانت الأحداث تكال أو توزن ، فما ميزان تلك الأحداث عند تكرارها .. متى نستخدم للحدث المكرر كلمة مرتين ؟ أو ضعفين ؟ أو كرتين ؟ أو اثنتين ؟

١ | مرتين :

أصل كلمة (مر) من المرور ، أي المضي والاجتياز بالشيء ، مر الشيء يمر : إذا مضى ، ومُرَّ السحاب : انسحابه ومضيّه . ولقيته مرةً ومرتين إنما هو عبارة عن زمانٍ قد مرّ .

فالمرّة من مرور الزمان ، والمرّة التي بعدها تحمل مروراً جديداً من الزمان ، فلا تجتمع المرتان إلا بفاصل زمني . والثانية تأتي بعد الأولى وليس معها ، ونرى أن تقنين كلمة مرتين إنما يكون في التعاقب إحداها بعد الأخرى .

ولو وقفنا على قوله تعالى :

﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٨٠) ﴿التوبة﴾ .

سنجد أن السياق استبعاد أن يغفر الله للمنافقين حتى لو استغفر لهم النبي S سبعين مرة ، فلا يمكن أن يكون المعنى سبعين استغفارة في وقت واحد . ولا يتناسب مع السياق الاستبعادي إلا تصعيب الأمر ، والتصعيب أن تكون الاستغفارات السبعون كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِالْحِلْمِ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَفَاتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٥٨) ﴿التور﴾ .

فقد ذكر (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ثم حدد هذه المرات لنجد أنها أوقات متعاقبة لا تجتمع مع بعضها وهذه الأوقات هي

- مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ .
- وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ .
- وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ .

وقد جاءت كلمة (مَرَّتَيْنِ) في القرآن الكريم ست مرات :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٤) ﴿الإسراء﴾

استخدم القرآن الكريم لفظة (مَرَّتَيْنِ) للدلالة على إفسادي بني إسرائيل ، فهما إفسادان لم يعبر عنهما القرآن بلفظة المصدر (إفسادين) بل

عبر عنهما بمرتين ، وذلك لأن مرتين تعني تعاقب المرة بعد المرة . وهذا لن يتحقق في المصدر ، الذي سيدل على حدوث الحدث مرتين ، لكن ربما في الوقت نفسه . وبذلك يخلو المشهد من معنى التعاقب الذي تحمله لفظة (مرتين) .

ولا شك أن هذا الاستعمال يكشف بوضوح سر استخدام مرتين ، لأن إفساد بني إسرائيل رُبط بعلوهم ، أي بوجود دولة قوية ، وهذا لم يحدث في التاريخ إلا مرتين الأولى في عهد سليمان عليه السلام ، والثانية في العصر الحديث عندما قامت دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ م . وعلو الدولة في عهد سليمان لم يمنعهم من الإفساد من بعد سليمان وعبادة البعل ، فجاء العقاب والإزالة على يد نبوخذ نصر ملك بابل (٥٨٥ ق. م) . وهذه الأيام العلو مصحوب بظلم وإفساد ، مما يعني أنه سيتبعه العقاب الثاني . لكن ما يعيننا أن العلوين ومن ثم الإفساد بينهما مسافة زمنية طويلة تصل إلى ألفين وخمسمائة سنة .

﴿ اَطْلُقْ مَرَّتَانِ فَاِمْسَاكُ مِعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحُ بِاِحْسَنِ ﴾ (البقرة).

المرأة لا تطلق مرتين في وقت واحدة ، بل تطلق الأولى ، وترجع إلى عصمة زوجها ثم تطلق الثانية . وهنا ينتهي الطلاق المسموح به .

﴿ اُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ اَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (التقصص).

لفظة (اُولَئِكَ) هنا تشير للذين (اَلَيْسَتْهُمْ اَلْكُتُبُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) فلما سمعوا القرآن قالوا (اَمَنَّا بِهِ) اِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .

هؤلاء وعدهم الله بإيتاء الأجر مرتين ، فلفظة (مَرَّتَيْنِ) تقيد أن لهم أجراً في الدنيا ، وأجراً في الآخرة . واحداً بعد الآخر . ولو كان المقصود الأجر في الآخرة ، فهو أيضاً أجر بعد آخر .

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ (٣١) ﴿(الأحزاب)﴾

وعد الله القانئة التي تعمل صالحاً من نساء النبي S بأن يؤتها أجرها مرتين واحداً بعد الآخر .

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿(التوبة)﴾

الكلام عن المنافقين ، وقد توعد الله y المنافقين بعذابين ، عذاب في الدنيا (فضحهم أو قتلهم) وعذاب في القبر . ثم بعد ذلك عذاب الآخرة . وقوله مرتين يقصد عذابين أحدهما بعد الآخر قبل عذاب الآخرة ، وهما كما قلنا عذاب القتل أو الأسر أو الفضح ، ثم عذاب ما بين الحياتين : عذاب القبر .

وهؤلاء المنافقون يفتنون مرتين في العام ، واحدة بعد الأخرى ولا يتوبون ، وفي بعض الأعوام قد يفتنون مرة واحدة .

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ يُقْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) ﴿(التوبة)﴾

ويجرنا هذا إلى استظهار لفظة (مرة) : وقد جاءت لفظة (أَوَّلَ مَرَّةٍ) ليدل على حدوث هذا الأمر قبل ذلك .

وهكذا كان استعمال لفظة (مَرَّتَيْنِ) : للإشارة إلى حدوث واحدة بعد الآخرة : فالأجر مرتين يفيد أن أجراً في الدنيا ، وأجراً في الآخرة ، وعذاب المنافقين : عذاب في الدنيا (فضحهم أو قتلهم) وعذاب في القبر . وهؤلاء المنافقون يفتنون مرتين في العام ، واحدة بعد الأخرى ولا يتوبون ، وفي بعض الأعوام قد يفتنون مرة واحدة .

أما لفظة مرة بالمفرد .. فجاءت بدورها تتفق مع التعميد السابق :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾^(١) .

الخلق مرتين ، مرة من عدم ، والثانية بعثهم بعد موتهم ، فكلمة مرة هنا تشير للأولى فيهم . ولا يمكن أن تتم المرتان في وقت واحد ، مما يعنى أن كلمة مرة لابد أن يفصل بينها وبين أختها فاصل زمني . ومثلها :

- ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾^(٤٨) (الكهف) .
- ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾^(٧٩) (يس) .
- ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٦١) (فصلت) .
- ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾^(٥١) (الاسراء) .

﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ۖ ﴾^(٢) .

يقول الله y لنبيه S بعد أول مرة تخلف فيها المتخلفون ، فإذا جاء موعد الخروج الثاني ، وطلب المتخلفون أن يخرجوا معه ، فعليه أن يرفض :

المرة الثانية : فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْكَ لِلْخُرُوجِ

قول النبي S للمتخلفين :

فَقُلْ لَنْ أَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوًّا

التعليل : إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ

﴿ وَلِيدَ خُلُوهَا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾^(٣) .

دخول المسجد يحدث مرتين ، فكما تم في المرة الأولى سيتم في المرة الثانية . والقرآن نزل بين إفسادي بنى إسرائيل ، ولذلك فدخل المسجد أحدهما تم قبل نزول القرآن وقد عبر عنه القرآن الكريم بالفعل الماضى

(١) سورة الأنعام : ٩٤ .

(٢) سورة التوبة : ٨٣ .

(٣) سورة الإسراء : ٧ .

لأنه حدث (كَمَا دَخَلُوهُ) ، والمرة الثانية التي سيتم فيها دخول المسجد ستكون بعد نزول القرآن ببضعة عشر قرناً . مازلنا ننتظرها هذا القرن . وهو أمر مستقبلي بالنسبة لنزول القرآن لذلك عبّر عنها القرآن الكريم بالفعل المستقبلي (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) .

❁ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ^(١) .

رفضوا الإيمان بالقرآن ، فذلك أول مرة ، ثم طلبوا آية ليؤمنوا بعدها ، فذلك ستكون المرة الثانية . لكن الله رفض أن يقدم لهم الآية . لأنهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، كذلك لن يؤمنوا به في المرة الثانية بعد نزول الآية .

❁ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ^(٢) .

لقد من الله على موسى عليه السلام مرتين ، الأولى عند ولادته عندما نجاه الله من فرعون وهو بين يدي فرعون ، والثانية عندما أنجاه من بين أيديهم وهم يأترون به ؛ ليرجعهم إليه نبياً معصوماً .

وبذلك نرى أن تعبير (أَوَّلَ مَرَّةٍ) يشير للمرة السابقة التي تمت قبلاً ، أما قوله : (مَرَّةً أُخْرَى) : فيشير للمرة اللاحقة التي حدثت بعد أول مرة .

❁ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ^(٣) .

المقصود إذن ليس سبعين استغفارة ، بل سبعين مرة بين كل مرة ومرة فاصل زمني . وفي كل من السبعين عدد من الاستغفارات قد تصل إلى سبعين .

❁ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ^(٤) .

نقض العهد لا يتم عدة مرات في عهد واحد ، بل يتم في عهود متعاقبة.

(١) سورة الأنعام : ١١٠ .

(٢) سورة طه : ٣٧ .

(٣) سورة التوبة : ٨٠ .

(٤) سورة الأنفال : ٥٦ .

❁ **أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ^(١) .**

قد يحدث الإفتان مرة في العام ، وقد يتعرضون له مرة أخرى في العام نفسه ، فالإفتان الثاني قد يتم أولاً ، فالإفتان يتم في تباعد زمنى .

❁ **وَهُمْ بِكَذُوبِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ^(٢) .**

المرة الثانية : مقاتلة المسلمين للكفار ، وهى المرة التى يحض الله **Y** المسلمين عليها . أما المرة الأولى فقد ارتكبها الكفار ، وقاموا بقتال المسلمين .



(١) سورة التوبة : ١٢٦ .

(٢) سورة التوبة : ١٣ .

ضعفين :

٢

كلمة ضعف في مقاييس ابن فارس لها أصلان : الأول خلاف القوة ، والآخر يدلُّ على أن يزداد الشيءُ مثله . وقال الخليل : هو أن يُزَادَ على أصل الشيء فيُجْعَلُ مثلين أو أكثر . والمضاعفة : الدَّرْعُ نُسِجَتْ حَلَقَتَيْنِ . ويبدو أن افتقار الشيء للقوة يجعله تكرر ليزداد قوة ، ومن هنا اكتسب الضعيف (عكس القوة) ملمح المضاعفة وإضافة المثل ، فلولا ضعفه ما تم تكراره . ثم أطلقت الكلمة على كل تكرار .

ومن هنا نقف على حدود كلمة ضعف (فهي تكرار المثل) . وقد جاءت كلمة الضعف في القرآن مفردة (الضَّعْفِ) ومثنى (ضِعْفَيْنِ) . فأما الضعف فهو العدد مضروباً × اثنين . ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٣٧) (سبا) .

فقوله (فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ) تفيد أنهم سيتم مضاعفة حسناتهم أضعافاً ، ولو قال لهم (نؤتهم جزاءهم ضعفين) لدل على أن الأجر مضروب في اثنين فحسب .

وجاءت الكلمة في القرآن الكريم بصيغة المثنى ثلاث مرات :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦٥) (البقرة) .

الجنة التي أصابها وابل أتت أكلها (ضِعْفَيْنِ) ولم يقل سبحانه وتعالى : مرتين ، كما قال (نَوْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) والذي يعنى إتياء الأجر مرة بعد أخرى . فلو قال مرتين بدلاً من ضعفين لدل على أن الجنة تطرح مرتين واحدة بعد الأخرى ، وهي ليست كذلك ، فهي تطرح مرة واحدة ، لكن محصولها الإنتاجي كبير ، فاستخدم (فَكَانَتْ أَكْطَا)

ضِعْفَيْنِ) ليقرر أنه في مرة واحدة ، لكن الإنتاج مضاعف . فلو كانت الجنة تخرج عشرة أطنان من الثمار ، فهي في هذه المرة ستخرج في المرة الواحدة أيضاً عشرين طناً من الثمرات .

فلفضلة ضعفين تعنى أن الإيتاء مضروباً في اثنين ، فلو كانت تنتج مائة طن في المرة الواحدة ، فقله (فَكُنْتُ أَكُلُهَا ضِعْفَيْنِ) يفيد أنها أتت مئتين طن ، فهو ضعف في الكمية في المرة الواحدة .

﴿ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمُ لَعَنَّا كَبِيرًا ﴾ (١٨) ﴿ (الأحزاب) .

إن الكافرين في الآخرة وهم في العذاب سيتمنون لو اتبعوا الرسل ، ويندمون على طاعتهم لكبرائهم الذين أضلوهم السبيل . ويدعون عليهم بأن يكون نصيب هؤلاء الكبراء من العذاب الجهنمي ضعف عذابهم .

﴿ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٠) ﴿ (الأحزاب) .

يحذر الله Y نساء النبي S بصفتهم لسن كأحد من النساء ، بأن خطأ الواحدة منهن يعني أن تحصل على ضعف عقاب غيرها ، فلورمت واحدة منهن إحدى المحصنات ولم تأت بأربع شهود ، فإن كانت أية امرأة أخرى تجلد في الحالة ثمانين جلدة فهي تجلد مائة وستين جلدة . وفي الآخرة يكون عذاب الواحدة منهن ضعف أي امرأة . ولا شك أن الحديث في الآية الثانية التي تعقب تلك الآية يكشف الفارق بوضوح بين الاستعمالين :

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (٣١) ﴿ (الأحزاب) .

فقد أئذ الله نساء النبي S التي تأتي منهن بفاحشة مبنية يضاعف

لها العذاب مرتين ، وفي المقابل وعد القانئة التي تعمل صالحاً بأن يؤتها أجرها مرتين ، وبذلك استعمل اللفظين في سياق واحد :

ضَعْفَيْنِ عند العذاب .

مَرَّتَيْنِ عند إيتاء الأجر .

فالضعفين أي العذاب في المرة الواحدة مضروباً في اثنين . أما عند إيتاء الأجر : فقد استعمل لفظة مرتين ليدل على أن الأجر ليس مضاعفاً في مرة واحدة ، بل الأجر مكرراً على مرتين ، واحدة في الدنيا والثانية في الآخرة.

والخلاصة إن الفارق بين كلمتي (ضعفين) ، (مرتين) إن الأولى تتم في مرة واحدة وتقيد أن الشيء مضروباً في اثنين ، أما مرتين فتعني أن الشيء حدث مرة ، ثم بعد ذلك حدث مرة أخرى .



اثنتين:

إن كان قد وضع الفارق بين ضعفين ، ومرتين ، في أن الضعفين : يتمان في مرة واحدة لكن الشيء يكون مضروباً $\times (٢)$ ، والمرتان : الشيء يحدث ، ثم يحدث بعد ذلك مرة أخرى . فما علاقتهما بكلمة (اثنتين) وهل يغنى أحدهما عن كلمة مرتين ؟ أو تغني كلمة (اثنتين) عنهما ؟

تتفرد كلمة اثنتين بملمح خاص يجعلها مستقلة عن الكلمتين السابقتين : فهي تفيد حدوث الشيء بعد الشيء الآخر ، وهذا يجعلها مشتركة مع كلمة (مرتين) وهنا يمكنك أن تقول : إذن تغني لفظة مرتين عنها . لكن الفارق الذي يمنع الترادف بينهما ، هو أن كلمة مرتين تدل على حدوث الشيء مرة بعد أخرى ، لكن مع احتمالية أن يكون هناك ثلاثة أو أربعة .. أما لو كان من المستحيل أن يكون هناك إلا اثنتين ، أي لا يجوز أن تقل إلى واحدة أو تزيد عن اثنتين ، فلا يجوز استعمال لفظة مرتين ، ولا يصلح إلا لفظة (اثنتين) .

ذلكم إذن هو الفارق ..

مرتين : واحدة بعد الأخرى .. (مع احتمالية أن تكون أكثر ..) .

اثنتين : واحدة بعد أخرى .. (مع استحالة أن تكون إلا اثنتين) .

جاءت كلمة (أُثْنَيْنِ) في القرآن الكريم مرتين في آية واحدة :

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ (١١) ﴿غافر﴾ .

الموت حدث يحدث مرتين : مرة وهو تراب قبل خلقه ، والأخرى بعد ولادته وهي تلك التي يقبر فيها . لكنها لا تزيد عن ذلك لذلك فالتعبير المناسب هو (أَمَتْنَا اثْنَيْنِ) . ولو كان الموت يحدث أكثر من ذلك ، فعند إصابة إنسان منه بمرتين فحسب لكان التعبير المناسب (مَرَّتَيْنِ) ، ولو كان يحدث بالكيفية نفسها للشخص ذاته في المرتين لقال : كرتين . ولما كان الموت لا يحدث إلا مرتين دون زيادة ولا نقصان كان التعبير الدقيق (أُثْنَيْنِ) . وكذلك الحياة : فالإنسان يعيش حياتين : الأولى بعد ولادته يعيش حياة في الدنيا يعقبها موت وقبر ، ثم بعث لتكون الحياة

الثانية والأخيرة في الآخرة . ولأن الإنسان لا يعيش سوى حياتين فحسب لا زيادة ولا نقصان جاء التعبير الدقيق المعبر عن المرتين في حالة الاقتصار عليهما (وَأُحْيَيْنَا اثْنَيْنِ) .

ضعفين : لا تصلح لأن هذا يعنى أن يموت مرة واحدة لكن بقوة موتتين ، أو يحيا مرة واحدة لكن بقوة حياتين ، وهذا ليس المطلوب أبداً .

مرتين : لا تصلح لأنها لا تشترط الاقتصار على اثنتين ، فلو قال أمتنا اثنتين : لدل المعنى على أن للإنسان أكثر من حياتين . وأكثر من موتتين .

وهكذا تنفرد لفظ (اثنتين) بأنها الوحيدة الصالحة للتعبير بما تحمله من ملمح انفرادي هو : اقتصار الحدث على هذا العدد دون إمكانية أن يزيد (أو يقل) عن ذلك .

لم يقل (مرتين) لأن المرة تكرر حدث ، لكنه هنا يتحدث عن اجتماع حدثين بالنسبة للشخص حدثاً في الماضي . أى أن كل واحدة منهما انضمت لأختها ، لكنه لو يتحدث عن حدثين كل واحد لا يتم إلا وحده يستخدم مرتين .

فلماذا لم يقل (مرتين) ؟ لو قال مرتين لكان يعنى حدوثهما واحدة بعد الأخرى مع إمكانية حدوث أكثر من ذلك أو أقل من ذلك . لكن لفظة اثنتين تعنى الاقتصار على هذا العدد ولا مجال لزيادة أو نقصان . وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ (١٤) (يس) .

يتحدث النص عن أهل قرية أرسل لهم الله المرسلين ، فبدأ بإرسال اثنين ، فكذبوهما ، فعززهما بثالث . فقالوا (قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) (١٥) (١) .

لماذا لم يقل (رسولين) وقال (اثْنَيْنِ) عندما يريد تحديد النوع يذكر رسولين ، لكن النوع محدد مسبقاً بقوله (إِذْ جَاءَهُا الْمُرْسَلُونَ) ، (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ) . لذلك فالغرض ليس النوع ، وإنما العدد؛ لذلك جاء القول (اثنين) أما قوله (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) فلائنه هنا لا يذكر العدد ، بل يذكر ترتيب الملحق بهم ، ولم يقل (ثلاثة)؛ لأن لفظة ثلاثة تعني أن الثلاثة أرسلوا من المرة الأولى .



أصل كلمة (كر) يدل على جمع وترديد ، من ذلك كَرَرْتُ ، وذلك رجوعك إليه بعد المرة الأولى، فهو الترديد الذي ذكرناه. والكريـر: كالحشـرجة في الحلق، سمي بذلك لأنه يرددها. وكركرت بالدجاجة: صحت بها، وذلك لأنك تردّد الصياح بها^(١).

وجاءت كلمة (كرتين) في القرآن الكريم مرة واحدة :

﴿ ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٤) (الأنعام).

فلماذا لم يقل (مرتين) ؟ التي تفيد فعل الشيء مرة بعد أخرى ، وإرجاع البصر تم واحدة بعد الأخرى ، مما يوهم بأن كلمة مرتين صالحة هنا ، والحقيقة أن ثمة ملمحاً فاصلاً يحول دون استعمال كلمة مرتين هنا . إن مرتين فعلاً تعني حدوث الشيء متعاقباً ، مرة بعد أخرى ، مع احتمالية أن يكون هناك أكثر من مرتين . لكنها لا تعني تكرار الأمر الأول مثل الثاني تماماً . وذلكم هو الفارق .

لقد استبعدت كلمة مرتين ؛ برغم تحقق ملمحيها (التعاقب ، واحتمالية الزيادة) لأن معنا ملمحاً زائداً هو التكرار التام أي التكرار بنفس الكيفية ، وليس في كلمة مرتين ما يفيد التكرار بنفس الكيفية .

ولذلك جاء استخدام كلمة كرتين ، لتعطى هذا الملمح الجديد ، وهو التكرار بالكيفية نفسها . فلفظة كرتين تشترك مع لفظة مرتين في ملمح التعاقب ، واحتمالية الزيادة ، لكنها تفترق عنها في الانفراد بملمح خاص هو التكرار بنفس الكيفية .

ضعفين : لا تصلح لأن هذا يعنى أن ينظر مرة واحدة بقوة إبصار مضاعفة .

اشتتين : لا تصلح لأنها تشترط أن يكون الفعل لا يزيد عن ذلك ، بينما إرجاع البصر يتم أكثر من مرتين .

(١) ابن فارس . مقاييس اللغة . مادة (كر) .

مرتين : لا تصلح لأنها لا تشترط أن يكون الفعل مطابقاً في المرتين ، والمطلوب أن تحدث المطابقة .

وهكذا تنفرد لفظ (كرتين) بأنها الوحيدة الصالحة للتعبير بما تحمله من ملمح انفرادي هو : تكرار الفعل بنفس التشابه أكثر من مرة .

ونختتم هذا المبحث بالتفرقة بين الكلمات الأربع بهذه المغايرة :

ضعفين | مرتين ، اثنتين ، كرتين ،

﴿ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (البقرة) ٣٦٥

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ (الإسراء) ٤

﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آثْنَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا آثْنَتَيْنِ ﴾ (غافر) ١١

﴿ ثُمَّ أَرْجَعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك) ٤

في الآية الأولى استخدم القرآن الكريم لفظة (مرتين) للدلالة على إفسادي بني إسرائيل ، والسؤال لماذا لم يقل إفسادين بدلاً من مرتين . في الآية الثانية : استخدم (ضعفين) ولم يقل مرتين . فما الفارق بين الاستعمالين ؟

﴿ ٣٦٥ ﴾ [البقرة]	ضِعْفَيْنِ	{ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا }	1
﴿ ٤ ﴾ [الإسراء]	مَرَّتَيْنِ	{ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ }	1
﴿ ١١ ﴾ [غافر]	آثْنَتَيْنِ	{ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا }	3
﴿ ٤ ﴾ [الملك]	كَرَّتَيْنِ	{ ثُمَّ أَرْجَعَ الْبَصَرَ }	4

الصورة الأول ① : { ضَعْفَيْن } : الجنة أنتجت مرة واحدة ، لكن المحصول مضروب في العدد (٢) . فالجنة لن تؤتي أكلها في المرة الواحدة مرتين ، إنما هي مرة واحدة ، لكن البركة جعلت إنتاجها ضعف زميلاتها . فلو كانت الجنة تخرج عشرة أطنان من الثمار ، فهي في هذه المرة ستخرج في المرة الواحدة أيضاً عشرين طناً من الثمرات . فهو ضعف في الكمية في المرة الواحدة . لفظة

الصورة الأول ② : { مَرَّتَيْنِ } : نتحدث عن إفسادي بني إسرائيل ، ولم يقل إفسادين ، وذلك لأن الإفساد حدث واحدة بعد الأخرى . فالإفساد : فيه قابلية لحدوثه مرات عدة ، فإن اقتصر على الأمر على مرتين من المرات فالتعبير المناسب (مَرَّتَيْنِ) وإن كان لا يجوز أن يحدث إلا مرتين فحسب فالتعبير المناسب (أَثْنَيْنِ) . أما لو كان الإفساد مكرراً بنفس الطريقة دون اختلاف فالتعبير المناسب (كَرَّتَيْنِ) .

الصورة الثاني ③ : { أَثْنَيْنِ } : لماذا لم يقولوا مرتين عن حياتهم وموتهم ؟ ذلك لأنه يتحدث عن تكرار الحدث مرتين لكن دون قابلية للزيادة .

والموت حدث يتم للإنسان مرتين : الأولى وهو تراب قبل خلقه كإنسان ، وهو لا يشعر بتلك الميتة ، والثانية هي الموتة التي تعقب حياته في الدنيا لما يدخل القبر ، ولا مزيد عن تلك الميتتين ، فعند بعثه للحساب فهو الخلود ولا موت . ولأنها لا تزيد عن تلك المرتين فالتعبير المناسب هو (أَمْتَنَا أَثْنَيْنِ) . ولو كان الموت يحدث أكثر من ذلك ، فعند إصابة إنسان منه بمرتين فحسب لكان التعبير المناسب (مَرَّتَيْنِ) ، ولو كان يحدث بالكيفية نفسها للشخص ذاته في المرتين لقال : كرتين . ولما كان الموت لا يحدث إلا مرتين دون زيادة ولا نقصان كان التعبير الدقيق (أَثْنَيْنِ) . وكذلك الحياة : فالإنسان يعيش حياتين : الأولى بعد ولادته يعيش حياة في الدنيا يعقبها موت وقبر ، ثم بعث لتكون الحياة الثانية والأخيرة في الآخرة . ولأن الإنسان لا يعيش سوى حياتين فحسب لا زيادة ولا نقصان جاء التعبير الدقيق المعبر عن المرتين في حالة الاختصار عليهما (وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَيْنِ) .

الصورة الثاني 4ة: {كُرَيْنِ}: تكرار الحدث نفسه بالطريقة ذاتها .فإرجاع البصر : لا يصلح معه لفظة اثنتين ؛ لأنه هذه العملية يمكن أن تكون واحدة ويمكن أن تكون أكثر من اثنتين . لذلك فلفظة اثنتين مستبعدة معه ، أما كلمة مرتين فقد استبعدت لأنها تأتي في حالة تكرار الشيء مرتين مع احتمال أن يكون أكثر من ذلك ، وإرجاع البصر تم في هذه الحالة مرتين مع احتمال أن يكون أكثر من ذلك ، ومع ذلك استبعدت لفظة مرتين ، لأن المرتين لا يشترط فيهما التشابه التام ، ولذلك وقع الاختيار على التعبير الدقيق (كرتين) الذي يشترك مع لفظة مرتين في ملمح احتمال الزيادة عن مرتين ، لكنه يفترق عنه بملمح خاص به هو التكرار بنفس الكيفية .



المبحث السادس : التجمعات الثنائية

وإلى جوار الأحداث الثنائية السابقة ، ثمة ثنائيات أخرى هي التجمعات الثنائية ، والتجمعات الثنائية : فريقان : كل فريق يحتوى على عدد من الأفراد ، وقد استخدم القرآن للتعبير عن تلك التجمعات الثنائية عدداً من الكلمات سنحاول أن نقف على الفروق بينها ، وهذه الكلمات هي :

١. الجمعان .
٢. الفريقان .
٣. الحزبان .
٤. الفئتان .
٥. الطائفتان .
٦. الخصمان .

١ | الجمعان :

كلمة (الْجَمْعُ) يدل كما جاء في المقاييس على تضام الشيء ، والْجَمْعُ الْأَشْأَةُ من قبائل شَتَّى. وَجَمَعَ: اسم للمزدلفة سَمِيَ لاجتماع النَّاسِ به وكذلك يوم الجمعة . ويقال فَلَاةٌ مُّجْمَعَةٌ : يجتمع الناس فيها ولا يتفرقون خَوْفَ الضَّلَالِ. والجوامع: الأغلال. والْجَمْعَاءُ من البهائم وغيرها: التي لم يذهب من بدنها شيء.

ونرى أن كلمة (الْجَمْعُ) تقال عن المتجمع عند المواجهة . ولهذا سمي يوم القيامة بيوم الجمع ، لأنه يوم فصل :

﴿ وَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى) .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ ﴾ (التغابن) .

فكل مواجهة لحسم الصراع يسمى طرفاها جمعان ، فالكلمة تحمل إلى جوار التجمع .. المواجهة بين الفريقين ، فالتجمع تجمع للنصر . ولهذا لم يكن عبثاً أن تطلق الكلمة على أحد مناسك الحج لأنه تجمع لنصرة الله ، وكذلك إطلاقها على الفلاة لأن الناس تتجمع في مواجهة الضلال . وسميت الأغلال : الجوامع : لأنها تجمع القمح الذي به حياة الإنسان .

• ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥﴾ (القمر) .

هذه الآية بشرى للمسلمين ، وهم مازالوا في مكة ، حتى قال عمر بن الخطاب : أي جمع ؟ ولا يهزم الجمع إلا في مواجهة بجمع آخر انتصر وفر من أمامه الجمع المنهزم مولياً الدبر .

وقد جاءت الكلمة مثني في القرآن الكريم كالآتي :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ١٥٥﴾ (آل عمران) .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ ٣١١﴾ (آل عمران) .

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ٤١﴾ (الأنفال) .

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٦١﴾ (الشعراء) .

في الاستعمال الأول والثاني : يتحدث عن الذين ولوا من المسلمين في أحد يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين ، ولم يبق مع النبي S سوى القليل ، ويشير في الآية الثانية للموقعة نفسها حيث أصيب المسلمون فيها بفقد عدد كبير من الشهداء على رأسهم حمزة عم النبي S . وفي الثالثة : يتحدث عن غزوة بدر التي هي ترجمة حقيقية للبشرى السابقة التي بشرهم الله بها وهم مازالوا في مكة ، فعند أول لقاء حربي بين الجمعين تحقق الوعد :

﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥﴾ (القمر) .

ففي هذا اليوم (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) وهو نفسه يوم بدر .. يوم (الَّتَقَى الْجَمْعَانِ) لينزل الله على عبده النصر ، وينهزم الجمع الكافر (وَيُولُونَ الدُّبُرَ) .

وفي الآية الرابعة : جاءت كلمة الجمعان للتعبير عن التقاء فرعون بجيشه مع قوم موسى ، فهي معركة حربية . لا مجال فيها لمفاوضات ، فالكلمة للسيوف ، وللمغلوب الموت . وهذا ماحدث ، ارتعب أصحاب موسى وقالوا (إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) ، لكنه كان يثق في أن معه ربه ، ولم يخذله ربه ، فقد أغرق له العدو عن بكرة أبيه .

وبذلك نرى أن كلمة الجمع تستعمل في المواجهة استعداداً للحسم قبل بدء القتال .



٢ | الفريقان :

أصل الكلمة كما جاء في مقاييس ابن فارس : يدل على تمييز وتزييل بين شيئين ، من ذلك الفرق : فرق الشعر . ومن الباب : الفريقة ، وهو القطيع من الغنم ، كأنها قطعة فارقت معظم الغنم . وناقاة مفرقة : فارقتها ولدها بموت . والفرقان : كتاب الله تعالى فرق به بين الحق والباطل . والفرقان : الصبح ، سمي بذلك لأنه به يفرق بين الليل والنهار ، ويقال لأن الظلمة تتفرق عنه . والفارق : الخلفة تذهب في الأرض نادة من وجع المخاض فتنتج حيث لا يعلم مكانها ؛ والجمع فوارق وفروق . وسميت بذلك لأنها فارقت سائر النوق . وتشبه السحابة تنفرد عن السحاب بهذه الناقة ، فيقال : فارق .

إن الفرق كما نراه هو الانفصال ، أي لا بد من تجمع أولاً ، وينشأ عن هذا التجمع تفرق ، أي أن تتباعد أجزاء الشيء عن بعضها . فالفرقة هي الجماعة المنفردة عن مجموع الناس .

وهناك فرق بين الفلق والفرق ، فالفلق هو انشقاق الشيء الواحد إلى شيئين ، والفرق هو الشيء المستقل عن غيره ، ولهذا نرى دقة بالغة في استعمالهما معاً في عبارة واحدة :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء)

فالبحر انفلق فأصبح شيئين بعد أن كان شيئاً واحداً ، وأصبح كل شيء منهما فرقاً ، يقول Y (فَانْفَلَقَ) أي أن ضربة العصا شقت البحر فأصبح قسمين ، وأصبح كل قسم منهما فرقاً (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) .

وقد جاءت الكلمة مفردة في التنزيل العزيز مرة واحدة : عندما أمر يعقوب أبناءه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، أي كل باب مستقل عن الباب الآخر :

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ (يوسف)

ولقد جاءت الكلمة وصفاً في المرتين عند الإفراد والجمع (مُتَفَرِّقَةً ، مُتَفَرِّقُونَ) وجاء الموصوف جمعاً في المرتين : وسر ذلك أن الموصوف بالمفرد أكثر من عشرة لأن وصف المعداد

ينوب عن التمييز ، والتمييز يأتي مفرداً بعد العشرة .

وجاء الوصف جمعاً ليعادل التمييز الجمع مما يعنى أن العدد الموصوف بالجمع قليل دون العشرة ، فالأرباب قليلة .

وجاءت كلمة فريق في القرآن ٢٩ مرة ، تتمحور موضعين :

• الأول (التقسيم) : (فريق ، وفريق)

مثل قوله تعالى : ﴿ فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧) (البقرة) .

• الثاني : الحديث عن فريق واحد : مع الوصف (بمن) التبعية .

مثل قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِكْرِهِمْ ﴾ (٨٥) (البقرة) .

وجاءت الكلمة مثنى في القرآن أربع مرات :

﴿ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾^(١) . : كان قوم صالح (ثمود) مجتمعاً واحداً حتى جاء صالح عليه السلام ، يأمرهم بعبادة الله ، فتحول الجماعة إلى فريقين يختصمون فيما بينهم . يقصد بثمود المدينة التي عاشت فيها قبيلة ثمود ، فأرسل الله إلى القوم الذين يسكنون فيها أخاهم صالحاً يأمرهم بعبادة الله ، فانقسموا إلى فريقين ، أحدهما مؤمن هو صالح ومن اتبعه ، والآخر أهل المدينة ، فهم فريقان ، لكن كل فريق يضم أفراداً والاختصاص يتم من الأفراد ، فجاءت فريقان مثنى لتشير إلى أن المدينة انقسمت إلى موقفين لا ثالث لهما (الكفر والإيمان) ، وجاء الجميع ليشير إلى أن الحدث (الاختصاص) لا يتم بين صالح (زعيم المؤمنين) وبين كبير الكفر ، بل يتم بين أنصار كل منهما .

(١) من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٥) (النمل) .

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾^(١) : كانت الناس قبل الرسل مجتمعاً واحداً ، فبحضور الرسل أصبحوا فريقين أحدهما : أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، والفريق الآخر : الظالمون الذين خسروا أنفسهم وانتهوا إلى جهنم .

﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾^(٢) : كانت الناس جماعة واحدة ، حتى قسمهم الإيمان قسمين (الَّذِينَ كَفَرُوا) ، (لِلَّذِينَ آمَنُوا) . فلا فريق إلا بقاسم يقسم الناس المجتمعة إلى قسمين .

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾^(٣) : كان إبراهيم عليه السلام قبل أن يدعو قومه إلى توحيد الله واحداً من قومه ، حتى جاءهم بالإيمان ، فقسمهم ذلك إلى قسمين : الموحدين ، والمشركين .

إن لفظة الفريقين لا تكون إلا لمجموعة ، يحدث لهم ما يفرقهم . فلا بد من قاسم يقسم المجموع إلى قسمين منفصلين . تماماً كما قسمت عصا موسى البحر ، وفلقته ليتحول من قطعة واحدة إلى فرق ، كل فرق كالجبل لأن ماءها ارتفع إلى أعلى كالجدار .



(١) من قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) (هود) .

(٢) من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا نُنَادِيَنَّهُمْ ابْنَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٢) (مريم) .

(٣) من قوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) (الأنعام) .

٣ الحزبان :

أصل الكلمة كما جاء في مقاييس ابن فارس : تجمع الشيء ، والحزباء : الأرض الغليظة^(١) . وفي لسان العرب : وحزب الرجل أصحابه وجنّده الذين على رأيه ، والمنافقون والكافرون حزّب الشيطان وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلق بعضهم بعضاً بمنزلة عاد وثمود وفرعون أولئك الأحزاب^(٢) .

وكلام ابن منظور يقودنا إلى الحدود الفاصلة لكلمة الحزب : فهو كل تجمع فكري سواء التقوا مكانياً أم لا . ولهذا سمي قوم عاد وثمود وفرعون بالأحزاب برغم أنهم متعاقبون زمنياً ، وذلك لأن كل منهم على نفس الموقف الفكري في مقاومة نور الله .

ولم يكن عجباً أن يأتي في الحديث (كان إذا حزبه أمر صلى) ليعطى للكلمة الملمح الفكري ، أي شغل فكره فاشتد عليه ، فطلب الصلاة ليتغلب عليه .

وقد أطلقت كلمة الأحزاب رأسياً وأفقياً :

١- رأسياً : أطلقت على متوالين زمنياً ، لم يلتقوا معاً ، إذ كل منهم جاء في مرحلة زمنية غير الأخرى مثل قوم عاد وثمود وفرعون . فهذا التباعد الزمني لم يمنع أن يسموا أحزاباً لأنهم على موقف فكري واحد .

٢- أفقياً : أطلقت على مجموعات متباعدة مكانية في زمن واحد هو زمن رسول الله S ، فهذا التباعد المكاني لم يمنع القبائل المتصارعة قبلاً أن تتجمع في وحدة واحدة ضد رسول الله S .

ولأن الكلمة تتمحور الموقف الفكري ، لم يكن عجباً أن تسمى المجموعات السياسية المختلفة فكرياً ومذهبياً بالأحزاب .

(١) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة حزب .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حزب .

وثمة حزبان رئيسيان في هذا الكون ، تتفرع عنهما جميع الأحزاب ، حزب الله ، وحزب الشيطان في مواجهته :

حزب الله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة . ٥٦)

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة . ٢٢)

حزب الشيطان : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر . ٦)

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (المجادلة . ١١)

ولا ينشأ حزب الشيطان إلا بمخالفة منهج الله . فقد أمر الله عزوجل الرسل أن يبلغوا الناس : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون . ٥٢)

فتلقت الأمم الأمر السابق بمعكوس مراده ، فقطعوا الكتاب الواحد كتباً ، والدين الواحد أدياناً ، والإله الواحد استبدلوا به أصناماً متعددة ، فتفرقوا على مذاهب متعددة ، وأصبح كل حزب بما اخترعه من دين فرحاً به .

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون . ٥٢)

وقد أمر الله ﷻ رسوله محمداً أن يقيم وجهه للدين حنيفاً ، ولو فعل فقد استقام وقت فعله على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وطلب ربُّ العزة من أتباع محمد S أن يلزموا تلك الفطرة ، ولا يكونوا كالمشركين الذين جاءتهم تلك الفطرة التي يتقبلها العقل ، فجرفهم الشيطان عنها ، وأمرهم أن يشركوا بالله ، وأن يجعلوا دين الله الواحد أدياناً متعددة مختلفة ، فكانوا شيعاً (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) أي كل فريق فرح بمذهبه الفكري الباطل . فهنا هولا يصف الناس ، بل يصف ما هم عليه من موقف فكري ، ولذلك لم يقل مثلاً كل فريق ، أو كل شيعة ، برغم أنهم فعلاً شيعة ، لكن الشيعة لو كان يصف الناس أنفسهم ، أما الحزب إذا كان يصف الشيعة بناء على اختلافهم الفكري والمذهبي .

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم . ٣٢)

ولم تأت لفظة الحزب (مثلى) إلا مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴾ (التكويف . ١٢)

وقد أطلق الله عزوجل كلمة الحزبين ليعبر بها عن أهل الكهف أنفسهم ، لما اختلفوا فيما بينهم على المدة التى لبثوا فيها داخل الكهف . وذلك لأن المختلف عليه اختلاف فكري .

إن القرآن قد أشاد بأهل الكهف :

﴿ إِنَّمْ فَنِيَةً ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤ ﴾ (الكهف) .

وبرغم أن تلك الإشادة تكشف أنهم فرقة واحدة على موقف واحد ، إلا أنهم عندما بعثهم الله ﷻ اختلفوا فكرياً حول تقدير مدة اللبث في الكهف على النحو الآتي :

السائل : قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ

فريقا الإجابة :

الفريق الأول : قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

الفريق الثاني : قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۝١٩

وقد استدل بعض العلماء أن العدد كان سبعة من هذا الحوار ، سائل واحد ، ومجموعة الرأي الأول (لا تقل عن ثلاثة بدليل الجمع في قَالُوا) والرأي الثاني : (لا تقل أيضاً عن ثلاثة بدليل الجمع في قَالُوا) فيكون المجموع سبعة . وهو كلام قد ينفي أن يكون العدد أقل من سبعة ، لكنه لا يلزم أن يكون سبعة ، فلو طبقنا هذا المعيار فحسب ، فالعدد يمكن أن يكون سبعة أو أكثر .

لكن ما يعيننا هنا .. أن ثمة سائلاً سأل (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ) فانقسم الباقيون إلى مجموعتين ، واحدة تقرر أن المدة (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ، والأخرى تحيل علم ذلك إلى الله ﷻ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) . وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الاختلاف بين المجموعتين بأن كل منهم حزب ، لأنه اختلاف فكري .

جاءت إحدى عشرة مرة بإثبات الألف (الْأَحْزَابُ) لأن الأحزاب في كل زمان ومكان متماثلون ، أشتات مختلفون يجتمعون على شيء واحد ضد الحق .



٤ | الفئتان :

الفئة كما جاء في مفردات الراغب : أصلها الفيء وهو رجوع الظل ، وقد سميت الغنيمة بالفيء (الظل) تنبيهاً أن أشرف أعراض الدنيا يجرى مجرى ظل زائل . والفئة : الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد ^(١).

ونرى أن كلمة الجمع تستعمل في المواجهة ، فكل تجمع أخذ وضع الاستعداد للحرب فهو جمع . فإذا بدأت الحرب ، وأصبح كل جمع يساعد نفسه على القضاء على الجمع الآخر ، هنا ينتقل المعنى إلى التعاضد فيسمى الجمع عندئذ فئة . فالفئة كل جمع يجب عليه أن ينصر ويعاضد ، ولهذا جاءت كلمة (فئة) نكرة موصوفة بالجملة الفعلية (يَضُرُّونَهُ) :

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَضُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴾ (٤٣) (الكهف) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَضُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٨١) (القصص) .

ولأنه لا انتصار إلا بالفئة التي ستعينه على النصر ، لذلك استخدم القرآن كلمة فئة ؛ ليبين عجزه التام ، لأنه لم يجد تلك الفئة . وقد كشف القرآن الكريم وظيفة الفئة عندما قال (فِئَةٌ يَضُرُّونَهُ) .

وفي موضع آخر : يتحدث الله ﷻ عن هزيمة الكفار في بدر :

﴿ إِنْ تَسْتَفِئْهُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ

وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩) (الأنفال) .

يخاطب رب العزة المنهزمين من أهل مكة متهمكاً ، وقد خرجوا يحاربون الله ورسوله ، ثم قبل خروجهم يتمسحون ببيت الله ويدعون الله قائلين : اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعاني ، إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا . وروي : أنهم قالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين . وروي أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أهرج وأقطع للرحم فأحنه اليوم ، أي فأهلكه .

(١) الراغب الأصفهاني ، مفردات القرآن ، مادة فيء .